هناك إله

كيف غيَّر أشر مُلْحد رأيه؟

المؤلِّف

أنتوني فلو

ترجمة

د. صلاح الفضلي

مراجعة وتعليق

الدكتور الشيخ مرتضىٰ فرج

هناك إله

كيف غيّر أشهر مُلْحد رأيه؟

تأليف

أنتوني فلو

ترجمة

د. صلاح الفضلي

مراجعة وتعليق

الدكتور الشيخ مرتضىٰ فرج

الطبعة الأُولىٰ: ١٤٣٨هـ
العدد: ١٠٠٠ نسخة

جميع الحقوق محفوظة للناشر

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة المترجم:

أهميَّةُ هذا الكتاب تأتي بالدَّرجةِ الأُولىٰ من جهةِ مُؤلِّفِهِ. فكما يُشيرُ عنوانُ الكتاب الفرْعي (كيف غَيَّرَ أشهر مُلْحد رأيه؟)، فإنَّ المؤلِّف (أنْتوني فلو) كان واحداً من أكبرِ الملاحدة في العصْرِ الحالي. وبالتالي فإنَّ تجربةَ (فلو) التي استمرَّت أكثر من خمسين سنة في الإلحاد، وكتابتَهُ العديدَ من الكُتُب التي تُؤيِّدُ الموقف الإلحادي، وخوضَهُ العديد من المناظرات التي تُدافع عن الإلحاد، ثمَّ تحوُّلَهُ بعد كلِّ هذه السِّنين إلىٰ الإيمانِ بالله، لا بدَّ أنَّه يُضيفُ مصداقيةً كبيرةً لما سيقولُهُ في هذا الكتاب.

وُلِدَ الفيلسوفُ البريطاني (أنتوني ريتشارد فلو) في فبراير من عام (١٩٢٣م)، وهو ينتمي إلىٰ تيّارِ الفلْسفة التَّحليلية[1]، واشتُهِرَ بكتاباته فلْسفةِ الأديان. وقد قامَ بتأليفِ أكثر من (٣٠) كتاباً، أغلبُها يحاولُ دحضَ فكرة الدِّين، واشتُهِرَ عنه مقولتُهُ: (إنَّ علىٰ المرءِ أنْ يظلَّ مُلْحداً

---

(١) وهي فلسفة راجت في الغرب في القرن العشرين، خصوصاً في إنجلترا، وهي تهتمُّ بإرجاع الفلسفة إلىٰ اللغة، وتحليل التراكيب اللغوية لاستكشاف عالم الواقع، بوصفها حاكية عنه. من أبرز رموز هذه الفلسفة برتراند رسل (١٩٧٠م). ثمّ ظهرت من هذه الفلسفة مدارس متعدِّدة، منها: الوضعية المنطقية، التي كان من أبرز أعلامها رودلف كارناب (١٩٧٠م). هذه المدرسة – التي اندثرت تقريباً – كانت لا تؤمن بما وراء الطبيعة (كالإله مثلاً)، وترىٰ أنَّ أيَّ جملةٍ تتحدَّثُ عن موضوعٍ ينتمي إلىٰ ما وراء الطبيعة، إنَّما هي جملةٌ لا معنىٰ لها أصلاً، لأنَّها لا تشيرُ إلىٰ واقع. (المراجع).

حتَّىٰ يجِدَ الدَّليلَ التَّجريبى علىٰ وجودِ الإله).

غـير أنَّـه في أواخـرِ حياتِـهِ غـيَّر قناعاتَـهُ، وفي عـام (٢٠٠٤م)، خـلال مناظرة فلْسـفية، أعلَـنَ عـن تحوُّلِـهِ إلىٰ الإيـمانِ بالإلـهِ وتخلِّيـهِ عـن الإلحـاد. وقامَ بتـأليفِ كتـاب نسَـخَ فيـه كـلَّ كُتُبِـهِ السَّـابقة، وهـو الكتـابُ الـذي بـين يدينا.

علىٰ إثْـرِ إعلانِـهِ عـن تحوُّلِـهِ إلىٰ الإيـمان بالإلـه، تعـرَّضَ (فلـو) لحملـةِ تشهيرٍ ضخمةٍ مـن المواقـع الإلحاديـة في العـالَم، وذلـك لأنَّـه ولخمسـينَ عامـاً كـان يُعتَـبرُ مـن أهـمِّ مُنظِّـري الإلحـاد في العـالَم، وقـد شـكَّلَ خـبَرُ تحوُّلِـهِ إلىٰ الفكـرِ الإيـماني صـدمةً قويَّـةً في وسـطِ الفكـر الإلحـادي في العـالَم. تُـوفِّي الفيلسوف أنتوني فلو عام (٢٠١٠م)، عن عمرِ ناهزَ السَّابعةَ والثَّمانين.

وهـا أنـا أعـرِضُ لكـم هـذا الكتـاب بنُسْـختِهِ المترجمـة، عـلىٰ أمـل أنْ يكـون هـذا الجهـدُ مفيـداً لشـبابنا الحـائر، الـذي تتعـرَّض معتقداتُـهُ الدِّينيـة الأساسـية للتَّزلـزُل، بسـبب ضـعْف مناعتِـهِ الفكريـة، وبُنيتِـهِ العقائديـة، الأمـر الـذي ينتهـى بأبسَـطِ هجـوم فكـريٍّ إلىٰ خلْخلـةٍ في تفكـيرِهِ، وهـو مـا يقـودُ في العديـدِ مـن الحـالات إلىٰ الوقـوع في مسـتنقع الضَّـياع الفكـري القاتل، نتيجةً لسيل الشُّـبهات التـى تغـزو عقلَـهُ مـن اتِّجاهـاتٍ عـدَّة، دون أنْ يكون لديه مصدَّات تمنع عنه غائلةَ هذه الشُّبهات.

أجـد لزامـاً عـليَّ أن أتقـدَّم بالشـكر الجزيـل للـدكتور الفاضـل والصـديق الصـدوق الشـيخ مرتضـىٰ فـرج عـلىٰ مراجعتـه الدقيقـة لترجمـة الكتاب، وحرصه علىٰ ألَّا تفوته شاردة ولا واردة.

* * *

هناك إله
كيف غيَّر أشهر مُلحد رأيه؟

مقدِّمة المؤلِّف:

منذُ أنْ أعلنتُ عن (تحوُّلي) إلىٰ الأُلوهية، طُلِبَ منِّي في مناسباتٍ كثيرةٍ جدًّا بيانُ أسباب تغيير وجهة نظري. أشرْتُ في عدَّةِ مقالاتٍ متتابعةٍ وكذلك في مقدِّمةِ طبعة عام (٢٠٠٥م) من كتابي (الإله والفلسفة God and Philosophy)، إلىٰ الأعمالِ الحديثة المتعلِّقة بالنِّقاشِ حول (الإله)، لكنَّني لم أُبيِّن وجهةَ نظري في ذلك. أمَّا الآن فقد انتهيتُ إلىٰ القناعةِ بأنْ أعرِضَ ما يمكن تسميَتُهُ وصيَّتي وشهادتي الأخيرة. باختصار، وكما يدُلُّ عنوانُ الكتاب، أنا أعتقدُ الآن بأنَّ هناك إلهاً.

عنوانُ الكتابُ الفرْعي (كيف غيَّرَ أشهر مُلْحِد رأيَهُ؟)[1] لم يكن من اختياري. لكنَّني مع ذلك سعيدٌ بتوظيفِهِ باعتبارِهِ من العناوين الجذَّابة. لقد قامَ أبي اللاهوتي[2] في إحدىٰ المرَّات، بتحريرِ مجموعة من مقالاتِهِ ومقالات بعض تلامذتِهِ السَّابقين، وضمَّنها كتاباً جدليًّا وعنْوَنَ هذا الكتاب بعنوانٍ متناقضٍ، لكنَّه مناسبٌ وهو (كاثوليكية البروستانتية)[3]. وسيراً علىٰ النَّمطِ نفسِهِ في طريقةِ العرْض، قمْتُ بنشرِ

---

(١) (How the World's Most Notorious Atheist Changed His Mind).

(٢) المقصود بـ(اللاهوت): علم الكلام المسيحي. (المراجع).

(٣) (The Catholicity of Protestantism).

أبحـاثٍ بعنـاوين مشـابهة مثـل: (القيـامُ بـأعمالٍ خـيِّرة لـيس خـيراً)، و(هـل رهانُ باسكال Pascal's Wager هو وحدهُ الرَّهانُ الآمِن؟)[١].

في البدايـةِ لا بـدَّ أنْ أكـونَ واضـحاً. عنـدما انتشـرت أخبـارُ تحـوُّلي في وسائلِ الإعـلام وعـلىٰ شبكة الإنترنـت، سـارَعَ بعـضُ المُعلِّقـين إلىٰ الادِّعـاءِ بأنَّ تقدُّمي في العمر أثَّرَ فِي (تحـوُّلي). لقـد قيـل: إنَّ الخـوفَ هـيمَنَ عـلىٰ عقـلي بقوَّة، وقد انتهىٰ هـؤلاء المنتقـدون إلىٰ أنَّ توقُّعـات الـدُّخول إلىٰ عـالَمِ مـا بعـدَ المـوت حفَّـزَت لـديَّ (تحـوُّل فـراش المـوت Deathbed conversion)[٢]. مـن الواضـحِ أنَّ هــؤلاء الأشــخاص لم يكونــوا مطَّلعــين عــلىٰ كتابــاتي عــن اللاوجود بعد الموت، وهم ليسـوا مطَّلعـين كـذلك عـلىٰ آرائـي الحاليـة حـول هذا الموضوع.

عـلىٰ مـدىٰ أكثـر مـن خمسـين سـنة لم أُنكِـر وجـودَ إلـهٍ فحسْـب، بـل أنكرتُ أيضاً وجـودَ حيـاةٍ بعـد المـوت. ومحـاضراتي التـي نُشِـرَت في كتـابِ (منطـقُ الفنـاء) تُمثِّـلُ ذروة هــذا المـنهج مــن التفكـير. فهـذا مجـالٌ مــن المجالاتِ التي لم أُغـيِّر وجهـةَ نظـري فيهـا. وقـد كـان ذلـك واضـحاً في هـذا الكتـاب مـن خـلالِ مسـاهمة رايـت (N. T. Wright's) في المُلْحـقِ الثـاني. أودُّ أنْ أضَعَ حدَّاً لجميعِ هذه الشَّائعات التي وضعتني في رهانِ باسكال[٣].

---

(١) رهــان باســكال: حُجَّــةٌ مبنيَّــةٌ عــلىٰ نظريــةِ الاحــتمالات ونظريــة القــرار، وتُســتَخدمُ للاحتجاجِ بضــرورةِ اتِّخاذ قـرار بشـأنِ الإيـمان بـالله، عـلىٰ الـرَّغمِ مـن عـدمِ إمكانيـة إثبـات وجوده أو عدم وجوده عقلياً. بليز باسكال هو من صاغَ الحُجَّة.

(٢) تعبـير إنجليـزي عـن ظـاهرة اعتنـاق معتقـدات إيمانيـة لـدىٰ بعـض النـاس قبـل مـوتهم بقليل.

(٣) يقصد (فلو) أنَّه باتَ بكـلِّ تأكيـدٍ يـؤمنُ بـالله، لكـن لم يحسم أمـرَهُ بعـد بشـأنِ الإيـمان بحيـاةٍ بعـد المـوت (القيامـة والجـزاء الأُخـروي)، لـذا لا يمكـن وضـعُهُ ضـمن المتـأثِّرين برهـانِ

أيضـاً لا بـدَّ أنْ أُشـيرَ إلىٰ أنَّ هـذه ليسـت هـي المـرَّة الأُولىٰ التـي (أُغـيِّر فيهـا وجهـةَ نظـري) في موضـوعٍ رئيســي. قـد ينـدهشُ القُـرَّاءُ المُلِمُّـونَ بـدفاعي المسـتميت عـن الأسـواقِ الحُـرَّة إذا مـا علمـوا أنِّي كنْـتُ ماركسـياً (لمزيدٍ من التَّفصيل، انْظُـر الفَصْـل الثـاني مـن هـذا الكتـاب). وقبـلَ عقـدينِ من الزَّمن، تراجعتُ عـن قناعـاتي السَّـابقة بـأنَّ اختيـارات الإنسـان محكومـةٌ بنحوٍ شاملٍ بواسطةِ أسبابٍ مادّية[1].

بما أنَّ هذا الكتاب يتكلَّمُ عن سببِ تغيير وجهة نظري بخصوصِ وجـود الإله، فإنَّ السُّؤالَ الواضح سوف يكـون: بـماذا كنـتُ أعتقـد قبـلَ (التَّغيـير)؟ ولماذا؟ الفصولُ الثلاثةُ الأُولىٰ من الكتابِ تستهدفُ الإجابةَ عن هـذا السُّـؤال، والفصولُ السَّبعةُ الأخيرة تصفُ اكتشافي للمُقدَّس (الإله). وعند تهيئةِ الفصول السَّبعة الأخيرة، لا بدَّ أنْ أعترف بأنِّي استفدْتُ كثيراً من النِّقاشِ مع البروفيسور ريتشارد سوينبيرن (Richard Swinburne)[2] والبروفيسور برايان ليفتو (Brian Leftow) أُستاذ كرسي نولوث[3] السَّابق والحالي في جامعةِ أكسفورد.

هناك مُلْحقانِ مُضافانِ للكتاب:

باسكال القائم علىٰ الإيمانِ بجزاءٍ أُخروي. (المراجع).

(١) يقصد المؤلِّف أنَّه تراجع عـن القـول بـأنَّ الإنسـانَ مجـبَرٌ ومحكـومٌ بالأسـباب المادّيـة، وصـار يميلُ للإيمانِ بإرادةِ الإنسان الحرَّة. (المراجع).

(٢) فيلسـوف إنجليـزي، يُعتَـبر مـن أشـهر فلاسـفة الـدين المسـيحي الأحيـاء، وُلِـدَ سـنة (١٩٣٤م)، ولـه مؤلَّفـات عديـدة. لـه بصـمة واضـحة في الـدفاع عـن الإيـمان بـالله في العـالم الغربي. (المراجع).

(٣) (Chair Nolloth) كرسي خاصٌّ في جامعة أكسفورد يتعلَّق بالدراسـات المسـيحية، تأسَّـس سـنة (١٩٢٠م)، تعاقـب عليـه أربعـة أسـاتذة، الأخـيرين مـنهما همـا: سـوينبيرن (الـذي تقاعـد في ٢٠٠٢م)، ثمَّ ليفتو. (المراجع).

المُلْحقُ الأوَّل هو تحليلٌ لما يُطلَق عليه اسم (الإلحادُ الجديد لـ ريتشارد دوكينز Richard Dawkins وآخرين)[1]، كتبَهُ روي أبرهام فارجيز (Roy Abraham Varghese).

أمَّا المُلْحقُ الثاني فهو نقاشٌ مفتوحٌ - بالغُ الأهمّية للمؤمنين بالدِّين - حول ما إذا كان هناك أيُّ نحوٍ من أنحاءِ الوحي الإلهي في التاريخِ البشري، مع تركيزٍ خاصٍّ علىٰ الادِّعاءِ المُتعلِّق بمسيحِ الناصرة (Jesus of Nazareth).

وللمهتمّين بالاطِّلاعِ علىٰ المزيدِ في هذا الموضوع، فإنَّ الباحثَ المتخصِّص في العهدِ الجديد رايت (N. T. Wright)، وهو أسقُف دَرَام (Durham) الحالي، تفضَّلَ بتزويدِنا بتقييمٍ لبُنْية الحقيقة التاريخية التي يقومُ عليها الإيمانُ المسيحي بالسيِّد المسيح[2].

وفي الحقيقةِ يجبُ أنْ أقول: إنَّ الأُسْقُفَ (رايت) قدَّمَ حسَب اطِّلاعي أفضلَ عرْضٍ للقبولِ بالاعتقادِ المسيحي في هذا الشَّأن[3].

لعلَّ من المناسبِ أنْ أذكُرَ شيئاً عن (شُهرتي) كمُلْحد، وهو ما يُشيرُ إليه العنوانُ الفَرْعي للكتاب. لقد كانت أولىٰ أعمالي المُعارِضة للألوهية في عام (١٩٥٠م)، عبرَ الورقة البحثية (اللاهوت والتكذيب Theology and Falsification).

وقد أُعيدَ طبْعُ هذه الورقة البحثية في كتاب (مقالاتٌ جديدةٌ في اللاهوتِ الفلْسفي New Essays in Philosophical Theology / ١٩٥٥م)، وهي مقتطفاتٌ

---

(١) (new atheism of Richard Dawkins and others).

(٢) أي تقييم للمعلومات والمعطيات التاريخية التي تؤكِّد علىٰ أنَّ المسيح حقيقة، وليست شخصية مختلقة. (المراجع).

(٣) سأُصرِّح بتقييمي لهذا العرْض وأُعلِّق عليه عندما أصل إليه، فانتظر. (المراجع).

قمتُ بتحريرِها بالاشتراكِ مع السدير ماكلانتير (Alasadair McClntyre).

لقد كان كتابُ (مقالاتٌ جديدةٌ في اللاهوتِ الفلْسفي) محاولة لقياسِ التأثير علىٰ الموضوعات الإلهية التي سُمِّيت فيها بعد (ثورة في الفلسفة revolution in phiosophy).

الإسهامُ الثَّاني المهمّ كان كتاب (الإله والفلْسفة God and Philosophy)، وقد نُشِرَ لأوَّلِ مرَّة عام (١٩٦٦م)، وأُعيدَ نشرُهُ في الأعوام (١٩٧٥، ١٩٨٤، ٢٠٠٥م). وفي مقدِّمةِ طبعة عام (٢٠٠٥م)، كَتَبَ بول كيرتز (Paul Kurtz)، وهو أحد أكبر الملاحدة في عصرِنا الحالي وهو أيضاً مؤلِّف كتاب (البيان الإنساني الثاني Humanist Manifesto II): (إنَّ دارَ النَّشْر يسُرُّها أنْ تُقدِّمَ ما أصبحَ يُعرَفُ بفلْسفةِ الدِّين التقليدية).

وتبَعَ نَشْر كتاب (الإله والفلسفة) نَشْرُ كتاب (فرضيَّةُ الإلحاد The Presumption of Atheism) عام (١٩٧٦م)، والذي طُبِعَ بعنوان: (الإله، الحرّية، والخُلُود God, Freedom and Immortality). وكان ذلك في الولاياتِ المتَّحدة الأمريكية في عام (١٩٨٤م).

أمَّا بقيَّةُ المؤلَّفات المتعلِّقة بالموضوع فهي:

(فلسفة هيوم في الاعتقادِ والمنطقِ واللُّغة hume's Philosophy of Belief and logic and language)، و(مَدْخلٌ إلىٰ الفلسفةِ الغربية: أفكار وحُجَجٌ من أفلاطون إلىٰ سارتر والتطوُّر الدَّاروِني An Introduction to Western Philosophy)، و(منطقُ الفناء Logic of Mortality).

في الحقيقةِ، إنَّه لمن المفارقات أنَّ أوَّلَ حُجَّةٍ منشورةٍ في تأييدِ الإلحاد قُدِّمت لأوَّلِ مرَّةٍ في ندوةٍ بالنادي السُّقراطي، رأَسَها أعظم مدافع عن المسيحيةِ في القَرْن

الأخير، سي. إس. لويس (C. S. Lewis)[1]. والمفارقةُ الثانية هي حقيقة أنَّ والدي كان أحد قادة التَّبْشير في إنكلترا. ويُضافُ إلىٰ ذلك، أنَّني في بدايةِ حياتي المهنية لم يكن لديَّ اهتمامٌ خاصٌّ بأنْ أُصبحَ فيلسوفاً محترفاً.

بما أنَّ جميعَ الأشياء الحسنة - إذا لم تكن جميع الأشياء دون استثناء - لا بدَّ أنْ تصِلَ إلىٰ نهايةٍ، فإنَّني سوف أُنهي كلمات المقدِّمة هنا. سأترُكُ للقُرَّاءِ أنْ يُقرِّروا ما يفعلونَ تجاه الأسباب التي أدَّت إلىٰ تغييرِ وجهة نظري حولَ السُّؤال عن الإله.

* * *

(١) سي. إس. لويس (١٨٩٨ - ١٩٦٣م)، هو أحد أبرز أعلام الإيمان بالله، أديبٌ إيرلندي المولد، بريطاني النشأة، أحد أشهر عمالقة الفكر في القَرْن العشرين. عمل مدرِّساً للأدب الإنكليزي في جامعة أكسفورد، ثمَّ جامعة كامبردج، وكتب أكثر من ثلاثين كتاباً، أهمّها (المسيحية المجرَّدة)، (المحبَّات الأربع)، (رسائل خُربُر)، وقد تُرجِمَت مؤخَّراً إلىٰ اللغة العربية، ونشرتها دار أوفير للطِّباعة والنشر، عمَّان، الأُردن. (المراجع).

القسم الأوَّل:

إنكاري للمقدَّس

MY DENIAL OF THE DIVINE

الفصل الأوَّل:

صناعةُ مُلْحِد

THE CREATION OF AN ATHEIST

صناعةُ مُلْحِد

لم أكُن مُلْحداً علىٰ الدَّوام. فقد بدأتُ حياتي كمؤمن. نشأتُ في بيتٍ مسيحي، ودرسْتُ في مدرسةٍ مسيحيةٍ خاصَّة. في الحقيقة، أنا ابنٌ لُبشِّرٍ مسيحي.

والدي كان خرّيجاً من كُلِّية ميرتون في أكسفورد، وكان هو المسؤول الدِّيني في الكنيسة المنهجية (Methodist)[1] التابعة للكنيسةِ البروتسانتية، وليس في كنيسةِ إنجلترا الكاثوليكية. ورغمَ أنَّ قلبَهُ ظلَّ تبشيرياً (Evangelism) علىٰ الدَّوام، فإنَّ ذكرياتي الأُولىٰ عنه أنَّه كان مرشداً في دراساتِ العهد الجديد في كلِّيةِ اللاهوت المنهجية في كامبردج. وبعد ذلكَ أصبحَ رئيساً للكلِّية، ثمَّ في النِّهايةِ تقاعدَ وتُوُفِّي في كامبردج. بالإضافةِ إلىٰ مسؤوليَّاتِهِ التبشيرية والتدريسية، اضْطلَعَ والدي بمهمَّةِ مُمثِّل للمدرسةِ المنهجية في منظَّماتٍ كَنَسيَّةٍ متعدِّدة. كما أنَّه رأسَ لفترةٍ واحدةٍ مدَّتُها سنة كلًّا من المؤتمر المنهجي والمجلس الكَنَسي الفيدرالي الحرّ.

يصعُبُ عليَّ تذكُّر أو تشخيص أيَّة إشارات في صِباي تدُلُّ علىٰ قناعاتي الإلحادية اللاحقة. في شبابي، درسْتُ في مدرسةِ كنغزوود في مدينةِ باث (Bath)، والمدرسةُ تُعرَفُ اختصاراً بـ (K.S) ولحُسنِ الحظّ

(١) إحدىٰ الكنائس البروتستانتية التي تستمدُّ توجيهاتها من جون ويسْلي.

كانت – ولا تزال – مدرسة عمومية. لقد تمَّ إنشاؤُها من قِبَلِ مؤسِّس الكنيسة المنهجية جون ويسْلي (John Wesley)، من أجلِ تدريسِ أبناء المُبشِّرين التابعينَ له.

التحقتُ بمدرسةِ كنغزوود بالتزامٍ دينيٍّ فاترٍ، ولم أجدْ أيَّ مغزىٰ للعبادة، وكنْتُ بعيداً عن الاستمتاع والمشاركةِ في غناءِ التَّرانيم. لم يحدُث أبداً أنْ قرأتُ شيئاً في الأدبِ الدِّيني بالشَّوقِ نفسِهِ الذي كنتُ أقرأُ به كُتُبَ السِّياسةِ والتاريخِ والعُلُوم وبقيَّة الموضوعات. كان الذَّهابُ إلىٰ الكنيسةِ وترديدُ الصَّلواتِ وبقيَّة الطُّقوس الدِّينية بالنِّسبةِ لي بمثابةِ مسؤولية ثقيلة، ولم أشعُر علىٰ الإطلاق برغبةٍ ولو قليلة بالاقترابِ من الإله.

من ذاكرتي القديمة، لا أستطيعُ أنْ أُجيبَ لماذا كنْتُ غير مهتمٍّ عموماً بالطُّقوسِ الدِّينية وبقيَّة الأُمور التي شكَّلت حياة والدي. لا أتذكَّرُ أنَّني كنْتُ أشعرُ باهتمامٍ أو حماسةٍ لهذه الاحتفالات. ولم يكن عقلي مأسوراً ولا (قلْبي مولَعاً) (حسب تعبير ويسْلي الشَّهير) بالدِّراسةِ المسيحية أو بالعبادة. لا أدري إذا ما كان عدمُ حماستي للدِّينِ في أيَّامِ شبابي سبباً أم نتيجةً؟ أو كليهما معاً؟ ولكن أستطيعُ القول: إنَّ أيَّ قَدْرٍ من الإيمانِ كان موجوداً لديَّ عندما دخلْتُ مدرسةَ كنغزوود، كان قد تلاشىٰ مع تخرُّجي منها.

* * *

نظريةٌ في المآل

(A THEORY OF DEVOLUTION)

لقد قيلَ لي: إنَّ مجموعة بارنا (Barna Group) - وهي منظَّمة مسيحية لقياسِ انطباعات الرَّأي العامّ - توصَّلت من خلالِ استبياناتها إلىٰ نتيجةٍ مفادُها أنَّ ما تؤمن به في سنِّ الثالثة عشرة من عُمُركَ هو ما ستظلُّ تؤمن بهِ حتَّىٰ موتك. بغضِّ النَّظَر عن صحَّةِ هذه النَّتيجة من عدَمِها، فإنَّني أُدرِكُ أنَّ الاعتقادات التي شكَّلَتْها عندما كنْتُ في الثالثةِ عشرة من عُمري بقِيَت معي في أغلبِ سنوات حياتي.

فقط لا أتذكَّر بنحوٍ دقيق متىٰ وكيفَ بدأ التَّغيير. ولكن بالتأكيد - كما هو الحال مع أيِّ إنسانٍ يُفكِّر - فإنَّ عواملَ عدَّة لعبت دوراً في تكوينِ قناعاتي. ليس أقلّها ما أسْماهُ إمانويل كانت (Immanuel Kant): (الرَّغبةُ الجامحةُ للعقلِ بعدَمِ الاستسلام للتَّبْشير)، وهو ما أعتقدُ أنَّني أشتركُ فيه مع والدي. أنا وهو نشتركُ في ميلِنا الطَّبيعي لاتِّباعِ طريق (الحكمة) كما وصفَها الفيلسوف كانت: (إنَّها الحكمة التي لها خاصيَّة اختيار المسألة التي يكونُ حلُّها مفيداً للجنْسِ البشري من بينِ عددٍ لا حصْرَ له من المسائلِ التي تُعرَض أمامَنا).

معتقداتُ والدي المسيحية أقنعَتْهُ بأنَّه لا يوجدُ شيء (أهمّ للجنْسِ البشري) من توضيحِ ونَشْرِ وتطبيقِ الحقائق الموجودة في العهدِ

الجديد. رحلتي الفكرية قادَتْني إلىٰ اتِّجاهاتٍ عدَّة، ولكن كلٌّ منها كان ينطوي علىٰ الرَّغبةِ العقليةِ الشَّديدة، وهو ما أشترِكُ فيه مع والدي.

أتذكَّرُ أيضاً أنَّني استفدْتُ كثيراً من تذكيرِ والدي لي في أكثر من مناسبة بأنَّ علماء الكتاب المقدَّس عندما يريدونَ استيعابَ مفهومٍ ما من العهدِ القديم، فإنَّهم لم يكونوا يبحثون عن الجوابِ بسهولةٍ من خلالِ التفكير فيه بمفردِهِم. وإنَّما عِوَضاً عن ذلك، كانوا يجمعونَ ويُحَلِّلُونَ، من خلالِ الاستعانةِ بأكبرِ قَدْرٍ من السِّياقات التي يمكن أنْ يجدوها، وجميع الأمثلة المتاحة التي وُظِّفت فيها الكلمة العبْرية ذات الصِّلة. هذا الأُسلوبُ البحثي شَكَّلَ من عدَّةِ أوجه الأساسَ لدراستي الفكرية المتقدِّمة - والذي لا زلْتُ محافظاً عليه - في تجميعِ وتحليلِ جميعَ المعلومات ذات الصِّلة بموضوعٍ مُعطىٰ. إنَّه من الأُمورِ التي تدعو للدَّهشةِ أنَّ مالِكَ البيت الذي نشأتُ فيه غرَسَ فِيَّ علىٰ الأرجح الحماسةَ للبحثِ الناقد، والذي سيقودُني في نهايةِ المطاف إلىٰ رفْضِ إيمان والدي.

* * *

وجهُ الشَّيطان

(THE FACE OF EVIL)

لقد قلْتُ في بعضِ كتاباتي الإلحادية المتأخِّرة، أنَّني وصلْتُ إلىٰ نتيجةٍ بشأنِ عدم وجود إله بصورةٍ متعجِّلةٍ جدَّاً، وبشكلٍ سطحيٍّ جدَّاً، والذي تبيَّنَ لي فيما بعد أنَّها كانت أسباباً خاطئة. لقد كرَّرتُ استخدامَ هذه النَّتيجة السَّلبية بشكلٍ متكرِّرٍ ومفصَّل، ولكن بعد سَبْعِ سنوات من ذلك، لم أجد أيَّ أساسٍ كافٍ لتسويغ هذا الموقف الأُصولي. أحدُ الأسباب المبكِّرة لتحوُّلي إلىٰ الإلحاد كان موضوع وجود الشُّرور في العالَمَ.

لقد كان أبي يصطحِبُني أنا وأُمِّي في رحلةٍ صيفيةٍ كلَّ سنة. رغمَ أنَّ القيامَ بهذه الرَّحلات لم يكن ممكناً اعتماداً علىٰ راتبِ والدي لوحدِهِ كمشْرفٍ ديني، إلَّا أنَّ القيامَ بهذه الرَّحلات صارَ ممكناً، لأنَّ والدي كان يقومُ بمساعدةِ طلبة الثانوية في مراجعةِ دُرُوسِهم في بدايةِ فَصْلِ الصَّيف، وكان يتقاضىٰ أجراً مقابِلَ ذلك. لقد كان السَّفَرُ بالنِّسبةِ لنا ممكناً وبنحوٍ رخيصٍ نظراً إلىٰ أنَّ والدي كان يتكلَّم الألمانية بطلاقةٍ بعد أنْ دَرَسَ اللاهوت لمدَّةِ سنتين في جامعةِ ماربورغ (Marburg) الألمانية قبلَ الحرب العالمية الأُولىٰ. ولذلك كان بمقدورِهِ أنْ يأخُذَنا في أثناءِ العطلات في رحلةٍ إلىٰ ألمانيا، ومرَّة أو مرَّتين سافرنا إلىٰ فرنسا دون الحاجة إلىٰ دفعِ مالٍ إلىٰ مكتبٍ سياحي. كما أنَّ والدي كان قد تمَّ تعيينُهُ

كممِّثـلٍ للكنيسـةِ المنهجيـة في عـدَّةِ مـؤتمرات لاهوتيـة دوليـةُ. وقـد اصطحبني - وأنـا ولـدُهُ الوحيـد - مـع والـدتي كضيوفٍ غـير مشـاركين في هذه المؤتمرات.

لقـد تـأثَّرتُ كثـيراً بـرحلاتِ السَّـفر الخارجيـة في السَّـنواتِ التـي سـبقت الحـرب العالميـة الثانيـة. ولا زلْـتُ أتـذكَّرُ بوضـوحٍ اللافتـات والعلامـات المُعلَّقـة خـارج القُـرىٰ الصَّـغيرة مكتوبـاً عليهـا (لا يُسْـمَح بـدُخولِ اليهـود). وأتـذكَّرُ أيضـاً أنَّـه كانـت تُعلَّـق لافتـات خـارج مَـدْخل المكتبـات العامَّـة تقـول: (لا تَسْـمَح لـوائحُ المؤسَّسـات بإعـارةِ الكُتُـب لليهـود). وشـاهدْتُ أيضـاً عرْضـاً عسـكرياً لعشـرةِ آلاف مـن أصـحابِ القُمْصـان البُنِّيـة في أحـدِ ليـالي بافاريـا الصَّـيفية. مكَّنَتْنـي رحـلاتي العائليـة أيضاً من رؤيـةِ مجموعـات مـن جماعـةِ وافـن (Waffen SS) بلباسِـهِم الأسـود وقُبَّعاتِهِم المرسوم عليها صورة جُمْجُمة وعظْمينِ متقاطعين.

مثـلُ هـذه التجـارب رسَـمَت مُخيِّلتـي في مرحلـةِ الشَّـباب وشـكَّلَت لي - كما هو الحال مع الكثـيرين - تحـدِّياً حـولَ وجـودِ إلـهٍ مُحِـبٍّ يمتلـكُ القـوَّةَ الكاملـة. ولا أسـتطيعُ أنْ أقـيسَ درجـةَ تـأثير ذلـك عـلىٰ تفكـيري. هـذه الخـبرات إذا لم يكـن سـواها أيقظـت في داخـلي الـوعي بالثُّنـائي الشَّـيطاني وهما معاداة السَّامية (anti-Semitism)[١] والشُّمولية (Totalitarianism)[٢].

(١) (معاداة السامية) مصطلح يُطلَق علىٰ معاداة اليهود كمجموعة عرقية ودينية وإثنية. تمَّ استعمال المصطلح لأوَّل مرَّة من قِبَل الباحث الألماني فيلهم مار، لوصف موجة العداء لليهود في أُوروبا الوسطىٰ في أواسط القرن التاسع عشر.

(٢) الشمولية هي طريقة حكم ونظام سياسي يمسك فيه حزب واحد بكامل السلطة، ولا يسمح بأيَّة معارضة، فارضاً جمع المواطنين وتكتيلهم في كتلة واحدة. وبعبارة أُخرىٰ: الشمولية أو نظام المجتمع المغلق هو مصطلح يشير إلىٰ نظام سياسي تكون فيه الدولة

* * *

تحت سلطة فرد أو فئة أو فصيل واحد، دون أن تعرف الدولة حدوداً لسلطاتها، حيث تسعىٰ بكلِّ جدٍّ لتنظيم جميع مظاهر الحياة العامَّة والخاصَّة ما أمكنها ذلك.

مكانٌ مفعمٌ بالحيوية

(AN ENORMOUSLY LIVELY PLACE)

أنْ تتربَّىٰ خلال الثلاثينات والأربعينات من القرْنِ العشرين في بيتٍ مثل بيتِنا - ينتمي للطَّائفةِ المنهجية - يعني أنَّكَ تعيشُ في كامبردج دون أنْ تنتمي إليها. بدايةً، اللاهوتُ لم يكن مقبولاً علىٰ أنَّه (مَلِكُ العُلُوم)، كما هو الحال في باقي المؤسَّسات. كما لم تكن هناك كلّية للتأهيلِ الدِّيني في أجواءِ الجامعة. وكنتيجة لذلك، لم أكُنْ معروفاً بانتمائي لكامبردج، علىٰ الرَّغم من أنَّ والدي كان يشعر وكأنَّهُ في بيتِهِ هناك. وعلىٰ كلِّ حال، فإنَّه منذُ عام (١٩٣٦م)، عندما بدأتُ بالترقِّي في المدرسة، فإنَّني نادراً ما كنْتُ أُقيمُ في كامبردج خلالَ فترة الدِّراسة[١].

ومع ذلك، فإنَّ مدرسةَ كنغزوود كانت في أيَّامي مكاناً يعُجُّ بالحياة، وكان يرأَسُها رجلٌ يستحقُّ أنْ يُقَيَّمَ باعتبارِهِ واحداً من أفضلِ مديري المدارس. قبلَ قُدُومي إليها بسنة، حصلَت المدرسةُ علىٰ جوائزَ في أكسفورد وكامبردج في مؤتمراتِ المدارس أكثر من أيَّةِ مدرسةٍ أُخرىٰ. ولم يكن نشاطُنا المدْرسي يقتصرُ علىٰ قاعاتِ الدِّراسة والمختبرات فقط.

---

(١) يقصد (فلو) من هذه الفقرة أنَّه تأثَّر بوالده، بحيث إنَّ أجواء كامبردج كانت تنعكس علىٰ البيت. فمن يعيش ويتربّىٰ في بيتٍ كالذي تربّىٰ فيه، فكأنَّه كان في كامبردج المفعمة بالحيوية. (المراجع).

عندما تكونُ في مثلِ هذه البيئةِ المثيرة، فإنَّه ليس مدْعاةً للدَّهشةِ لأحدٍ أنَّني بدأتُ في التَّشكيكِ بالإيمانِ الصَّارمِ لوالدي، وهو الإيمانُ الذي لم أشعُر بأيِّ ارتباطٍ عاطفيٍّ قويٍّ تجاهَهُ. عندما كنْتُ في الصَّفِّ السَّادس العُلْوي (يُماثِلُ الصَّفَّ الثاني عشر في النِّظامِ الأمريكي)، كنْتُ أُناقِشُ مع زملائي في الصَّفِّ بشكلٍ متكرِّرٍ فكرةَ الإلهِ ذي القُدْرة المطلقة والخير المطلق، وعدم توافُق هذه الفكرة مع وجودِ الشُّرور ونواقص العالم. عندما كنْتُ في مدرسةِ (K.S)، لم تكُنْ مراسِم يوم الأحد المنتظمة تتضمَّنُ أيَّةَ إشارةٍ إلىٰ مصيرِ الإنسان في الجنَّةِ أو النَّار. عندما كان ساكيت (A.B Sackett) – مديراً للمدرسة، وكان في الوقتِ ذاتِهِ أُسْقُفاً، وهو أمرٌ غيرُ معتاد في وقتِهِ – كانت كلمَتُهُ دائماً ما تتعلَّقُ بعجائِبَ وروعةِ الطَّبيعة. وعندما حلَّ عيدُ ميلادي الخامس عشر كنْتُ، قد بدأتُ برفضِ فكرة أنَّ الكونَ قد خلقَهُ إلهٌ كاملُ القدْرةِ والرَّحمة.

قد يسألُ أحدُهُم عمَّا إذا كنْتُ قد فكَّرتُ باستشارةِ المرْشد الدِّيني حولَ شُكُوكي المتعلِّقة بوجود الإله. لم أفعل ذلك قطُّ. ومن أجلِ الحفاظ علىٰ استقرارِ العائلة، وبشكلٍ خاصٍّ علاقتي مع والدي، حاولتُ قدْرَ المستطاع أنْ أُخفي عن الجميعِ في البيتِ تحوُّلي نحو اللادين. وحسبَ ما أعتقد، فإنَّني نجحْتُ في ذلكَ لسنواتٍ عديدة.

ولكن بحُلُولِ يناير من عام (١٩٤٦م)، وحينما كنْتُ في الثالثةِ والعشرين من عمري، انتشرَ الخبَرُ – ووصلَ إلىٰ والدي – بأنَّني مُلْحِدٌ، وأنَّني كذلك لا أُؤمنُ بالحياةِ بعد الموت، وأنَّه لم يكن من المرجَّح أبداً عودتي عن قناعاتي. لقد كان تحوُّلي كاملاً وصارماً، بحيث إنَّ النِّقاشَ في البيتِ حولَ هذا الموضوع كان سيبدو نقاشاً عقيماً. ومع ذلك،

وبعـد خمسـين سـنة مـن ذلـكَ الوقـت، يمكننـي القـول بـأنَّ والـدي كـان سيشـعُرُ بالسَّـعادةِ الغـامرةِ بقناعـاتي الحاليـة المتعلِّقـة بوجـودِ الإلـه. عـلىٰ الأقلّ سوف يعتبرُ أنَّ ذلكَ يُمثِّلُ مساعدةً عظيمةً للكنيسةِ المسيحية.

* * *

أكسفورد مختلفة

(A DIFFERENT OXFORD)

مــن مدرســةِ كنغــزوود، انتقلــتُ للدِّراســةِ في جامعــة أكســفورد. وصلْتُ إلىٰ أكسـفورد في ينـاير مـن عـام (١٩٤٢م)، كانـت الحَـرْبُ العالميـةُ الثانيــة قــد اشــتعلت. وفي أيَّــامي الأُولىٰ كطالــبٍ، وكنْــتُ حينَهــا في الثامنــةِ عشرة من عمـري، قمـتُ بـإجراءِ الفحـص الطبِّـي، وتـمَّ بعـد ذلـك إلحـاقي بشـكلٍ رسـميٍّ في سـلاح الجـوّ الملكـي. في أيَّـامِ الحـرْبِ تلـك، كـان مطلوبـاً مــن جميــعِ الشَّــباب اللَّائقــين بــدنياً أنْ يقومــوا بالخدْمــةِ يومــاً واحــداً في الأُسبوع في أحدِ مراكـز الخدمـة. وبالنِّسـبةِ لي، كـان مركـزُ الخدمـة هـو سِرْبُ الطَّائرات التابع لجامعةِ أكسفورد.

الخِدْمـةُ العسـكريةُ، التـي كانـت لمـدَّةِ سـنة بنظـامِ العمـل الجُزْئـي ثـمَّ بنظـامِ العمـل الكُـلِّي، لم تكـن ذاتَ طـابعٍ قتـاليّ. وكانـت الخدْمـةُ تتضـمَّنُ تعلُّم بعـضٍ مـن اللُّغـةِ اليابانيـة في قسْـمِ الدِّراسـات الشَّــرقية والأفريقيـة في جامعــةِ لنــدن. ومــن ثَــمَّ القيــامُ بترجمــةِ الإشــارات اللاســلكية التــي يــتمُّ رصْـدُها وفـكُّ شـفرتها، وكـان ذلـك يـتمُّ في منطقـة بلتشــي بـارك. بعـد استسـلامِ الجـيش اليابـاني، عملْـتُ في ترجمـةِ الإشـارات اللاسـلكية التــي كانـت تصـدُرُ مـن قِبَـلِ الجـيش الفرنســي الـذي كـان قـد أُنشـئَ حـديثاً للسَّيطرةِ علىٰ المنطقةِ المحتلَّةِ، وهي ما عُرِفَت بعد ذلك بألمانيا الشَّرقية.

عندما عُـدْتُ إلىٰ نظـامِ الدِّراسـة الكامـل في جامعـةِ أكسـفورد في ينـاير مـن عـام (١٩٤٦م)، كـان عـليَّ أنْ أتقـدَّمَ للاختبـارِ النِّهـائي في صـيفِ عـام (١٩٤٧م)، وجـدْتُ أنَّ أكسـفورد التـي عُـدْتُ إليهـا أصـبحت أكسـفورد مختلفـة. يبـدو أنَّهـا أصـبحت مؤسَّسـةً أكثـرَ إثـارة ممَّـا كانـت عليـه عنـدما تركتُها قبلَ ثلاث سنوات تقريبـاً. كـان هنـاك العديـدُ مـن الوظـائفِ المدنيـة، وكذلك كان هناك وظـائفُ عسكرية، لكنَّهـا كانـت وظـائف أكثـر أمانـاً ممَّـا كانـت عليـه في فـترةِ مـا بعـد الحـرب العالميـة الأُولىٰ. حضـرْتُ بعـضَ المحاضرات في كُلِّيـةِ الآداب الإنسـانية، وقـد كـان يُلْقـي بعـض المحـاضرات محـاربون قُـدامىٰ مـن الـذين كـانوا فـاعلين في مسـاعدةِ المقاومـة اليونانيـة في جزيـرةِ كريـت وعـلىٰ الأراضي اليونانيـة، وكـان الهـدفُ مـن ذلـك جعـل المحاضرات أكثرَ تشويقاً وتحفيزاً لطلبةِ البكالوريوس.

تقـدَّمْتُ للاختبـارِ النِّهـائي في الفَصْـلِ الصَّـيفي مـن عـام (١٩٤٧م). وقـد كـان مُدْهشـاً ومُفرحـاً في ذاتِ الوقـت أنَّنـي حصـلْتُ عـلىٰ المرتبـةِ الأُولىٰ. وبعـد أنْ حصـلْتُ عـلىٰ هـذه المرتبـة، عُـدْتُ إلىٰ مُعلِّمـي الخـاصّ جـون مـابوت (John Mabbott) في كُلِّيـةِ القـدِّيس جـونز، وقُلْـتُ لـه: إنَّنـي تخلَّيتُ عن هدفي السَّـابقِ في العمـلِ عـلىٰ الحصـولِ عـلىٰ شـهادةِ بكـالوريوس ثانيـة في المدرسـةِ التـي شُـيِّدَت حـديثاً في الفلْسـفةِ وعلْـمِ الـنَّفس. فأنـا الآن أُريدُ أنْ أُكمل دراستي العُلْيا في الفلْسفة.

* * *

الأصبوحات الفلسفية

(WAXING PHILOSOPHIC)

قامَ مابوت بمساعدتي في الالتحاقِ بالدِّراساتِ العُلْيا في الفلْسفةِ تحتَ إشراف جلبرت رايل (Gilbert Ryle)[1]، الذي كان وقتها أُستاذ مادَّة الميتافيزيقا في جامعة أكسفورد. كان رايل أحد أساتذة كرسي الفَلْسفة الثلاثة خلال الفَصْل الثاني من العام الدراسي (١٩٤٧ - ١٩٤٨م).

بعد ذلك بسنوات، علمْتُ عن طريقِ كتاب مابوت (ذكريات أكسفورد Oxford Memories) أنَّه ورايل كانا صديقينِ منذُ أنْ التقيا لأوَّلِ مرَّة في أكسفورد. لو كنْتُ في كلِّيةٍ أُخرىٰ وسُئِلْتُ من قِبَلِ أُستاذي الخاصّ عن الأفضل من بينِ الأساتذة الثلاثة، لفضَّلْتُ بالتأكيد هنري برايس (Henry Price)، وذلك بسببِ اهتماماتِنا المشتركة في عِلْمِ النَّفس، وهو التخصُّص الذي كان يُسمَّىٰ بالبحثِ النَّفسي في ذلك الوقت.

---

(١) فيلسوف بريطاني (١٩٠٠ - ١٩٧٦م)، كتب كتاباً (١٩٤٩م) بعنوان (تصوّر الذهن أو مفهوم العقل The Concept of Mind)، وصار هذا الكتاب محوراً أساسياً للنقاش في مجال فلسفة الذهن. مَثَّلَ هذا الكتاب هجوماً شرساً علىٰ ثنائية ديكارت (النفس والجسد)، وتأييداً للمدرسة السلوكية (رغم أنَّ رايل لم يكن سلوكياً بالمعنىٰ السيكولوجي. لذا يُسمّى البعض موقف رايل بـ (السلوكية الفلسفية))، انطلاقاً من فلسفة اللغة والأفكار التي طرحها فتجنشتين (Wittgenstein)، والتي ادَّعىٰ فيها أنَّ منشأ المشاكل الفلسفية هو الأخطاء اللغوية، وأنّنا إذا استخدمنا اللغة بنحو واضح، اختفت مشاكل الفلسفة تلقائياً. (المراجع).

ولذلك فإنَّ كتابي الأوَّل كان بعنوان (مقاربة جديدة إلىٰ البحث النَّفسي A New Approach to Psychical Research)، وقد أصبحنا أنا وبرايس بعد ذلك متحدِّثين في المؤتمرات التي تُعنىٰ بالبحثِ النَّفسي. ولكن أنا متأكِّد أنَّني لم أكُن لأحصل علىٰ جائزةِ الجامعة في الفلْسفةِ في تلك السَّنة لو كنْتُ تحتَ إشراف برايس، لأنَّنا كُنَّا سنقضي الوقتَ في النِّقاشِ حول موضوعات الاهتمام المشترك بيننا.

بعد أنْ قضيت العام الدِّراسي (١٩٤٨م) في الدِّراساتِ العُلْيا في الفلْسفةِ تحتَ إشراف رايل حصلْتُ علىٰ جائزةِ التميُّز، وكانت عبارةً عن منحةِ جون لوك للدِّراسةِ في تخصُّص الفَلْسفة الذِّهنية. وبعد ذلكَ تمَّ تعييني بوظيفةِ مُحاضِر في المجالِ التدريسي.

خلال السَّنة التي قُمْتُ فيها بالتَّدريسِ في أكسفورد، قُمْتُ بتدريسِ كتابات الفيلسوف لودفيج فتجنشتين (Ludwig Wittgenstein)[1]، وهو صاحبُ الاتِّجاه الفلْسفي الذي أثَّرَ فيَّ عند الدِّراسةِ في أكسفورد. هذه الكتابات نُشِرَت بعد ذلك بعنوان (الكتابُ الأزْرق والكتابُ البُنِّي Blue Book, Brown Book)، محاضرات في الرِّياضيات (Lectures on Mathematics)، وقد كانت مرفقة برسائل من فتجنشتين تُشيرُ إلىٰ نوعيَّةِ القُرَّاء المُوجَّهة لهم، وكذلك نوعيَّة القُرَّاء الذين لا ينبغي أنْ يقرأوها. وقُمْتُ أنا وأحد زملائي بنَشْرِ نُسَخ من محاضراتِ فتجنشتين

---

(١) من أكبر فلاسفة القرن العشرين، وُلِدَ في فيينا بالنمسا (١٨٨٩ - ١٩٥١م)، ودرس في جامعة كمبردج بإنجلترا، وعمل بالتدريس هناك. وقد حظي بالتقدير بفضل كتابيه (رسالة منطقية فلسفية)، و(تحقيقات فلسفية). عمل في المقام الأوَّل في أُسس المنطق والرياضيات، وفلسفة الذهن، وفلسفة اللغة. اعتقد أنَّ معظم المشاكل الفلسفية تقع بسبب اعتقاد الفلاسفة أنَّ معظم الكلمات أسماء. كان لأفكاره أثرها الكبير علىٰ كلٍّ من الوضعية المنطقية وفلسفة التحليل. أحدثت كتاباته ثورة في فلسفة ما بعد الحربين.

في أكسفورد، وجعلناها في متناولِ جميع من يرغبون بقراءَتِها.

كُنَّا نسأل كلَّ شخصٍ نعرفُ اهتمامَهُ بالفلْسفةِ في أكسفورد عمَّا إذا كانت لديه مخطوطاتٌ لمحاضراتِ فتجنشتين، وإذا كان الجوابُ (نعم) كُنَّا نسألهُ عن المحاضرةِ المتوفِّرة لديه، ولأنَّ مكائنَ التَّصوير لم تكن قد ظهرت في ذلك الوقت، قُمْنا بتوظيفِ طبَّاع للقيامِ بمُهمَّة طباعة عدد نُسَخ كافية لتلْبيةِ حاجة من يطلبها.

تعرَّفَ رايل علىٰ فتجنشتين عندما زارَ الفيلسوفُ النَّمساوي (فتجنشتين) جامعة كامبردج. وبعدها كوَّنَ رايل علاقة صداقة مع فتجنشتين، وأقنعَهُ بأنْ يقوما برحلةٍ علىٰ الأقدام إلىٰ منطقةِ (مقاطعة البُحيرة Lake District) الإنجليزية في عام (١٩٣٠ أو ١٩٣١م). لم يَنْشُر رايل أيَّ وصفٍ لهذه الرِّحلة، وما الذي تعلَّمَهُ أثناءَ صُحبتِهِ لفتجنشتين (منه وعنه). لكن بعد هذه الرِّحلة، أصبحَ رايل يتصرَّف كوسيطٍ بين فتجنشتين و(العالَم الخارجي)[١].

وكم كانت هذه الوساطةُ ضروريةً في بعضِ الأحيان. وهذا ما يكشِفُ عنه التَّسجيلُ الذي يُوثِّقُ لمحادثةٍ بين فتجنشتين - الذي كان يهودياً - وأخواتِهِ بعد أنْ احتلَّ جنود هتلر النَّمسا.

في هذه المحادثة، يُطَمْئِن فتجنشتين أخواته بالقولِ: (إنَّه بسببِ علاقاتِهِ مع الشَّخصياتِ الرَّئيسية والعوائلِ الكبيرة في النِّظامِ السَّابق

---

(١) يقصد (فلو) أنَّ رايل انكشفت له أثناء هذه الرحلة جوانب كثيرة من شخصية فتجنشتين وأفكاره، لكنَّه لم يفصح عمَّا انكشف له أثناء الرحلة، وإنَّما اكتفىٰ بأن بدأ يتصرَّف وكأنَّه الناطق الرَّسمي باسم فتجنشتين والمُعبِّر عن فكرهِ والمفسِّر لنظرياتِهِ أمامَ الناس. (المراجع).

وعلاقتِهِ بالناس، فإنَّهم جميعاً لن يتعرَّضوا لأيِّ أذىٰ). ولاحقاً عندما أصبحتُ أُستاذاً للفلسفة، كنْتُ أكرَهُ أنْ أكشِفَ لطلبتي أنَّ فتجنشتين - والذي كنْتُ أعتبرهُ والكثير من زملائي فيلسوفاً عبقرياً - كان شديدَ الغُرُور في الأُمورِ العِلْمية.

لقد كنتُ شاهداً شخصياً علىٰ سُلُوكِ فتجنشتين مرَّةً واحدةً علىٰ الأقلّ. وحدَثَ ذلك عندما كنْتُ في مرحلةِ البكالوريوس، وكان فتجنشتين يقومُ بزيارةٍ إلىٰ جمعيةِ جويت (Jowett Society). كان موضوعُ المحاضرة المُعْلَن هو: (أنا أُفكِّر إذاً أنا موجود)، والعنوانُ مأخوذٌ بالتأكيد من عبارةِ الفيلسوف الفرنسي رينيه ديكارت الشَّهيرة. كانت القاعةُ مكتظَّةً بالحضور، والجمهورُ يُصْغي لكُلِّ كلمةٍ يقولُها الضَّيفُ العظيم، ولكن الشَّيءُ الوحيد الذي أتذكَّرُهُ الآن أنَّ المحاضرةَ لم يكن لها أيّ علاقة بالعنوانِ المُعلَن لها. لذلك عندما انتهىٰ فتجنشتين من محاضرتِهِ، نهَضَ البروفيسور ريتشارد (H.A Richard) من مكانِهِ، وكان بادياً عليه السَّخط، وسأَلَ فتجنشتين: (يا فتجنشتين - وكان من الجليِّ أنَّ دكتوراه كامبردج لم يكن معترفاً بها في أكسفورد - مع ذلك أنا أُفكِّر إذاً أنا موجود). وضَعَ فتجنشتين إصبع سبّابَتَهُ علىٰ جبهتِهِ، واكتفىٰ بالقول: (إنَّ عبارةَ أنا أُفكِّر إذاً أنا موجود، جملةٌ غريبةٌ جدّاً). كنْتُ ولا أزال أعتقدُ أنَّ الرَّدَّ الأنسَبَ علىٰ فتجنشتين، كان ينبغي أنْ يُستوحىٰ من أحدِ مشاهد المسلسل الكرتوني (الرِّجالُ والنِّساءُ والكلاب)، الذي يقولُ فيه أحدُهُم: (ربَّما ليس لديكِ جاذبية يا ليلي، لكن أنتِ لُغْز).

* * *

التَّصادُم مع لويس

(LOCKING HORNS WITH LEWIS)

خـلال الفـترة التـي كنْـتُ فيهـا طالبـاً في الدِّراسـاتِ العُلْيـا تحـتَ إشراف جلبرت رايـل، أصبحتُ أُدرِك أنَّ مـن عادتِـهِ أنْ يـرُدَّ بشـكلٍ مبـاشرٍ وجهاً لوجـهٍ علىٰ أيِّ اعـتراضٍ يُوجَّـهُ لأيٍّ مـن أفكـارِهِ الفَلْسـفية. ورغـمَ أنَّ رايـل لم يُحـدِّثني بـذلك ولا أيّ شـخصٍ آخـرَ حسَـب عِلْمـي، فـإنَّ حـدسي يقـولُ: إنَّ رايـل كـان يتَّبِـع المقولـة التـي أورَدَهـا أفلاطـون في كتابِـهِ (الجمهورية) - وهـي مقولـةٌ تُنْسَـبُ إلىٰ سـقراط -، وفيهـا يقـول: (يجب أنْ نتَّبع الحُجَّـةَ أينـما قادتنـا)[1]. هـذا المبـدأ - ضـمن أُمـور أُخـرىٰ - يتطلَّـبُ أنْ يـتمَّ نقـاش أيِّ اعـتراض بصـورةٍ مبـاشرةٍ وجهـاً لوجـه. وقـد حاولـتُ أنْ أُطبِّقَ هذا المبدأ طوالَ حياتي الجدلية.

هذا المبدأُ شَـكَّلَ عنصـرَ تحفيـزٍ للنـادي السُّـقراطي، وهـو عبـارةٌ عـن مجموعـةٍ كانـت فاعلـةً في المشْـهد الفكـري في أكسـفورد أيَّـام الحـرب. لقـد كـان النـادي السُّـقراطي مسـرحاً لمنـاظراتٍ حيويـة بـين المُلْحـدينَ والمسـيحيين، وقـد كنْـتُ أُشـارِكُ بانتظـامٍ في هـذه الجلسـات. وكـان رئـيسُ النـادي في الفـترةِ مـن (١٩٤٢ إلىٰ ١٩٥٤م) الكاتـب المسـيحي سي. إس.

---

(١) ونظيرُهـا مـا هـو رائـج بـين طلبـة العلـوم الدِّينيـة في الحـوزات: (نحـنُ أتْبـاعُ الـدَّليل، أيـنما مالَ نميل). (المراجع).

لويس (C. S Lewis). كان النـادي يعقـدُ اجتماعَـهُ في مسـاءِ كـلِّ يـوم اثنـين في قاعـةِ السِّــرْداب في كُلِّيـةِ القـدِّيس هيلـدا. أشـارَ لـويس في مقدِّمـةِ العـدد الأوَّل مـن (مجلَّـةِ سُـقراط) إلىٰ عبـارةِ سـقراط: (يجـب أنْ نتَّبـع الحُجَّـةَ أينما قادتنـا). وقـد لاحـظَ لـويس في هـذه المقدِّمـة أنَّ هـذه الحلبـة المُخصَّصـة للصِّراعِ بين الإلحادِ والمسيحية كانت أمراً بديعاً.

تصادَمَ العديدُ من كبارِ المُلْحدين في أكسفود مع لويس وأتباعِهِ المسيحيِّين. ولعلَّ أفضل مناظرة حدثت بين الطَّرفين كانت في فبراير من (١٩٤٨م)، وكانت بـين لـويس (Lewis) واليزابيـث أنسـكومب (Elizabeth Anscombe)[1]، وهـي التي جعلت لويس يعيدُ كتابةَ الفصلَ الثالث من كتابهِ (المعجزات Miracles). لا زلتُ أتذكَّر عودتي مع مجموعةٍ من الأصدقاء، بعد انتهاءِ المناظرة العظيمة، حيثُ كُنَّا نسيرُ مباشرةً خلْفَ اليزابيث وأصدقائها. لقد كانت مبتهجةً، وكـذلك كـان حالُ أصدقائها. علىٰ الفور، خرجَ لويس أمام هذا الحزب وحيداً، وكان يمشـي بأقصىٰ ما يُمكِنُهُ، ليلجأَ إلىٰ غرفتِـهِ في كُلِّيـةِ ماغـدن (Magdden College)، التـي كانت تقعُ بالقُرْبِ من المكانِ الذي كُنَّا نقطع فيه الشَّارع.

رغـم أنَّ الـبعضَ اعتـبرَ أنَّ نتيجـةَ المنـاظرة أثَّـرت بشـكلٍ دائـمٍ عـلىٰ معنوياتِ لـويس، لكـن أنسـكومب (Anscombe) ذاتهـا كانـت تختلـفُ معهـم في ذلك. لقـد كتبَـتْ لاحقـاً: (كـان اجـتماعُ النـادي السُّـقراطي الـذي قـرأتُ فيـه ورقتـي البحثيـة بالنِّسـبةِ للعديـدِ مـن أصـدقاءِ لـويس فظيعـاً وصـادماً، وهو ما أدَّىٰ إلىٰ إحباطِـهِ بشـكلٍ كبـير، ولكـن لا الـدكتور هـارفرد (Havard) ولا البروفيسـور جـاك بينـت (Jack Bennett) يتـذكَّر أنَّ مثـلَ هـذا الشُّـعور

---

(١) فيليسـوفة إنجليزيـة (١٩١٩ - ٢٠٠١م)، تُعتَـبر مـن أبـرز تلامـذة فتجنشـتين، ومـن أعـلام الفلسفة التحليلية. (المراجع).

كان بادياً علىٰ لويس... أنا أميلُ إلىٰ التَّحليلِ المناقض لهذا الاعتقاد من قِبَلِ أصدقائِهِ... باعتبارِهِ مثالاً جيِّداً علىٰ ظاهرةٍ تُسمَّىٰ (الإسقاط)[1][2].

لقد كان لويس أكثر المدافعين عن الدِّينِ المسيحي تأثيراً في الحُقبةِ الأخيرةِ من القَرْنِ العِشْرين. عندما سألتني مؤخَّراً هيئةُ الإذاعة البريطانية (BBC) عمَّا إذا كنْتُ قد دحضْتُ دفاعَ لويس عن الدِّينِ بشكلٍ كامل، أجبْتُ: (لا. أنا فقط لم أكُن أعتقد أنَّ هناكَ أسباباً كافية للاعتقادِ بذلك. ولكن بالتأكيد عندما عُدْتُ للتَّفكيرِ في الأُمورِ اللاهوتية، بدا لي أنَّ حالةَ الوحي المسيحي قويَّةٌ جدَّاً إذا كُنْتَ تعتقدُ بالوحي من الأساس).

***

---

(١) الإسقاط هي حيلة دفاعية ينسبُ فيها الفردُ عيوبَهُ ورغباته المحرَّمة والعدوانية أو الجنسية للناس، حتَّىٰ يُبرِّئ نفسَهُ ويُبعد الشُّبُهات عنها. (المراجع).

(٢) G. E. M. Anscombe , The Collected Papers of G. E. M. Anscombe , vol. ٢, Metaphysics and the philosophy of Mind (Minneapolis: University of Minneasota Press, ١٩٨١), x.

تطوُّرات إيجابية جدّاً

(HIGHLY POSITIVE DEVELOPMENTS)

خلالَ الفصْل الأخير لي في جامعةِ أكسفورد، نَشَـرَ آير (A.J. Ayer)[1] كتابَهُ (اللُّغة، الصِّدْق والمنطق Language, Truth and Logic)، وهو ما أقنَعَ عـدداً مـن أعضاءِ النادي السُّقراطي أنَّه لا بدَّ من تفنيدِ هرطقة آيـر في الوضـعيةِ المنطقيـة، والتي تقول: إنَّ كلَّ القضايا الدِّينيـة لـيس لهـا معنـىٰ إدراكـي، وإنَّهـا يجـب أنْ تُدْحَض. بدا لي أنَّ الورقةَ الأُولىٰ والوحيدةَ التي قرأتُها أمامَ النادي السُّـقراطي، وكانت بعنوان (اللاهوت والتكذيب Theology and Falsification)، قـدَّمتْ مـا اعتبرتُهُ تفنيداً كافياً. واعتقدْتُ حينها أنَّني حقَّقْتُ نَصْـراً كـاملاً، وإنَّـه لا مجـالَ لأيَّةِ مناظرة إضافية.

التقيتُ أيضاً في أكسفورد بأنِس دونسن (Annis Donnison)، التي ستصبحُ فيما بعد زوجةً لي. لقد تعرَّفنا علىٰ بعضِنا البعض عن طريقِ أُخت زوجتي، التي

---

(١) ألفـرد آيـر (Alfred Jules Ayer) فيلسـوف بريطـاني (١٩١٠ - ١٩٨٩م)، مـن أبـرز أعـلام الوضـعية المنطقيـة. تمحـورت أفكـاره حـول نقـد الميتافيزيقا بمختلـف فروعهـا، كـاللاهوت والجـمال والأخـلاق، حيـث رأىٰ أنَّ الميتافيزيقـا لا يمكـن التأكّـد مـن حقّانيتهـا بالتجربـة. كما أنكـر بديهيـة الأحكـام المتعلّقـة بالمـاضي، وذهـب إلىٰ أنَّهـا ليسـت كبداهـة الحـاضر، لأنَّنـا لا نـتمكَّن مـن الرجـوع إلىٰ الـوراء للتـيقّن مـن صـحَّة مـا وقـع في المـاضي. والنتيجـة أنَّنـا لا يمكننـا أن نُثبِـت ذلـك بطريقـة علميـة. تـأثَّر بـه تلميـذه د. زكـي نجيـب محمـود، الـذي كـان منـاصراً للوضـعية المنطقيـة، فكتـب (المنطـق الوضـعي)، و(خرافـة الميتافيزيقـا)، ثـمّ تراجعـا في آخر حياتهما عن أهمّ أفكارهما في الوضعية المنطقية. (المراجع).

دعَتْنا إلىٰ اجتماعِ النادي العُمّالي في أكسفورد. وبعدَ أنْ تعرَّفْتُ علىٰ أنِس (Annis)، لم أعُد أُعيرُ انتباهاً لأيِّ شخصٍ في هذا الاجتماع سواها. وبعد هذا اللِّقاء، اتَّفقنا أنا وأنِس علىٰ أنْ نلتقي مرَّةً أُخرىٰ. وكان ذلكَ اللِّقاء الوحيد الذي واعدْتُ فيه فتاةً علىٰ الإطلاق. كان وضْعُنا الاجتماعي مختلفاً عندما التقينا لأوَّلِ مرَّة، حيثُ كنْتُ أقومُ حينها بالتَّدريسِ في كنيسةٍ مسيحيَّةٍ مخصَّصةٍ للرِّجالِ فقط. بينما كانت أنِس (Annis) في سنتِها الأُولىٰ كطالبةٍ في كُلِّيةِ سومرفيل (Somerville College) في أكسفورد، وهي الكُلِّية التي كانت تقومُ في ذلك الوقت بفصْلِ كلِّ طالب يُقدِم علىٰ الزَّواج.

لقد كانت والدةُ زوجتي قلقةً من قيامِ طالب دراساتٍ عُلْيا مثلي بمواعدةِ ابنَتِها التي تصغُرُني كثيراً. ولذلك سألَت ابنَها - الذي سيصبحُ فيما بعد أخو زوجتي - والذي أكَّدَ لها أنَّ إبعادي عن أنِس سوف يكسِر قَلْبَها. كنْتُ أفترضُ علىٰ الدَّوامِ أنَّ أخا زوجتي يريدُ لأُختِهِ الصَّغيرة أنْ تُتْرك وشأنها لتُدبِّرَ أُمورَ حياتِها؛ لأنَّه كان يعرف أنَّها فتاة عاقلة، وأنَّها محلُّ ثقة، ولن تتَّخِذ أيَّ قرارٍ طائش.

في ذلك الوقت، رغمَ أنِّي كنْتُ قد ابتعدْتُ منذُ فترة طويلة عن إيمانِ والدي، مع ذلك طبَّقْتُ ما كنْتُ تعلَّمتهُ من آبائي المنهجيِّين؛ فلم أحاول قطُّ أنْ أخدَعَ أنِس قبلَ الزَّواج، معتقداً أنَّ مثل هذا السُّلوك هو دائماً عملٌ غير أخلاقي. كذلك، كوني ابناً لأكاديميٍّ، لم أُحاول إقناعَ أنِس بالزَّواجِ منِّي قبلَ أنْ تتخرَّجَ وتحصُلَ علىٰ الدَّرجةِ العلمية.

بقيتُ في العملِ كمُدرِّسٍ غير مُتفرِّغ في الكنيسةِ المسيحية في عام (١٩٥٠م)، وفي نفسِ الوقت كنْتُ قد بدأتُ في العملِ كمُحاضِرٍ في فلْسفةِ الأخلاق بجامعةِ أبرْدين الاسكتلندية في أُكتوبر من العامِ نفسِهِ.

٣٦ .... هناك إله (كيف غيَّر أشهر مُلْحد رأيه؟)

❋ ❋ ❋

ما بعد أكسفورد

(BEYOND OXFORD)

خلال سنوات إقامتي في أبرْدين، شاركْتُ بعدَّةِ حواراتٍ إذاعية، كما شاركْتُ في ثلاثةِ أو أربعةِ نقاشاتٍ إذاعيةٍ كانت تُنظَّم من قِبَلِ البرنامج الثالث في إذاعةِ (BBC) المؤسَّس آنذاك حديثاً، وقد شاركْتُ كموضوعٍ في تجارُب نفسيَّة متعدِّدة. من الأُمورِ التي جذبَتْنا إلىٰ أبرْدين، هو أنَّنا أصبحنا أصدقاء لجميعِ الذين قابلناهُم تقريباً، وما جذبنا أيضاً لأبرْدين؛ تنوُّع وقوَّة الحركة التعليمية فيها؛ ولكون أبرْدين مدينة في اسكتلندا وليست في إنجلترا، والتي كانت جديدة بالنِّسبةِ لنا؛ لحقيقةِ أنَّها وفَّرت لنا إمكانات عديدة للتنزُّه، ومنها السَّير علىٰ الشَّواطئِ وفي منطقةِ كيرنجورم (Cairngroms). ولا أذكُرُ أنِّي تخلَّيتُ أبداً عن المشاركةِ بأيٍّ من رحلاتِ نادي كيرنجورم الشَّهرية المنتظمة لتلكَ التلال.

في صيفِ عام (١٩٥٤م)، غادرْتُ أبرْدين في طريقي إلىٰ أمريكا الشَّمالية، لأُصبحَ بروفيسور الفَلْسفة بكُلِّية جامعة ستافوردشير الشَّمالية (University College of North Staffordshire)، والتي حصلَت فيما بعد علىٰ رُخصةٍ لتُصبحَ جامعة كيل (University of Keele). وخلال السَّبْعَةَ عشرة عاماً التي قضيتُها هناك، ظلَّت كيل أقربَ إلىٰ أجواءِ المملكة المتَّحدة منها إلىٰ كُلِّياتِ الآداب في الولايات المتَّحدة. سرعانَ ما كرَّسْتُ

جهدي للعمَلِ هناك، ولم أُغادر جامعة كييل إلَّا بعدما بدأَتْ تفقِد بِبُطءٍ تميُّزَها.

قضيتُ العامَ الأكاديمي (١٩٧٠ - ١٩٧١م) كأُستاذٍ زائرٍ في الولاياتِ المتَّحدة، ولكنَّني استقلْتُ في نهايةِ عام (١٩٧١م) من ما سيُصبح فيما بعد جامعةِ كييل (أخذَ مكاني في كييل ريتشارد سوينبيرن). في يناير من عامِ (١٩٧٢م)، انتقلْتُ إلىٰ جامعةِ كالغاري (Calgary) في ألبِرْتا بكندا. كان هدفي الأوَّل أنْ أستقرَّ هناك. ولكن، في مايو (١٩٧٣م)، بعد ثلاثةِ فُصُولٍ فقط في كالغاري، انتقلْتُ إلىٰ جامعةِ ريدنغ (University of Reading)، حيثُ بقيتُ فيها حتَّىٰ نهاية عام (١٩٨٢م).

وقبلَ أنْ أتقدَّمَ بطلَبِ التقاعُدِ المُبكِّر وأحصل عليه من جامعةِ ريدنغ، وقَّعْتُ علىٰ عقدٍ للتَّدريسِ فَصْلاً واحداً كلَّ سنةٍ في جامعةِ يورك في مدينةِ تورنْتو الكندية، واستمرَّ ذلك لآخرِ ستَّة أعوام من حياتي الأكاديمية. في منتصفِ هذه المدَّة، استقلْتُ من جامعةِ يورك لكي يتسنَّىٰ لي قبول دعوة مركز الفَلْسفة الاجتماعية والسِّياسية في جامعةِ باولنغ غرين (Bowling Green) بولايةِ أُوهايو الأمريكية، وذلك للعمَلِ كباحثٍ متميِّز. وقد تمَّ تمديدُ الدَّعوة لثلاثِ سنواتٍ أُخرىٰ. بعد ذلك، تقاعدْتُ بشكلٍ كامل، وما زلتُ أُقيمُ في ريدنغ.

هذه الخطوطُ العريضة لمسيرتي العِلْمية لا تُظهِر لماذا أصبحْتُ فيلسوفاً. وإذا أخذنا بالاعتبار اهتمامي الفَلْسفي منذُ كنْتُ في مدرسةِ كنغزوود، كان يبدو أنِّي سأصبحُ فيلسوفاً محترفاً قبلَ وقتٍ طويلٍ من ذهابي إلىٰ أكسفورد. حتَّىٰ خلال الفَصْلين اللَّذين قضيتُهُما في أكسفورد قبلَ أنْ ألتحِقَ بسلاحِ الطَّيران الملكي، كنْتُ قد وصلْتُ إلىٰ أقرب مدىٰ

من الفَلْسفةِ خلال اجتماع النادي السُّقراطي. واهتمامي الرَّئيسي خارج إطار دراساتي كان سياسياً. هذا الأمرُ استمرَّ إلىٰ ما بعد يناير (١٩٤٦م)، حيثُ صارت الموضوعات التي أدرُسُها تشمَلُ الفَلْسفة.

وأوَّلُ مرَّةٍ شعرْتُ فيها أنَّ مجالَ عملي يمكن أنْ يكونَ في الفلْسفةِ، كان قبلَ أنْ أتقدَّمَ للاختبارِ النِّهائي في ديسمبر من عام (١٩٤٧م).

في الفَصْلينِ القادمينِ من هذا الكتاب، أُحاوِلُ أنْ أُفصِّلَ الأساس الذي استندْتُ عليه لسنواتٍ طويلةٍ في معارضةِ فكرة وجود إله. سأبدأُ أوَّلاً بالغوصِ في نِصْفِ قَرْنٍ من الحُجَجِ الإلحادية، التي كوَّنْتُها وطوَّرْتُها، ثمَّ بعد ذلك استخدمْتُها. في الفصْلِ الثالثِ، سوف أتتبَّعُ التحوُّلات العديدة التي حدثَتْ في مسيرتي الفَلْسفية، وبالتَّحديدِ تلك التي يمكن تبيُّنها من خلالِ المناظرات المتكرِّرة التي شاركْتُ فيها في موضوعِ الإلحاد.

عبر كلِّ ذلك، آمل أنْ يتَّضِح - كما ذكرْتُ في السَّابقِ - أنَّ اهتمامي الطَّويل بالدِّين لم يأتِ سوىٰ من بابِ الحيطةِ والأخلاق، أو ببساطة من بابِ الفضول. أقولُ: (من بابِ الحيطة)؛ لأنَّه إنْ كان هناك إلهٌ أو آلهةٌ لهم علاقة بأحوالِ البشر، فإنَّ من الطَّيشِ أنْ لا نُحاوِلَ أنْ نقِفَ في الجانبِ الذي يقِفُ فيه هؤلاء الآلهة[1].

---

(١) المقصود هنا ما نُعبِّر عنه في أدبياتِنا بـ (دفعِ الضَّرَر المحتمَل) (ضرورة عملية)؛ فالإنسان جُبِلَ علىٰ تفادي الضَّرَر المحتمل ولو كان احتمالُ الضَّرَرِ ضعيفاً. فبقدر أهمّية وخطورة المحتمل، يحرِصُ علىٰ تفادي وقوعه. وقد روي عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام في حواره مع عبد الكريم بن أبي العوجاء (الملحد): «إنْ يكن الأمرُ علىٰ ما يقولُ هؤلاء (المؤمنون بالله)، وهو علىٰ ما يقولون (أي الأمر كذلك، الإله موجود)، فقد سلِمُوا وعطبتُم. وإنْ يكن الأمرُ علىٰ ما تقولون (لا وجود للإله)، وليس كما تقولون (أي الأمر ليس كذلك، فالإله موجود)، فقد استويتُم وهُم». أُصول الكافي

وأقولُ: إنَّ اهتمامي (من بابِ الأخلاق)؛ لأنَّني شعرْتُ بالسَّعادةِ أنْ أجِدَ ما قالَهُ ماثيو أرنولد (Matthew Arnold)(١): (إنَّ الخالِدَ (الإله)، وليس نحنُ، من له صلاحية تحديد الخير)(٢) صحيحاً.

للكليني ١: ٧٥/ باب حدوث العالم وإثبات المحدِث/ ح ٢). (المراجع).

(١) ماثيو أرنولد (١٨٢٢ - ١٨٨٨م) شاعر وناقد وكاتب ومصلح تربوي إنجليزي، وقد كان تركيزه في أعماله ينصبُّ علىٰ وضع الإنسان الغربي المعاصر الذي يواجه الحياة من غير دين.

(٢) يبدو أنَّ أرنولد يقصد أنَّ الأخلاق ترتكز علىٰ مفهوم الخير، فالعقل وإنْ استطاع أنْ يستقلَّ بمعرفة خيرية القيم الأخلاقية (كالعدل والصدق)، إلَّا أنَّ مصاديق الخير لا يمكن للإنسان أنْ يُحدِّدها في كثيرٍ من الأحيان، بل الله وحده هو القادر علىٰ تشخيصها. فسواء كان معيار تقييم الفعل الخيِّر هو الدوافع (النيّات) أو العواقب (النتائج)، فالإنسان في الحالتين غير قادر علىٰ التشخيص الجازم.

فلا الإنسان بقادر علىٰ معرفة دوافعه ودوافع الآخرين بنحو مؤكَّد ودقيق، ولا هو بقادر علىٰ معرفة عواقب فعله وأفعال الآخرين بنحو مؤكَّد ودقيق.

أمَّا عدم قدرته علىٰ معرفة دوافع الآخرين بنحو مؤكَّد، فواضح، لأنَّه لا يُدرِك إلَّا سلوكهم الظاهري، وقد يخطئ في تفسيره في أحيانٍ كثيرة. وأمَّا عدم قدرته علىٰ معرفة دوافعه بنحو مؤكَّد، فلأنَّه يُدرِك دوافعه الظاهرية، ولا يُدرِك دوافعه الباطنية التي تنطلق من اللاشعور، والله هو وحده يعلم السِّرَّ وأخفىٰ.

أمَّا عدم قدرته علىٰ معرفة عواقب أفعال الآخرين، فلأنَّ هذا الأمر يتطلَّب رصد كلِّ الآثار الإيجابية والسلبية لكلِّ فعلٍ من أفعالهم، حتَّىٰ يتحقَّق التقييم، وهذا فوق طاقة الإنسان. وأمَّا عدم قدرته علىٰ معرفة عواقب فعلهِ، فأيضاً لعدم قدرته علىٰ رصد كلِّ الآثار الإيجابية والسلبية لكلِّ فعلٍ من أفعالهِ. فضلاً عن أنَّ عواقب الأفعال تستمرُّ لما بعد موتهم وموته.

فالخلاصة أنَّ من يُحدِّد الخير لا بدَّ أنْ يكون (خالداً) و(بكلِّ شيء عليم)، حتَّىٰ يحيط بكلِّ الأفعال، دوافعها وعواقبها، ويُحدِّد ما كان خيراً منها وما لم يكن كذلك. لذا يقول تعالىٰ: ﴿... وَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَىٰ أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ

وأقولُ: إنَّ اهتمامي كان (من بابِ الفضول)؛ لأنَّ أيَّ شخصٍ صاحب عقلية عِلْميَّة يجب أنْ يبحَثَ قدْرَ استطاعتِهِ لكي يتعرَّفَ علىٰ هذه الموضوعات[1].

ولعلّي بعد كلِّ هذه السَّنوات أكثرَ شخصٍ مندهشٍ من تحوُّلي من إنكارِ وجودِ إله إلىٰ اكتشافِهِ.

* * *

شَرٌّ لَكُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾ (البقرة: ٢١٦)... هكذا أفهم عبارة أرنولد. (المراجع).

(١) المقصود هنا الفضول الطبيعي عند الإنسان (ضرورة طبيعية)؛ وخاصَّة عندما يتعلَّق الأمر بوجود وحياتِهِ ومصيرِهِ. فمثلاً إذا فقد الإنسانُ وعيَه لفترة من الزمن، وفجأة فتح عينية في مكانٍ لم يألفه، فالأرجح أنَّ أوَّل سؤال يطرحه علىٰ نفسه وعلىٰ من حوله: لماذا أنا هنا؟ من جاء بي إلىٰ هنا؟ ما الأحداث التي وقعت وأدَّت لمجيئي إلىٰ هنا؟ وإذا جاء بعض الناس لأخذه لمكانٍ آخر، سوف يسألهم علىٰ الفور: إلىٰ أين أنتم ذاهبون بي؟ إلىٰ أين تسوقونني؟

ومهما حاول من حوله التنصّل والتهرّب من إجابته، فسوف يظلُّ هو يلحُّ عليهم ويتساءل بإصرارٍ حتَّىٰ يصل إلىٰ إجابات شافية. هذا الفضول المعرفي، وأسئلة كبرىٰ من هذا القبيل، هي التي دفعت الإنسان إلىٰ التفلسف والتديّن. (المراجع).

الفصل الثاني:

إلى حيثُ يقودُ الدَّليل؟

WHERE THE EVIDENCE LEADS

عندما سرَحَت أَلِس (Alice) بخيالِها وهي تنظُرُ في المرآةِ في روايةِ لويس كارول (Lewis Carroll) الشَّهيرة، التقت بالملِكةِ التي ادَّعت بأنَّ عمرها (١٠١) سنة وخمسة أشهر ويوماً واحداً.

(قالت أَلِس: لا أستطيعُ تصديقَ ذلك.

قالت الملكةُ بصوتٍ خافت: ألا تستطيعين؟ حاولي مرَّةً أُخرىٰ، خُذي نفساً عميقاً وأغمِضي عينيكِ.

ضحكت أَلِس وقالت: لا فائدةَ من ذلك، لأنَّ الشَّخصَ لا يمكن أنْ يُصدِّق بأشياء مستحيلة.

قالت الملِكةُ: أعتقدُ أنَّكِ لم تتدرَّبي علىٰ ذلك بالقَدْرِ الكافي. عندما كنْتُ في عُمرُكِ كنْتُ أقومُ بذلك نصفُ ساعةٍ يومياً. لماذا؟ كنْتُ في بعضِ الأحيان أعتقدُ بالكثيرِ من الأشياءِ المستحيلة بنحو يتجاوز المستحيلات السِّت قبلَ أنْ أتناولَ طعامَ الإفطار).

أحسَبُ أنَّ عليَّ أنْ أتعاطَفَ مع أَلِس، وخاصَّة عندما أتذكَّر كيف تغيَّرَ مسارَ حياتي ودراستي حتَّىٰ بعد أنْ درسْتُ الفلْسفةَ تحتَ إشراف جلبرت رايل. أنا واثقٌ أنَّ ما حصَلَ لم يكن مرجَّحاً، إنْ لم يكن مستحيلاً.

بالكاد كان يُمكِنُني تخيُّل، أنَّني عندما قمْتُ بتأليفِ كتابي (اللَّاهوت والتَّكذيب)، أنَّني سوفَ أنشُرُ خلالَ نصْف القَرْن القادم خمسةً وثلاثين كتاباً في موضوعاتٍ فَلْسفيةٍ شتَّىٰ. ورغمَ شُهْرتي في

الكتابـةِ في موضـوعِ وجـود الإلـه، فـإنَّ ذلـك لم يكـن علىٰ الإطـلاق مجـالَ اهتمامـي الوحيـد. علي مـرِّ السِّـنين، كتبْـتُ في موضـوعاتٍ تـتراوحُ مـا بـين فَلْسـفة اللُّغـة إلىٰ المنطـق؛ مـن الفلْسـفةِ الأخلاقيـةِ والاجتماعيـةِ والسِّياسـيةِ إلىٰ فَلْسـفةِ العلـوم؛ ومـن عِلْـمِ مـا وراء الـنَّفْس (parapsychology) والتَّربيـة إلىٰ النِّقاشِ حولَ الجبر والاختيار وموضوع الحياة بعد الموت.

لكن علىٰ الـرَّغمِ مـن أنَّني أصبحتُ مُلْحداً في الخامسةِ عشـرة مـن عمـري، وقيـامي بتطـويرِ اهتمامـاتي غـير الفَلْسـفية عنـدما كنْـتُ في مدرسـةِ كنغـزوود، فـإنَّ عمليـة إنضـاج وترسـيخ آرائـي الفَلْسـفية اسـتغرقت سنوات. في ذلكَ الوقـت توصَّـلْتُ إلىٰ مبـادئَ إرشـادية لم تُهـيمِن علىٰ حيـاتي وطريقـةِ كتـابتي واسـتدلالي فحَسْـب، بـل في الحقيقـةِ قـادتني في النِّهايـةِ إلىٰ التحوُّلِ الجذْري من الإلحادِ إلىٰ الإيمان.

* * *

الاكتشافات المبكِّرة ... والمواقف المحرجة

(EARLY EXPLORATIONS . . . AND EMBARRASSMENTS)

بعـضُ آرائـي الفَلْسـفية تشـكَّلت حتَّـىٰ قبْـلَ أنْ أدخُـلَ إلىٰ مدرسـةِ كنغـزوود. لقـد كنْـتُ معتنقـاً الشُّـيوعية في فـترةِ تسـجيلي في المدرسـة، وقـد بقيـتُ كاشـتراكيٍّ يسـاري نشـيطاً حتَّـىٰ بدايـةِ الخمسـينيات مـن القَـرْنِ الماضي، عنـدما استقلْتُ مـن حـزْبِ العُـمَّال (Labour Party)، وهـو الحِـزْبُ الذي يُمثِّلُ تاريخياً الحركةَ اليسارية في بريطانيا.

مـا منعنـي مـن الاشـتراكِ الـواقعي في الحِـزْبِ الشُّـيوعي - كـما كـان الحـالُ مـع بعـضِ زملائـي - هـو سـلوكُ الحِـزْب الشُّـيوعي البريطـاني بعـد المعاهـدةِ الألمانيـة - السُّـوفياتية عـام (١٩٣٩م)، (حيـثُ كنْـتُ مراهقـاً آنـذاك). هـذا الحِـزْبُ الـذَّليلُ والغـادر بـدأَ بإدانـةِ الحـرب ضـدَّ ألمانيـا الاشـتراكية القوميـة (النـازيِّين) باعتبارِهـا حرْبـاً (إمبرياليـة)، وكنتيجـةٍ لـذلك، لم يكـن يعتقـد بـأنَّ البريطـانيِّين معنيُّـون. اسـتمرَّت هـذه الإدانـات حتَّىٰ عام (١٩٤٠م)، في الوقـتِ الـذي كانـت الـبلادُ تتعـرَّض لخطـرِ الغـزو. لكـن مـا سُـمِّيَ بـالحرْبِ الإمبرياليـة أصبحَ فجـأةً (حرْبـاً تقدُّميَّـة، حـرْبَ الشَّـعب) (حسـب وجهـة النَّظَـر الشُّـيوعية)، وذلـك عنـدما غـزت ألمانيـا الاتِّحـاد السُّـوفييتي. وفي السَّـنوات التـي تلـت ذلـك، أصـبحْتُ أُشـكِّكُ بصـورةٍ متزايـدةٍ بالنَّظريـةِ والممارسـةِ الشُّـيوعية، التـي تقـومُ عـلىٰ فكـرةِ أنَّ

التاريخَ محكومٌ بقوانين شبيهة بقوانينِ العُلُوم الفيزيائية.

وفي هـذه الفـترة – وكـما هـو حـالُ أقـراني في مدرسـةِ كنغـزوود – تعرَّفـتُ عـلىٰ الكتابـاتِ التَّفسـيرية للكاتـبِ سي. إي. إم. جـوود (Joad)[1]. في ذلـك الوقـت، كـان جـوود معروفـاً في الوسـطِ البريطـاني العـامّ بنقاشـاتِهِ المبْثوثـة في الموضـوعاتِ الفَلْسـفية ونمـطِ كتاباتِـهِ المميَّـز (قـامَ بتـأليفِ أكثـر مـن ٧٥ كتابـاً). مـن خـلالِ قـراءة أكثـر كُتُـب جـوود مبيعـاً، اكتشـفْتُ أنَّ بعضَـها مـع الأسـف فاقـدٌ للمصـداقيةِ فـيما يتعلَّـق ببحـثِ مـا وراء عِلْـم النَّفْس، وهو ما يُعرَف في الوقتِ الحالي بالباراسيكولوجي.

أنا أفـترضُ أنَّ كثيراً منَّـا عنـدما يتقـدَّمُ في العمـرِ ينظُـرُ إلىٰ الـوراء، إلىٰ فـترةِ الشَّـباب، بمـزيجٍ مـن الحنـينِ والإحـراج. أنـا متأكِّـدٌ أنَّ هـذه الانفعـالات شـائعةٌ جـدّاً. ومـع ذلـك، لـيس جميعُنـا لـديهم سـوء الحـظِّ في توثيقِ ونَشْرِ بعض هذه الأُمور المُحْرِجة كما هو الحال معي.

إنَّ اهتمامـي بـما وراء عِلْـم الـنَّفْس (الباراسـيكولوجي) قـادَني في عـامِ (١٩٥٣م) إلىٰ نَشْـرِ أوَّل كتـابٍ لي كُتِـبَ بطريقـةٍ سـيِّئةٍ لا تُطـاق. في عـام (١٩٥١م)، قمْـتُ بكتابـةِ وتوزيـعِ اثنـين مـن الحـواراتِ التـي تُهـاجِمُ سـوءَ الفهم المنتشَـر عـن ظـاهرةِ الخـوارق المزعومـة لـما وراء عِلْـم الـنَّفْس. نَشْـرُ هـذه الحـوارات دفَـعَ أحـد النَّـاشرين ليطلُـبَ منِّـي تـأليفَ كتـابٍ في هـذا الموضـوع، والـذي – بـدافعٍ مـن الغطْرسـةِ الشَّـبابية – أسـميْتُهُ (الـنَّهج الجديد في البحوثِ النَّفْسية A New Approach to Psychical Research).

تنـاولَ الكتـابُ الحقـائقَ المفترضـة والمسـائلَ الفَلْسـفية المتعلِّقـة

---

(١) فيلسـوف إنجليـزي (١٨٩١ – ١٩٥٣م)، عمـل عـلىٰ نشـر الفلسـفة في المجتمـع البريطـاني في فترة الحرب العالمية الثانية.

بالباراسيكولوجي. وممَّا يشفَعُ لي في ارتكابِ بعضِ الأخطاء في أُسلوبِ الكتابة في هذا الكتابِ، أنَّ النَّاشِرَ أرادَ أنْ يكونَ أُسلوبُ الكتابةِ علىٰ شكلِ مقالاتٍ مُيسَّرة. ومع ذلك، كانت هناك أخطاءٌ جوهرية. فعلىٰ المستوىٰ التَّجريبي، اعتقدْتُ بصحَّةِ عمل إس. جي، سول (Soal)، الباحث والرِّياضي في جامعةِ لندن. وعلىٰ المستوىٰ الفَلْسفي، لم أكن قد استوعبْتُ حينَها بشكلٍ كاملٍ أهميَّةَ الباراسيكولوجي في الحُجَّةِ التي قدَّمها الفيلسوفُ الأسكتلندي ديفيد هيوم في القِسْم (X) من كتابِهِ الأوَّل (التحقيق Inquiry)[1]. لاحقاً بعد عقود، قُمْتُ بتجميعِ كتابٍ من مجموعةِ قراءات، أعتبرُ أنَّها أفضل ما كُتِبَ قبلَ ذلك الوقت في هذا الموضوع، وأسميْتُ الكتابَ (قراءات في المشكلاتِ الفَلْسفية للباراسيكولوجي)[2]. وفي مقدِّمةِ الكتاب، لخَّصْتُ ما تعلَّمتُ خلالَ سنوات من حُلُولٍ لتلك المسائل.

* * *

---

(١) أصدر الفيلسوف الأسكتلندي ديفيد هيوم (١٧١١ - ١٧٧٦م) سنة (١٧٥٨م) كتابه (تحقيق في الفهم الإنساني/ ترجمه د. موسىٰ وهبة، دار الفارابي/ ٢٠٠٨م، بيروت)، بعنوان: (مبحث في الفاهمة البشرية)، وفي سنة (١٧٥١م) أصدر كتابه (تحقيق في مبادئ الأخلاق). ويقصد (فلو) هنا كتاب هيوم الأوَّل المتعلّق بتحليل العقل البشري. والقسم (X) هو بعنوان (في المعجزات)، راجع ترجمة الكتاب (ص ١٥١). (المراجع).

(٢) (Parapsychology).

استكشافُ اهتماماتٍ جديدة
(EXPLORING NEW INTERESTS)

بـرَزَ لـديَّ اهتمامـانِ فَلْسـفيَّان عـبْرَ القـراءات العِلْميـة في مرحلـةِ شبابي:

الاهـتمامُ الأوَّلُ يتمثَّـلُ في افـتراضٍ أنَّ علْـمَ الأحيـاء التطـوُّري (evolution biology) قـادرٌ علىٰ ضمانِ إحرازِ تقـدُّم. وهـذا الافـتراضُ ظهَـرَ بقـوَّةٍ في شـذراتٍ مبكِّـرة لــ (جوليـان هكسـلي Julian Huxley)[1] في كتـابِ (مقالات عالمٍ أحيـاء Essays of a Biologist). وهـو المقـترح الـذي عَمَـلَ علىٰ تطـويرِهِ بـإصرارٍ بقيَّـةَ حياتِـهِ. في كتـابِ (الوقـت، النَّهـر المُتجـدِّد Time, the Refreshing River)، وكتـابِ (التَّـاريخ إلىٰ جانِبِنـا History Is on Our Side)، قـامَ جوزيـف نيـدْهام (Joseph Needham)[2] بـدَمْجِ هـذا الافـتراض مـع فلسفةِ التاريخ الماركسيَّة، وهـو المـذهب الـذي يقـومُ علىٰ أنَّ قـوانينَ الطَّبيعـة ناتجةٌ عن تطـوُّراتٍ تاريخيـة. فالماركسـيُّون يعتقـدونَ أنَّ هنـاك قـوانين عالميَّـة، مثل حتميَّة الحروب الطبقيَّـة، تحكُـمُ تقـدُّم المجتمعـات. وكجُـزْءٍ مـن عمليَّـةِ دحـض هـذا الفكـر، قُمْـتُ - عنـدما دُعيـتُ في منتصـفِ (١٩٦٠م)

---

(١) عالم أحياء وفيلسوف أسكتلندي (١٨٨٧ - ١٩٩٥م).

(٢) عـالِم إنجليـزي ومُـؤرِّخ (١٩٠٠ - ١٩٩٤م)، مختـصٌّ في (عِلْـم الصِّـينيات)، عُـرِفَ بأبحاثه ووكتاباته حول تاريخ (العِلْم في الصِّين).

للمُشـاركةِ في سلسـلةِ (أفكـار جديـدة في الأخـلاق) - بتـأليفِ كتـاب (الأخـلاق التطوُّريـة Evolutionary Ethics). (وكـان ذلـك سـبباً في تـأليفِ كتـاب (التطـوُّر الـدَّاروِني) عنـدما طُلِـبَ منِّـي المشـاركة في توثيـقِ سلسـلة الحركـات والأفكـار في بدايـةِ الثَّمانينـات مـن القَـرْنِ المـاضي. وفي هـذا الكتـاب الأخـير، أردْتُ أنْ أُبـيِّنَ أنَّ هيبـةَ الدَّاروِنيـة اسـتدْعَت الحفـاظَ علـىٰ أفكـارٍ واعتقـاداتٍ تفتقـرُ لأسـاسٍ متـينٍ، مثـل الفكـرة القائلـة بـأنَّ نظريـة داروِن هي ضمانٌ للتطوُّرِ البشري).

اهتمامـي الفَلْسـفي الثـاني نَـتَجَ عـن قـراءتي للأدبيَّـاتِ العِلْميـة المَشْـهورة، وهـو محاولـة رَسْـم اسـتنتاجات بارْكِلِيَّـة (نسـبةً إلىٰ الفيلسـوفِ الإنجليـزي بـارْكْلِي)[1] في ضـوءِ تطـوُّر الفيزيـاء في القَـرْنِ العِشْـرين. البارْكِلِيَّـة الجديـدة تنتمـي إلىٰ مدرسـةٍ فلْسـفيَّةٍ تُسـمَّىٰ المثاليَّـة (Idealism). والمثاليُّون يعتقـدونَ بـأنَّ الواقعيَّـةَ الفيزيائيـة هـي حقيقـةٌ عقليـةُ صِرْفـة، وأنَّ ما هو موجـودٌ إنَّـما هـو العقـول ومحتوياتهـا. المصـدْرُ الرَّئيسـي لأفكـارِ هـذه المدرسـة هـي أعـمالُ السِّـير جـيمس جينـز (Sir James Jeans)[2] والسِّـير آرثـر أدنغتـون (Sir Arthur Eddington)[3]. لقـد كـان كتـابُ (الفَلْسـفة والفيزيـائيُّون Philosophy and the Physicists) لمؤلِّفَتـهِ سـوزان سـتِبنْغ (Susan Stebbing)[4] هـو مـا سـاعدَني في شـقِّ طريـق للخـروجِ مـن هـذه

(١) (١٦٨٥ - ١٧٥٣م). ادَّعىٰ باركلي أنَّه لا يوجد شيءٌ اسمُهُ (مادَّة) علىٰ الإطلاق، وما يـراه البشـر ويعتبرونـه عـالمهم المـادّي لا يعـدو أنْ يكـون مجـرَّد فكـرة في العقـل بفعـل (الإدراك) وبغياب الإدراك تغيبُ المادَّة.

(٢) عالم فلك وفيزياء ورياضيات إنجليزي (١٨٧٧ - ١٩٤٦م).

(٣) عالم فلك وفيزياء ورياضيات إنجليزي (١٨٨٢ - ١٩٤٤م).

(٤) فيلسوفة إنجليزية (١٨٨٥ - ١٩٤٣م)، تُعتَبر من أعلام الفلسفة التحليلية.

الغابة (المثاليَّة).

بعــد ذلــك بســنوات، في كتــابي (مَــدْخل إلىٰ الفَلْســفةِ الغربيــة)، حاولْتُ أنْ أُبيِّن أنَّ المثاليَّـةَ قاتلـةٌ للعِلْـم. وقـد استشـهدْتُ في الكتـابِ بفقـرةٍ مــن كتــابِ (العقــل، الإدْراك الحسِّــي والعِلْــم Mind, Perception and Science) لمؤلِّفِـهِ المُميَّـز عـالِمِ الأعصـاب البريطـاني اللُّـورد رَسِـل برايـان (Russell Brain)[1]، والـذي أوضـحَ أنَّ أطِبَّـاءَ الأعصـاب عـادةً مـا يكونـونَ مثاليِّين يعتقدونَ بأنَّ فعلَ الإحسـاس بموضـوعٍ مـا هـو ببسـاطة حـدَثٌ يقـعُ في دِماغِ المُستقبِل.

كـما استشـهدْتُ بادِّعـاءِ بِرْترانـد رَسِـل[2] بـأنَّ (الإحســاسَ لا يُقــدِّمُ خـبرةً مبـاشرةً بالموضـوعِ الفيزيـائي). قُلْـتُ: لـو كـان ذلـكَ صـحيحاً، فإنَّـه لـيس هنـاك شيءٌ اسـمُهُ إحسـاس. ولا يخفـىٰ أنَّ نتيجـةَ هـذا التَّفكـير المثـالي هـي التقليـل مـن قيمـةِ الاكتشـافات العِلْميـة، إذ يعتمـدُ العُلَـماء - ويجـبُ عليهم ذلـك - علىٰ الملاحظـةِ المباشرة في تبريـرِ اكتشـافاتِهم، فإسـقاطُ تلـك الملاحظـات المبـاشرة عــن الاعتبــار يعنــي انتفــاء قيمــة مشــاهداتِهم. باختصار، إنَّ هـذا الـرَّأي يُزيـلُ أُسُـس جميـع الاسـتدلالات العِلْميـة. وكـرَدٍّ علىٰ هـذا الـرَّأي، قُلْـتُ: إنَّـه لا بـدَّ في الإحسـاسِ الـواعي مـن تجرُبـةٍ حسِّـيَّةٍ (مثـال: صـوت وصـورة المِطْرقـة أثنـاء عمليـة إدْخـال المِسْـمار)، وإذا كـان

---

(١) عالم أعصاب بريطاني (١٨٩٥ - ١٩٦٦م).

(٢) فيلسـوف وريـاضي إنجليـزي شـهير (١٨٧٢ - ١٩٧٠م)، كـان لـه أثـر كبـير علىٰ الفلسـفة الغربية المعـاصرة، يُعتَـبر مـن أبـرز أعـلام الفلسـفة التحليلية ومؤسِّسـيها، لـه كتـب كثـيرة في مجــال فلســفة الرياضــيات وفلســفة المنطــق وفلســفة اللغــة، ونظريــة المعرفــة، وتــاريخ الفلسفة، وغيرها من الكتب. (المراجع).

هناك ثمَّة مُعطىٰ حسِّي صحيح، فإنَّ ذلك الشَّيء (المِطْرقة والمِسْمار) يجب أنْ يكون جُزْءاً من اكتسابي لتلكَ الخِبْرة.

* * *

رؤية جديدة في الفَلْسفة

(NEW INSIGHTS IN PHILOSOPHY)

في الفـترةِ التـي قضـيتُها في أكسـفورد (١٩٤٦ - ١٩٥٠م)، ظَهَـرَ اتِّجاهٌ جديدٌ في الفَلْسـفةِ يُسـمَّىٰ بعـضَ الأحيـان: (ثـورة في الفَلْسـفة)، وكـان في أوجِ ازْدِهـارِهِ. عنـدما كنْـتُ في أكسـفورد (قضـيْتُ سـنتينِ في درجـةِ البكالوريوس، وسنتينِ أُخـريين في درجـةِ الدِّراسـاتِ العُلْيـا، وثمانيـةَ عَشَـرَ شـهراً كمُـدرِّسٍ في الكنيسـةِ المسيحية)، خـلالَ هـذه الفـترة، تعمَّقـتُ كثـيراً في هـذه (الفَلْسـفةِ الجديـدة)، والتـي وَصَـفَها عـددٌ مـن خُصُـومِها بأنَّهـا (لُغَوية) أو (لُغة عاديَّة).

كـان أبـرز الرُّمـوز الفَلْسـفية في أكسـفورد في ذلـك الوقـت جلـبرت رايـل وجـون أوسـتن[1]. وكـما أشرتُ مـن قبـل، رايـل كـان المُشْـرف علىٰ دراستي في الـدُّكتوراه، أمَّـا أوسـتن فسـنحَت لي الفُرْصَـةُ للتعـرُّفِ عليـه بعـد تعييني في الكنيسةِ المسيحيةِ، حيـثُ أصبحتُ مـن أُولئـكَ الـذين يحضُـرُونَ بشكلٍ منـتظمٍ لمـا يُعـرَفُ بنقاشـاتِ (صـباح السَّـبت)، التـي كانـت تُعقَـدُ في مكتبِ أوستنٍ في أكسفورد، صباحَ كلِّ سَبْت، لمناقشةِ تطوُّر العِلْم.

---

(١) فيلسـوف بريطـاني (١٩١١ - ١٩٦٠م)، تخصَّـصَ في فلسـفة اللغـة، وعُـرِفَ بنظريتـه في أفعـال الكـلام، مُركِّـزاً عـلىٰ الأهمّيـة الفلسـفية للعبـارات الإنشـائية أو الأدائيـة (في مقابـل العبـارات الإخبارية و التقريريـة)، مـن أشـهر كتبـه (كيـف نصـنع الأشـياء بـالكلمات؟) (١٩٥٥م). (المراجع).

هـذه الفَلْسـفةُ الأكسـفوردية في الأربعينـاتِ والخمسـيناتِ مـن القَـرْنِ الماضي، قـدَّمَتْ مجموعـةَ رُؤىً ذات قيمـة كبـيرة، مـا زِلْـتُ أعتقـدُ بصـحَّتِها. من بين هذه الرُّؤىٰ، ربَّما أهمُّهـا هـي الرُّؤيـةُ القائلـةُ بـأنَّ علينـا أنْ نكـونَ عـلىٰ وعيٍ دائم بأنَّ كـلَّ فلْسـفةٍ (بقَـدْرِ مـا هـي بحـثٌ تصـوُّريٌّ) يجـبُ أنْ تكـونَ مهتمَّـــةً بالاســـتعمالِ اللُّغـــوي الصَّـــحيح. فـــنحنُ لا يمكنُنـــا الوصـــول إلىٰ التصوُّراتِ إلَّا من خلالِ دراسـة الاسـتعمال اللُّغـوي، ومـن ثَـمَّ، مـن خـلال اسـتعمال هـذه الكلـمات يـتمُّ توضـيح التصـوُّرات[1]. هـذه الرُّؤيـةُ ذكَّـرتنـي بعُلَـماءِ الكتـاب المقـدَّس الـذين ذكـرْتهُم مـن قبْـلُ. ومثـالُ ذلـك أبي، الـذي كان يُدرِّسُ بعض تصوُّرات العهـدَ القـديم الغريبـة، عـن طريـقِ تجميـعِ أكـبرَ قدرٍ ممكـنٍ مـن السِّـياقات التـي يمكـن أنْ يعثُـرَ عليهـا، لـيفحَصَ بعـد ذلـك كيف استُعْمِلَت تلك الكلمةُ العِبْرية في تلك السِّياقات المختلفة.

باعتبارِهـا مـؤثِّرةً وبقـوَّةٍ في تطـوُّر تـوجُّهي الفَلْسـفي في تلـك الأيَّـام، هـذه (الفَلْسـفة الجديـدة) لم تكـن جديـدةً ولا ضـيِّقةً جـدَّاً بالضَّـــرورة، كـما يبدو في بعـضِ الأحيـان. (الثـورة) اسـتبطنت تركيـزاً عـلىٰ النَّحـو التصـوُّري (conceptual grammar)، أي اســتعمال التصــوُّرات والتَّعبــير عنهــا بلُغــةٍ عاديَّــة، وهــي الدِّراســةُ التــي يُفـتَرض أنْ تُسـاعِدَ عـلىٰ تـلاشي العديـد مـن المشـاكلِ في الفَلْسـفة. وإحـدىٰ هـذه المشـاكل تتعلَّـقُ بـما إذا كـان بمقـدورِنا

---

(١) بعبـارة أُخـرىٰ: معنـىٰ الألفـاظ لا يتوقَّـف عـلىٰ تعريفهـا، بـل يـتجلَّىٰ معناهـا مـن خـلال الطريقـة التـي تُسـتَعمل بهـا تلـك الألفـاظ، مـع إشـارة خاصَّـة إلىٰ التمييـزات المتعـدِّدة التـي يـتمُّ الكشـف عنهـا والفـروق الدقيقـة التـي تظهـر في الظـروف المتباينـة لاسـتعمال الألفـاظ. هـذه الفكـرة مركزيـة في مدرسـة أكسـفورد في التحليـل اللغـوي، حتَّـىٰ قـال أحـدهم: (إنَّ الفكـرة القائلـة: إنَّ المعنـىٰ يـتجلَّىٰ مـن خـلال الاسـتعمال، لهـي واحـدة مـن أعظـم مـآثر الفلسفة المعاصرة). (المراجع).

الوصول إلىٰ معرفةٍ عن طريقِ التعرُّف علىٰ العالَمِ (الخارجي). تمَّ صياغةُ هذه المشكلة لأوَّلِ مرَّةٍ في القَرْنِ السَّابع عشر من قِبَلِ ديكارت، وتمَّ قبولُها لاحقاً دون تساؤل من قِبَلِ أكثر العظماء الذين جاؤوا بعدَهُ، أمثال لوك وباركلي وهيوم وكانت[1].

لكن هذه (الفَلْسفة الجديدة) رفَضَت هذه المشكلة من الشَّكِّ الدِّيكارتي من خلالِ رفض نقطة بدايتِها التي تقول: هو موضوعٌ غيرُ مادّيٍّ ذلك الشَّخصُ الذي لديهِ خبرةٌ خاصَّةٌ فقط[2].

هذا الاعتقادُ كان غيرُ مُنْسجمٍ مع الافتراضِ المتضمَّن في خطاباتِنا المتكرِّرة، الذي يقول بأنَّا نحصلُ علىٰ معرفةٍ من خلالِ التعرُّف

---

(١) يتحدَّث (فلو) هنا عن مشكلة الإدراك الحسّي في نظرية المعرفة. حيث توجد نظريات متعدِّدة تجاهها، من أهمِّها:

١ - الواقعية السَّاذجة (توماس ريد).

٢ - الواقعية التمثيلية (جون لوك).

٣ - نظرية المعطيات الحسّية (باركلي، وهيوم، وكانت).

٤ - نظرية اللغة العادية (فتجنشتين).

وكأنَّ (فلو) يريد أن يقول: إنَّ نظرية اللغة العادية (التي ناصرها بتأثير مدرسة أكفسورد)، تقف موقفاً ناقداً من نظرية المعطيات الحسّية، وتقف موقفاً وسطاً بين الواقعية السَّاذجة والواقعية التمثيلية، وخلاصة هذا الموقف أنَّنا نُدرِكُ الأشياءَ إدراكاً مباشراً، ويصبحُ الإدراكُ صحيحاً إذا توفَّرت الشُّروط الفيزيائية والنفسية والفسيولوجية السويَّة. (المراجع).

(٢) بعبارةٍ أُخرىٰ: كأنَّ نقطة البداية عند ديكارت - ومن سار علىٰ دربِهِ - تفترض إمكانية تحقُّق عِلْم حضوري عند الإنسان (بحيث يُدرِك ذاته بذاتِهِ ويمُرُّ بخبراتٍ حضورية) دون أنْ يكون له جسم مادّي. (المراجع).

علىٰ العالَمِ الفيزيائي وعلىٰ بقيَّةِ البشـر[١].

---

(١) ديكارت، ومن جاء بعده، كانوا يرون أنَّنا نعي بحالاتنا النفسية وأحداثنا العقلية بنحو محدَّد ومتميِّز إحداها عن الأُخرىٰ، ونضع لكلٍّ منها لفظاً، مثل: (ألم)، (إدراك)، (تذكر)، مثل ما أنَّنا حين نرىٰ أشياء مادّية، نُعطي لكلٍّ منها لفظاً يدلُّ عليها، مثل: (باب)، (شجرة)... الخ. كما نُقرِّر أنَّنا نعي بحالاتنا الباطنية متميِّزة بطريقة الاستبطان، سواء صاحبها سلوك بدني ظاهر أم لم يصاحبها، وأنَّ تلك الحالات الباطنية تتَّسم بالخصوصية المطلقة، أي إنَّه لا يعي تلك الحالات إلَّا صاحبها، ولا يشاركه فيها سواه (أي يعيها بعلمٍ حضوري).

لكن هذه الفلسفة الجديدة - التي كان لفتجنشتين بصمة قويَّة فيها - هاجمت هذه الرؤية، وأكَّدت علىٰ أنَّنا لا نعي حالاتنا النفسية وحوادثنا العقلية متميِّزة إحداهما عن الأُخرىٰ، وأنَّنا لا نعيها باستبطان. ومن المشكوك به أن نكون قادرين علىٰ عزل حالة باطنية عن سائر الحالات الأُخرىٰ المتداخلة معها دائماً. كما تنكر هذه الفلسفة أنَّنا نصل حتَّىٰ إلىٰ الوعي بتلك الحالات، وإنَّما نُدرِك أنَّ لدينا تلك الحالات والعمليات حين تبدو في أقوال أو أفعال سلوكية تقبل الملاحظة العامَّة الخارجية. وفي ذلك يقول فتجنشتين عبارته المشهورة: (العملية الداخلية في حاجة إلىٰ معايير خارجية).

ولذلك تنتهي هذه الفلسفة إلىٰ رفض نقطة ديكارتية أُخرىٰ، وهي أنَّ وجود الجسم الإنساني أمر ثانوي عارض للحياة الشعورية، وأنَّ من الممكن تصوّر نفس بلا جسم. لذا ترىٰ هذه الفلسفة أنَّه ما دمنا لا نعي بحياتنا الشعورية إلَّا في صورة السلوك، فإنَّ الجسم شرط ضروري لوجود تلك الحياة، وليس مجرَّد عرض حادث. وإذا طبَّقنا هذا الموقف علىٰ الإدراك الحسّي كحالة باطنية، فلن يكون شيئاً سوىٰ الرؤية الفعلية لشيء أمامي أو السمع الفعلي للصوت أو اللمس الفعلي للشيء ونحو ذلك، دون الحديث اليائس عن معطيات حسّية وبحث عابث في طبيعتها، فهذه أشياء لا نعيها. والخلاصة أنَّنا نُدرك الأشياء مباشرة دون وسائط افتراضية (مثل المعطيات أو الصور الذهنية). لذا تحدَّث فتجنشتين عن (استحالة اللغة الخاصَّة).

ثمّ جاء جلبرت رايل، فكان يُسمّي ثنائية ديكارت (بين العقل والجسم): (الأُسطورة الديكارتية Cartesian myth). وكان يُسمّيها أيضاً: (عقيدة الشبح في الآلة the dogma of the ghost in the machine)، ويقصد بها أنَّ الجسم الإنساني عند ديكارت آلة، تخضع

لكـن كـما قُلْـتُ، لم يكـن هـذا جديـداً بشـكلٍ كامـل؛ إذ لـو كـان أفلاطـون[1] الـذي كتَـبَ (محـاورة ثيـاتيتوس)، وأُرسـطو[2] الـذي كَتَـبَ

لقـوانين الميكانيكـا والكيميـاء والأحيـاء وعلـم وظـائف الأعضـاء، وأنَّ بـداخل هـذا الجسـم عنصـراً غريبـاً يُسـمّيه ديكـارت: (الـنفس) أو (العقـل). لم ينكـر رايـل أنَّ للإنسـان نفسـاً وعقلاً، لكنَّـه رأىٰ أنَّ صـياغة ديكـارت لمشـكلة الـنفس والجسـم تجعلهـا مسـتحيلة الحـلِّ، في اعتبـاره الـنفس شـيئاً مثـل مـا أنَّ الجسـم شيء. للجسـم حـالات وعمليـات وحـوادث تخضع لقـوانين تجريبيـة، هـذا حـقٌّ، لكـن ديكـارت نظـر إلىٰ الـنفس أيضـاً عـلىٰ أنَّهـا شيء لـه كيانـه المسـتقلّ، وأنَّ حالاتهـا وعملياتهـا وحوادثهـا مـن طبيعـة أُخـرىٰ. يُعقِّـب رايـل عـلىٰ ذلـك بقولـه: إنَّ تصـوّر الـنفس أو العقـل سـلوكي أو اسـتعداد سـلوكي (dispositional concept)، بيـنما تصـوّر الجسـم شيء (substantial concept). الحـديث عـن عقـل إنسـان مـا، لـيس حـديثاً عـن شيء، تسـكن فيـه حـالات وعمليـات غـير فيزيائيـة، كالإحساسـات والـذكريات والخيـالات والانفعـالات والعواطـف والرغبـات والإرادات ونحـو ذلـك، إنَّه حـديث عـن قـدرات هـذا الإنسـان وميولـه واسـتعداداته. وعـلىٰ هـذا الأسـاس، الإدراك عنـد رايـل لحظـي، لا جهـد فيـه، وفعـل مباشر، لا يحتـاج لعمليـات تسـبقه كشـروط لـه. فحـين يحـدث الإدراك لا معنـىٰ للسـؤال: كيـف حـدث؟ ومـا أسـباب حدوثـه؟ وهـل تدخَّلت عوامـل الإحسـاس والتـذكّر والتخيّـل؟ فأنـت لا تأخـذ دروسـاً في كيفيـة الرؤيـة أو السـمع أو الشـمّ، ولا تقـوم بتـدريب سـابق واكتسـاب مهـارات. لـذا نحـنُ - في نظـرِهِ - نُدرِكُ الأشياءَ في العالم الطبيعي إدراكاً حسّياً مباشراً. (المراجع).

(١) فيلسـوف يونـاني شـهير (٣٤٨ ق.م)، ريـاضي، كتـب عـدداً مـن الحـوارات الفلسـفية، ويُعتَـبر مؤسِّسـاً لأكاديميـة أثينـا، وهـي أوَّل معهـد للتعلـيم العـالي في العـالم الغـربي، معلِّمـه سـقراط وتلميـذه أُرسـطو. وضـع أفلاطـون الأُسـس الأُولىٰ للفلسـفة الغربيـة والعلـوم. نبـوغ أفلاطـون تجسَّـد في أُسـلوبه ككاتـب واضـح في محاوراتـه السـقراطية (نحـو ثلاثـين محـاورة)، التـي تتنـاول موضـوعات فلسـفية مختلفـة: المعرفـة، المنطـق، اللغـة، الرياضـيات، الميتافيزيقا، الأخلاق، والسياسة. (المراجع).

(٢) فيلسـوف يونـاني شـهير (٣٢٢ ق.م)، تلميـذ أفلاطـون، ومعلـم الإسـكندر الأكـبر، وواحـد مـن عظـماء المفكّـرين، غطَّـت كتاباتـه مجـالات عـدَّة، منهـا: الفيزيـاء، الميتافيزيقـا، الشـعر، المسـرح، الموسـيقىٰ، المنطـق، البلاغـة، اللغويـات، السياسـة، الأخـلاق، وعلـم

(الأخلاق إلىٰ نيقوماخوس)، في ندوةٍ يُديرُها رايل وأوستن، لشعرا أنَّهما في قمَّةِ الرَّاحة وكأنَّهُما في بيتِهِما[1].

* * *

الأحياء. وهو أحد مؤسِّسي الفلسفة الغربية.

(١) لأنَّ نظرية المعرفة ومشاكلها، والاتِّجاهات المختلفة حولها، كانت معروفة عند فلاسفة اليونان، أمثال أفلاطون وأُرسطو. (المراجع).

تطوُّرات في الفَلْسفة

(PROGRESS IN PHILOSOPHY)

قبلَ مغادرتي أكسفورد، سَلَّمْتُ للناشرِ مادَّةً مُجمَّعةً للسِّلْسلةِ الأُولىٰ من كتابِ (المنطق واللُّغة). وبعد ذلك بفترةٍ قصيرةٍ تبعتها السِّلسلةُ الثانية. وقد تمَّ تحريرُ كِلا المجلَّدين، وقد كتبْتُ مقدِّمةً قصيرةً لكليهما؛ الأُولىٰ في عام (١٩٥١م)، والثانية عام (١٩٥٣م). بعد وقتٍ قصيرٍ من تعييني كمُحاضرٍ في جامعةِ أبرْدين، وجدْتُ نفسي أتصرَّفُ كمتحدِّثٍ رسميٍّ غير معيَّن في أسكتلندا لـ (فَلْسفةِ أكسفورد اللُّغوية). وعندما قامَ نادي الكشَّافة الأسكتلندي الفَلْسفي - وهو تجمُّعٌ لجميعِ من يقومُ بتدريسِ الفَلْسفة في أسكتلندا - بإصدارِ مجلَّة جديدة بعنوان (الفَصْليَّة الفَلْسفية The Philosophical Quarterly)، احتوىٰ عدَدُها الأوَّل علىٰ هجومٍ لاذعٍ علىٰ مدرسةِ أكسفورد. وقد طلَبَ منِّي مُحرِّرُ المجلَّة الرَّدَّ علىٰ هذا الهجوم. وكان ردِّي هو مقالُ: (الفَلْسفة واللُّغة)، وهو ما أصبحَ - بعد التَّعديل - الفَصْلَ التَّمهيدي لكتابٍ يتكوَّنُ من مقالاتٍ مُجمَّعةٍ تحتَ عنوان: (مقالاتٌ في التَّحليلِ التصوُّري Essays in Conceptual Analysis). تعرَّضَتْ الحركةُ لنقدٍ من الجانبِ الإنجليزي عبْرَ مايكل دومِتْ (Michael Dummett)[1]، الذي وصَفَ الحركةَ بأنَّها (نتاجُ لُغةٍ

(١) فيلسوف إنجليزي (١٩٢٥ - ٢٠١١م)، متخصِّص في الفلسفة التحليلية وفلسفة

عاديَّةٍ)، وادَّعىٰ بأنَّ (عضويَّةَ هذه المدرسة الفكرية تعتمدُ علىٰ التَّرشيحِ من قِبَلِ البروفيسور فلو)[١].

بالتأكيد كانت أعمالُ بعض المُمارسين للفَلْسفةِ الجديدة - وإنْ كان عدَدُهُم قليلاً جدّاً - تافهةً، ومكرَّرةً، ولا طائلَ منها. وقد كان لي ردُّ فعلٍ علىٰ هذا التّكرار وعدم الجدوىٰ، من خلالِ ورقةٍ بحثيَّةٍ كتبْتُها وقدَّمتُها في إحدىٰ الأنديةِ الثَّقافية، وكانت بعنوان (الأُمورُ التي تهُمُّ Matter That Matters). جادلْتُ فيها بأنَّه كان من الممكنِ ومن المُحبَّذِ التَّركيزُ علىٰ المشاكلِ التي يمكن أنْ يجِدَها المُهتمُّونَ بالفَلْسفة - حتَّىٰ الأشخاص العاديِّين غير الناضجين فلسفيّاً - مهمَّةً وممتعةً، بدلاً من إضاعةِ الوقتِ والجهدِ في أُمورٍ وهميَّة.

بدأتُ أقتنعُ - كما كتبْتُ في كتابِ (مدْخل إلىٰ الفَلْسفةِ الغربية) - بأنَّه يمكنُ إحرازُ تقدُّمٍ في الفَلْسفةِ علىٰ الرَّغم من غيابِ الإجماع. فالافتقارُ إلىٰ الإجماع في الفَلْسفةِ ليس بُرْهاناً مستقلّاً كافياً للقولِ بأنَّ الموضوعَ لا يمكن التقدُّمُ فيه. إظهارُ عدم وجود معرفة فَلْسفية، بدعوىٰ أنَّه سيظلُّ هناك من لا يَقْتَنِع، هي مغالطةٌ شائعةٌ صدرت حتَّىٰ من فلاسفةٍ معروفين مثل: برْتراند رَسِل. أمَّا أنا فأُسمِّيها (لكن سوفَ يظلُّ هناك دوماً من لن يقتنع علىٰ الإطلاق). هناك اتِّهامٌ حاصِلُهُ: أنَّ من المستحيلِ في الفَلْسفةِ أنْ تُثبِت لشخصٍ أنَّكَ علىٰ حقٍّ وأنَّه علىٰ باطل. ولكن الجزْءُ المفقودُ في هذه الحُجَّةِ هو التَّمييز بين إنتاجِ دليل وبين إقناعِ

المنطق، نادىٰ بالتكيُّف العرفي والمساواة.

(١) Michael Dummett, Truth and Other Enigmas (Cambridge, MA: Harvard University Press, ١٩٧٨), ٤٣١.

الشَّخص. الشَّخصُ قد يقتنع بحُجَّةٍ باطلة، وقد يظلُّ غير مقتنعٍ بحُجَّةٍ ينبغي القبولُ بها[1].

التقدُّمُ في الفَلْسفةِ يختلفُ عن التقدُّمِ في العِلْم، ولكن ذلك لا يعني أنَّ التقدُّمَ في الفَلْسفةِ مستحيل. في الفَلْسفةِ أنتَ تُسلِّطُ الضَّوءَ علىٰ الطَّبيعةِ الجوهريةِ للاستدلالِ الاستنباطي؛ أنت تُميِّزُ بين الأسئلةِ حول الحُجَجِ الصَّحيحة وغير الصحيحة وبين الأسئلةِ المُتعلِّقةِ بصدْقِ وكذِبِ مُقدِّماتِها أو نتائِجِها؛ أنت تُبيِّنُ الاستعمالَ الصَّارمَ لمصْطلحِ (المغالطة)؛ أنت تُحدِّدُ وتشرَحُ مثل هذه المغالطات من قبيل (لكن سوف يظلُّ هناك دوماً من لن يقتنع علىٰ الإطلاق). إلىٰ الحدِّ الذي تُنجَزُ فيه هذه الأُمور، ويتمُّ الوصولُ إليها عبرَ أفضلَ تفكيرٍ منطقيٍّ، يمكنُ رؤيةُ التقدُّم الحاصل حتَّىٰ لو ظلَّ الإجماعُ والإقناعُ أمراً غير مُتحقِّق وغير كامل.

* * *

---

(١) يقصد (فلو) بأنَّنا لا بدَّ أن نُميِّز بين كون الدليل منتجاً، واقتناع الشخص بالنتيجة. فليس بمقدورك أن تُحيل عقلَ غيرك من مقدّمات إلىٰ نتيجة، وإنْ كانت الإحالة مشروعة منطقياً، وإنْ كانت المقدّمات صحيحة، إنْ كان قد قرَّر سلفاً أنْ لا يقتنع بذلك. لذا ما يمكن القيام به في حقل الفلسفة لإحراز تقدُّم فيها، هو تقديم مقدّمات صحيحة، وانتقال مشروع منطقياً من المقدّمات إلىٰ النتيجة، أمَّا إجبار عقل الآخرين علىٰ الاقتناع، حتَّىٰ يتحقَّق الإجماع، فهذا ما لا يتحقَّق عادةً. (المراجع).

إعطاء اهتمام أكثر للإلحاد

(PAYING MORE ATTENTION TO ATHEISM)

كـان النَّـادي السُّـقراطي - الـذي يرأسُـهُ في ذلـك الوقـت سي. إس. لـويس - فـاعلاً خـلال ذروة نشـاط (الفَلْسـفة الجديـدة). ووجـدْتُ مبـدأ سقراط القائل في (اتَّبع الـدَّليل أينـما قـادَكَ) بشـكلٍ متزايـد هـو المبـدأ المُوجِّـه في تطـويرِ بعـض رُؤاي الفَلْسـفية وتعـديلِها. وخـلال هـذه التجمُّعـات في النَّـادي السُّـقراطي أيضـاً بـدأ فلاسـفةُ (اللُّغـة) - الـذين كـانوا يُتَّهمـونَ بتسـفيهِ الالتـزام بالضَّـوابطِ التـي كانـت معتـبرةً في زمـانٍ سـابق - باستكشافِ ما ميَّزَهُ الفيلسوفُ الألمـاني (كانـت) علىٰ أنَّـه أعظـمُ ثلاثـة أسئلة في الفلسـفة: الإلـه، الحُرِّيـة والخُلُـود. كانـت مسـاهمتي في هـذا المنتـدىٰ مـن خلالِ ورقةٍ بحثيَّةٍ بعنوان: (اللَّاهوتُ والتَّكذيب).

كـما ذكـرتُ سـابقاً، الأُسُـسُ التـي بنيْـتُ عليهـا اقتنـاعي بالإلحـاد، عندما كنْتُ في الخامسـة عشـرة، كانـت ناقصـةً بوضـوح. لقـد كانـت مبنيَّـةً علىٰ ما أسميتُهُ لاحقاً: (عنادِ صِغارِ السِّنِّ):

١ - مشـكلةُ الشَّـرِّ كانـت بالنِّسـبةِ لي دحضـاً حاسـماً لوجـودِ إلـهٍ كاملِ الخيرِ وكاملِ القُدْرة.

٢ - و(الـدِّفاعُ عـن حُرِّيـةِ الإرداة) لا يعفـي الخـالِقَ مـن مسـؤوليَّةِ عدم إتقان الخَلْق.

منذُ أيَّام المدرسة، أوليتُ اهتماماً إضافياً للأسبابِ المؤيِّدةِ والمضادَّةِ في الوصولِ إلىٰ النتائجِ الإلحادية. بدايتي تمثَّلت في عمليَّةِ البحث في مقالةِ (اللَّاهوتُ والتَّكذيب).

وقد تمَّ عرْضُ مقالة (اللَّاهوتُ والتَّكذيب) لأوَّلِ مرَّةٍ في صيفِ عام (١٩٥٠م) في النَّادي السُّقراطي في أكسفورد. وتمَّ بعد ذلك نَشْرُها في مجلَّةٍ لطلبةِ البكالوريوس، اسمُها (الجامعة). أُعيدَ طباعة المقالة لأوَّلِ مرَّةٍ في عام (١٩٥٥م) في كتاب (مقالاتٌ جديدةٌ في الفَلْسفةِ اللاهوتية)، وهو عبارةٌ عن مقالاتٍ مُجمَّعةٌ قُمْتُ بتحريرِها مع ألاسْدير ماكْلنتير (Alasdair MacIntyre). واحتوىٰ الكتابُ علىٰ مجموعةٍ من الإسهاماتِ القيِّمة في فَلْسفةِ الدِّين وفقاً لرؤيةِ (الفَلْسفة الجديدة). وقد وصفت مجلَّةُ (مُلْحق التايمز الأدبي Times Literary supplement) هذا الكتابَ بأنَّه (إضافةٌ جديدةٌ بشكلٍ جدِّي).

كان هدفي الأساسي من مقالِ (اللَّاهوتُ والتَّكذيب) هو بيانُ طبيعة ادِّعاءات اللَّاهوتيِّين المؤمنين بالإله. تساءلْتُ: تعدُّد القيود الذي يُحيطُ بالكلامِ اللَّاهوتي هل ينتجُ عنه إماتةَ الميِّت[1] بألفِ قِيْد؟ إذا أتيْتَ بادِّعاءٍ، عليكَ أنْ تستبعدَ (تحذِف) بعضَ الأشياء كي يكون ادِّعاؤُكَ مقبولاً. علىٰ سبيلِ المثال، الادِّعاءُ بأنَّ الأرضَ كرويةٌ يستبعدُ إمكانيةَ أنْ تكونَ مسطَّحة. ورغمَ أنَّها تبدو مسطَّحة، إلَّا أنَّ هذا التَّناقُضَ الواضح يمكن تفسيرُهُ عن طريقِ حجم الأرض الهائل، والجهةُ التي ننظُرُ منها إلىٰ الأرضِ... الخ. ولذلك، عندما يضيفُ المرْءُ قيْداً مُناسباً، فالادِّعاءُ قد

(١) كناية عن عدم تأثير إضافة القيود في حلِّ المشكلة، إذ الميِّت لا يمكن إماتته. (المراجع).

يصبحُ متَّسِقاً مع الظَّاهرةِ التي تبدو متناقضةً معه[١]. ولكن إذا استمرَّت الظَّاهرةُ المتناقضةُ مع وجودِ هذا القِيْد، فإنَّ الادِّعاءَ يصبحُ مشكوكاً فيه.

إذا كُنَّا ندَّعي بأنَّ الإلهَ يُحِبُّنا، فإنَّ علينا أنْ نتساءَلَ عن الظَّواهرِ التي يستبعِدُها هذا الادِّعاء. ومن الواضحِ أنَّ الألمَ والمعاناةَ تُمثِّلُ تحدِّياً لهذا الادِّعاء. المُوحِّدونَ يقولون لنا: إنَّ إضافةَ القيود المناسبة يمكن أنْ تتوافقَ مع وجودِ الإلهِ وحُبِّهِ للبشر. ولكن حينئذٍ السُّؤالُ الذي يطرَحُ نفسَهُ: لماذا لا نفترضُ بكلمةٍ أنَّ الإلهَ لا يُحِبُّنا؟ المُوحِّدونَ، كما يبدو، لا يسمحونَ بحُسْبانِ أيِّ ظاهرة علىٰ أنَّها ضدّ الادِّعاء بأنَّ الإلهَ يُحِبُّنا. ولكن هذا يعني أنَّه لا شيءَ يُحسَبُ لصالِحِ هذا الادِّعاء[٢]. وعندها يصبحُ الادِّعاءُ فارغاً. ولذلك أقول: إنَّ الفرضيَّةَ الرَّائعة يمكن أنْ يُقضىٰ عليها بواسطةِ القيود الكثيرة.

رغمَ أنَّ قَصْدي من وراءِ طرح هذه الأسئلة يبدو جليَّاً، إلَّا أنَّني كثيراً ما أُواجَهُ بالادِّعاءات بأنَّني كنْتُ أشرحُ وجهةَ نظري حول معنىٰ - أو غالباً لا معنىٰ - اللُّغة الدِّينية بأسرِها. وكذلك الحالُ مع الادِّعاءاتِ السَّائدة بأنَّني مُنجذِبٌ ومعتمدٌ علىٰ مبدأ التحقُّق (أو علىٰ الأقلّ اتَّخذْتُهُ كمُسلَّمة) الذي تبنَّتْهُ جماعةُ فيينا، التي تُمثِّلُ مدرسةَ الوضعية المنطقية،

(١) يريد (فلو) أنْ يُبيِّن أنَّ إضافةَ قَيْد (كبيرة وهائلة) للكرة الأرضية، يرفع التناقض الظاهري المُتوهَّم بين النظرية العِلْمية المُثْبَتة لكروية الأرض وإحساسنا الوجداني بتسطُّح الأرض. (المراجع).

(٢) أي إنْ لم يسمح المؤمنون بالإله بحسبان بعض الظواهر علىٰ أنَّها ضدّ وجود الإله، فلا يمكنهم حسبانها علىٰ أنَّها لصالح وجوده. فإنْ قبلوا بأنَّ بعضها لصالح الادِّعاء بأنَّ الإله محبٌّ للبشر، فلا بدَّ أنْ يقبلوا بأنَّ بعضها الآخر لصالح الادِّعاء بأنَّه غيرُ محبٍّ للبشر. (المراجع).

وهو المبدأ القائل بأنَّ العبارات التي يمكنُ التحقُّق منها باستخدامِ مناهج العُلُوم، هي وحدَها التي لها معنىٰ.

ولكن في الحقيقةِ لم أُكَوِّن قطُّ أطروحةً شاملةً عن وجودِ أو عدم وجود اللُّغة الدِّينية ككُلٍّ. لقد كان هدفي الأساس في بحثِ (اللَّاهوتُ والتَّكذيب) وضْعُ بعض (البهارات) علىٰ الحوارِ الدَّائر بين الوضعيةِ المنطقية والدِّين المسيحي، وإقامة حوار بين الإيمانِ بالإلهِ وعدمِ الإيمانِ بهِ علىٰ أساسٍ مختلفٍ أكثرَ فائدة. لم أكُن أُقدِّمُ مذهباً متكاملاً حول كلِّ اعتقاد ديني أو كلِّ لُغة دينية. أنا لم أقُل بأنَّ الاعتقادَ الدِّيني لا معنىٰ له. لقد كنْتُ، باختصار، أتحدَّىٰ المُوحِّدين كي يشرحوا عباراتِهم بشكلٍ يمكنُ فهمُهُ، في ضوءِ المعطيات المتعارضة.

* * *

التعلُّم من الاختلاف

(LEARNING FROM DISAGREEMENT)

واجهت المقالةُ الكثيرَ من الرُّدود، ومن هذه الرُّدود ما ظَهَرَ بعد عقودٍ من نَشْرِ المقالة، وكثيرٌ منها ساعدني في تهذيبِ - وفي بعضِ الأحيان تصحيحِ - آرائي. لكن أكثر الرُّدود جِدَّةً في الانتقاد ربَّما كان أوَّلُها، وجاء من قِبَلِ آر. إم. هير (R.M Hare)[1]، الذي أصبحَ لاحقاً أُستاذَ الفَلْسفة الأخلاقية في أكسفورد.

دعا هير إلىٰ عدمِ تفسير الكلام الدِّيني باعتبارِهِ جُمَلاً، بل باعتبارِهِ تعبيرات عمَّا أسماهُ بـ (a bilk)[2]، ويقترب من معنىٰ المقاربة العامَّة أو التوجُّه العامّ. هذا التوجُّه العامّ، كما وصفَهُ البروفيسور هير، عبارةٌ عن تفسيرٍ لخبْرَتِنا التي لا يمكنُ التحقُّق منها أو تكذيبُها. وحسْبَ عِلْمي، لم يُطوِّر هير هذه الفكرةَ بشكلٍ مكتوب، ولكن لا أعتقدُ أنَّ مقولةَ هير سوف تُرْضي المؤمنينَ بالإلهِ طالما أنَّها تُنكِرُ أيَّ أساسٍ عقلانيٍّ (rational) للاعتقاد[3].

---

(١) (١٩١٩ - ٢٠٠٢م)، فيلسوف إنجليزي، معنيٌّ بفلسفة الأخلاق.

(٢) هذه الكلمة هولندية، وتعني حرفياً (بحث). (المراجع).

(٣) بعبارة أُخرىٰ: يرىٰ (هير) أنَّ أيَّ كلام يراه المؤمنون بالإله أنَّه يتحدَّث عن حقائق دينية، ما هو إلَّا انفعالات ومشاعر وخبرات ذاتية خاصَّة، لا ترتكز علىٰ معطيات موضوعية، حتَّىٰ يقوم علىٰ أساسها اعتقاد رشيد وعقلاني. (المراجع).

في النِّقاشِ الأساسي، قالَ باسِل ميتْشِل (Basil Mitchell)[1] الذي خلَفَ سي. إس. لويس في رياسةِ النَّادي السُّقراطي: (إنَّ هناكَ خطأً في عَرْضي لوجهةِ النَّظَر اللَّاهوتية. فالكلامُ اللَّاهوتي يجب أنْ يكونَ أحكاماً مؤكَّدة، ولكي يكون كذلك لا بدَّ من أنْ يكونَ هناك ما يُعتَبرُ مُنافياً ومُكذِّباً لما يدَّعونَ حقَّانيَّتَهُ). وأشارَ ميتْشِل إلىٰ أنَّ اللَّاهوتيينَ لا ينْفونَ ذلك، فالمشكلةُ اللَّاهوتيةُ للشَّرِّ تظهَرُ لأنَّ وجودَ الألَمِ يبدو أنَّه يُحسَب ضدَّ حقيقة أنَّ الإلهَ يُحِبُّ البشر. كان ردُّ اللَّاهوتيين بالتمسُّكِ بمقولةِ الإرادة الحُرَّة. ولكن ميتْشِل اعترفَ بأنَّ المعتقدينَ بالإله يقعونَ عادةً في محذورِ تحويل أحكامِهِم إلىٰ صِيَغٍ فارغةٍ من المعنىٰ.

في كتابِ ميتْشِل (الإيمانُ والمنطق Faith and Logic)، قدَّم آي. إم. كرومبي (I.M.Crombie) - وهو فيلسوفٌ معروفٌ بأعمالِهِ عن أفلاطون - معالجةً أفضلَ بكثيرٍ لهذا الموضوع. يقولُ كرومبي: (إنَّ اللَّاهوتيِّين يعتقدونَ بغيبٍ يتجاوزُ التَّجربة). ولكن كرومبي يدَّعي أنَّ بمقدورِهِ تتبُّع بصمات هذا الغيب في التَّجرُبة. فضلاً عن ذلك، يؤكِّدُ المؤمنونَ بالإلهِ علىٰ أنَّهم عندما يُعبِّرونَ عن اعتقادِهِم، فإنَّهم مُجْبَرونَ علىٰ استعمالِ لُغةٍ محكومةٍ بقوانين فيها مفارقات[2].

لاحظَ كرومبي أنَّه يُمكِنُكَ فهم العبارات اللَّاهوتية فقط عندما تكونُ منصفاً في ثلاثِ قضايا:

١ - المؤمنونَ بالإلهِ يعتقدونَ بأنَّ الإلهَ كائنٌ متعال، وأنَّ العباراتَ

---

(١) (١٩١٧ - ٢٠١١م)، فيلسوف إنجليزي، معنيٌّ بالمسيحية وفلسفة الدين.

(٢) I. M. Crombie, “The Possibility of Theological Statements,” in Faith and Logic, ed. Basil Mitchell (London: Allen & Unwin), ٥٠.

التي تتحدَّثُ عنه تنطبِقُ عليه، ولا تنطبقُ علىٰ العالَمِ الخارجي.

٢ - المؤمنونَ بالإلـهِ يؤمنونَ بأنَّ الإلـهَ متعال، ولـذا فهو يتجاوزُ الإدراك (لا يمكن إدراكُهُ).

٣ - بما أنَّ الإلـهَ سِرٌّ (غيبٌ)، فلكي نعيهِ لا بدَّ أنْ نتحدَّثَ عنه بطريقةٍ مفهومة. فنحنُ يمكِنُنا فقط أنْ نتحدَّثَ عن الإلـهِ من خلالِ صور. والعباراتُ اللَّاهوتية عبارةٌ عن صورٍ بشريَّةٍ للحقيقةِ المقدَّسةِ التي يمكنُ التعبيرُ عنها بالأمثال[1].

جاءت ردودٌ أُخرىٰ علىٰ مقالةِ (اللَّاهوتُ والتَّكذيب)، من ضمْنِها ردُّ ريبرن هيمْبِك (Raeburne Heimbeck)، والإنجيلي المقدَّس أريك مَسْكال (Eric Mascall) في كتابِهِ (اللَّاهوتُ والمعنىٰ Theology and Meaning).

اتَّهَمَ هيمْبِك - وهو أُستاذُ الفَلْسفةِ والدِّراسات الدِّينية بجامعةِ واشنطن الوسطىٰ - المقالةَ بارتكابِ ثلاثة أخطاء مهمَّة:

الخطأُ الأوَّل: أنهَّا افترضت أنَّ معنىٰ أيَّ جملة هو مضمونُها التَّجريبي بذاتِهِ.

الخطأُ الثاني: أنَّها تضمَّنت خطأً، وهو أنَّ ما يُؤخَذ علىٰ أنَّه ضدُّ معتقدٍ هو نفسُهُ ما لا يتوافق معه[2].

---

(١) Crombie, "The Possibility of Theological Statements," ٧٣, ٧٢.

(٢) يقصد (فلو) أنَّ هناك فرقاً بين القول بأنَّ مشكلة الشرِّ (لا تتوافق مع الاعتقاد) بقدرة الله المطلقة وحبِّه المطلق للبشر من ناحية، والقول بأنَّ مشكلة الشرِّ (ضدّ الاعتقاد) بوجود إله. فالأوَّل لا يُنكِره المؤمنون بالإله، ويسعون لرفع عدم التوافق، في حين أنَّهم يُنكِرون الثاني تماماً. وبالتالي مقالة (فلو) القديمة لم تُفرِّق بين هذين الأمرين. (المراجع).

أمَّا الخطأُ الثالث: فهو أنَّها افترضت أنَّ العبارات المُتعلِّقة بالإله المُعبِّرة عن حُبِّهِ أو وجودِه، هي عباراتٌ لا يمكنُ تكذيبُها من حيثُ المبدأ.

ولكن الخطأُ الرَّئيسي - حسْبَ وجهةِ نظرِه - أنَّ المقالةَ حدَّدَت أُسُس الاعتقاد بصحَّةِ أو كذِبِ العبارة مع الشُّروطِ التي تجعلُها صادقةً أو كاذبة[1].

نبَّه ماسْكال (Mascall) - مستعيناً بفكرِ فتجنشتين - إلىٰ أنَّنا نستطيعُ اكتشافَ ما إذا كان للعبارةِ معنىٰ، فقط من خلالِ قدرةِ الناسِ علىٰ فَهْمِها في السِّياقِ اللُّغوي وأجواءِ الجماعةِ التي تُستعمَلُ فيه[2].

استشهدْتُ - بتوسُّعٍ نوعاً ما - بهذه الرُّدود لأُوضِّحَ دور مقالة (اللَّاهوتُ والتَّكذيب) في تحفيزِ ظهور موجاتٍ جديدة من الأفكارِ، ساعدت في تحريكِ المياه الرَّاكدة للخطابِ اللَّاهوتي. وقد استمرَّ هذا النِّقاشُ حتَّىٰ يومنا هذا. وفي الحقيقةِ، صَدَرَ عن مجلَّةِ ريتشموند للفَلْسفة (Richmond Journal of Philosophy) عددٌ في عامِ (٢٠٠٥م)، احتوىٰ علىٰ مقالٍ يُناقِشُ فائدةَ حُجَجي التي قدَّمتُها منذُ عام (١٩٥٠م).

لقد كان لهذه الرُّدود أثرٌ عليَّ، وعلىٰ آرائي الفَلْسفية. وكيف لا تُؤثِّرُ هذه الرُّدودُ إذا ما كنْتُ مُتَّسقاً مع نفسي في اتِّباعِ الدَّليل أينما قادني؟ في الطَّبعةِ البرونزية للمقالة، اعترفْتُ بصحَّةِ اثنين من الانتقاداتِ المُوجَّهة للمقالة. انتقادُ باسِل ميتْشِل قادني إلىٰ التَّفكيرِ في غرابةِ موقفي من اللَّاهوتيِّين. فقد بيَّنَ ميتْشِل أنَّ اللَّاهوتيين لا يُنكِرون حقيقة أنَّ

---

(١) Raeburne Heimbeck, Theology and Meaning (London: Allen & Unwin, ١٩٦٩), ١٢٣, ١٦٣.

(٢) Eric L. Mascall, The Openness of Being (Philadelphia: Westminster, ١٩٧١), ٦٣.

مسألةَ الألم تُسجَّل ضدّ الحكم بأنَّ الإلهَ يُحِبُّ البشر، وهي بالتَّحديد التي تُولِّد مشكلةَ الشَّرِّ اللَّاهوتية. أنا أعتقدُ أنَّه كان علىٰ صوابٍ في ذلك. كما أدركْتُ قوَّةَ نقد همْبِك، وقُلْتُ بأنَّني كنْتُ علىٰ خطأ في عدمِ التَّمييز بين (اعتبارِهِ ضدّ) وبين القولِ (بأنَّه لا يتوافق مع). حُجَّتي الأساسية تنصبُّ بشكلٍ مباشرٍ علىٰ الأمرِ الثاني لا الأوَّل.

* * *

الإله والفَلْسفة

(GOD AND PHILOSOPHY)

بعـد إحـدىٰ عشــرة سـنة مـن نَشْــرِ (مقـالات جديـدة)، نَشَــرْتُ كتـابَ (الإلـه والفَلْسـفة). كانـت محاولـةً منِّـي لتقـديمِ واختبـارِ التَّوحيـد المسيحي. لم أجِد أيَّ عرْضٍ سـابقٍ كافيـاً ومقبـولاً لهـذه المسـألة، بـما في ذلـك العَرْض الذي كان مقبولاً عـلىٰ نطـاقٍ واسـعٍ مـن قِبَـلِ المعـاصرين المعتقـدين بالإلـه. وقـد طلبْـتُ مـن بعـضِ الأصـدقاء المسـيحيِّين وبعـضِ الـزُّملاء أنْ يُقـدِّموا لي اقتراحـات في هـذا الموضـوع. ولكنِّـي وجـدْتُ القليـلَ مـن الـذي يستحقُّ الاهتمامَ به ضـمْنَ مـا قُـدِّم، أو لم أجـدُ مسـاحاتٍ مشـتركةٍ بـين تلـك المقترحـات. ولـذلك قُمْـتُ بتجميـعِ أقـوىٰ الحُجَـجِ مـن عـدَّةِ مصـادر، ودعوتُ الذين لم يكونوا راضـين بـذلك إلىٰ تقـديمِ مـا لـديهم، حتَّـىٰ نسـتطيعَ إنتاجَ شيءٍ يُرْضيهم ويُرضي أمثالَهُم.

لقـــد تـــمَّ نَشْـــرُ كتـــاب (الإلـــه والفلســـفة) لأوَّلِ مـــرَّة في عـــام (١٩٦٦م). وأُعيـدَ نَشْـرُ هـذا الكتـاب في عـام (١٩٨٤م) بعنـوان (الإلـه: دراسةٌ نقديَّة God: A Critical Enquiry). أمَّـا النُّسْـخةُ الأخـيرةُ مـن الكتـاب، مـع تمهيـدٍ مـن قِبَـلِ النـاشرِ ومُقدِّمـةٍ غـير مقنعـةٍ مـن قِـبَلي، فصـدرت عـام (٢٠٠٥م) في كتابِ (الإله والفلسفة).

في كتـابِ (الإلـه والفلسـفة)، عرضْـتُ طَرْحـاً منهجيـاً للإلحـاد.

وبشكلٍ عام، دعوتُ إلىٰ أنْ تكونَ نقطة البداية في السُّؤالِ عن مفهومِ الإله، في حدودِ تماسُكِهِ وقابليَّتِهِ للتَّطبيقِ ومشروعيَّتِهِ. عرضْتُ في الفصولِ الأُولىٰ من الكتاب لحُجَجِ اللَّاهوت الطَّبيعي[١]، بالإضافةِ إلىٰ عرْضِ ادِّعاءات الوحي المُقدَّس. وفي الوقتِ نفسِهِ، حلَّلْتُ فكرةَ التَّفسير، وفكرةَ النِّظام، وفكرةَ الغاية. والاعتمادِ علىٰ ديفيد هيوم وآخرين ممَّن يشاركونَهُ الرَّأي، قلْتُ بأنَّ حجَّةَ التَّصميم[٢]، والحُجَّةَ الكونيَّة[٣]، والحُجَّةَ الأخلاقيَّة التي تُستخدمُ لتأكيدِ وجودِ الإله حُجَجٌ غيرُ صحيحة. كما حاولتُ أنْ أُبيِّنَ استحالةَ الاستنتاج بنحوٍ صحيح وجودَ كائنٍ مُتعالٍ مُقدَّس من خبرةٍ دينيةٍ جُزْئية.

ولكن الإسهامُ الأهمُّ في الكتاب، هو الفَصْلُ الذي كان بعنوان (البداية من البداية). لقد نبَّهتُ فيه إلىٰ أنَّ هناك ثلاثةَ موضوعاتٍ بالتَّحديد يجبُ الإجابةُ عنها فيما يخُصُّ مفهومَ الإله:

١ - كيف يمكنُ تعريفُ الإله؟

٢ - كيف يمكنُ تطبيقُ التَّعبيرات الإيجابية والسَّلْبية (غير المادّية) علىٰ الإله؟

٣ - كيف يمكنُ تفسير عدم التوافُق بين تعريفِ صفات الإله مع حقائِقَ لا يمكنُ إنكارُها؟ (مثال: كيف يمكن تفسير وجود الأمراض في

---

(١) اللَّاهوت الطبيعي هو فرع من اللَّاهوت يعتمد علىٰ العقل والتجارب العادية. لذا فهو يختلف عن الوحي الديني الذي يقوم علىٰ أساس الكتب المقدَّسة والأنبياء. (المراجع).

(٢) حُجَّة التَّصميم هي الحجَّة المعروفة في أدبياتِنا الفلسفية بدليل النَّظْم أو دليل النِّظام. (المراجع).

(٣) الحُجَّة الكونية تناظر في أدبياتنا الفلسفية دليلَ الحدوث، ودليل الحركة، ودليل الإمكان. (المراجع).

العالَمِ مع وجودِ إلهٍ قادر؟).

تمَّ الرَّدُّ علىٰ السُّؤالينِ الثاني والثالث من قِبَلِ المؤمنين بالإله. فقد تمَّ الرَّدُّ من خلالِ نظرية التَّمثيل أو التَّشبيه عند الكلامِ عن صفاتِ الإله، ومن خلال حرّية الإرادة عند التَّعاطي مع مشكلة الشَّرِّ. لكن السُّؤالُ الأوَّلُ هو الذي لم يتمّ التطرُّق له بشكلٍ كافٍ علىٰ الإطلاق.

التَّعريفُ والتَّحديدُ هي أُمورٌ مهمَّةٌ في موضوعٍ يُرادُ البناءُ عليه، فتنظيمُ المعنىٰ وتثبيتُهُ لا محيصَ عنه في الخطاب. لكن لم يكن واضحاً كيف يمكنُ تعريفُ جوهرٍ فَرْدٍ مثل الإله الفُسيفِسائي (mosaic god)[1] كمُفارقٍ ومنفصلٍ عن الكونِ (المخلوق)؟ بأيِّ معنىٰ، إنْ كان ثَمَّة معنىٰ، يمكنُ أنْ نفهمَ أنَّ هذا الوجودَ هو واحدٌ علىٰ الدَّوام، وفي نفسِ الوقت فاعلٌ في الزَّمان أو - بشكلٍ مُحيِّرٍ أكثر - علىٰ نحوٍ ما (خارجُ) الزَّمان؟ ما لم يكن لدينا تصوُّرٌ أصيلٌ، متماسكٌ، قابلٌ للتَّطبيق (عن الإله)، لا يمكنُ إثارة السُّؤال حول وجود أو عدم وجود هذا الإله علىٰ نحوٍ مناسب. وبعبارةٍ أُخرىٰ: لا يمكنُنا البدءُ بنقاشِ الأسباب التي تجعلُنا نقول: إنَّ هناك إلهاً علىٰ نحوِ ما هو موجود، قَبْلَ أنْ نُقرِّرَ كيف يمكنُ تعريفُ الإله الذي نتحدَّث عنه؟ ولا يمكنُنا أنْ نفهمَ بشكلٍ مقبول، كيف يمكنُ أنْ يُعادَ ويتعدَّدَ تعريفُ نفس الفَرْد بمرورِ الزَّمن. ومن ثَمَّ، علىٰ سبيلِ المثال، كيف يمكنُ لفرْدٍ (مجرَّدٍ عن المادَّةِ والجسد وموجودٍ في كلِّ مكان)، أنْ يُعرَّفَ ويُعادَ تعريفُهُ وأنْ يكون قابلاً كموضوعٍ لعدَّةِ توصيفات؟

---

(١) كناية عن تعدُّد تصوُّرات الأديان للإله الكامل. (المراجع).

يرُدُّ المؤمنون بالإلـهِ علىٰ هـذا النَّمطِ مـن التفكير بعدَّةِ طُرُق. أبرز هؤلاء ريتشارد سوينبيرن (Richard Swinburne) - الذي خلَفَني في جامعةِ كييل ثُمَّ لاحقاً صارَ برفيسور في فَلْسفةِ الدِّين المسيحي في أكسفورد - في كتابهِ (تماسُك التَّوحيد The Coherence of Theism).

علَّلَ سوينبيرن ذلكَ بأنَّ القضيَّة (س) الذين رأيناهُم في وقتٍ سابقٍ أنَّهم (ص) لا تؤدِّي إلىٰ عدمِ تماسُكِ القضيَّة بأنَّ هناكَ (س) ليس (ص).

ويقول: ليس من حقِّ أحد أنْ يحتجَّ بأنَّ ما اعتادَ علىٰ رُؤيتِهِ - ولنَقُل: إنَّه (س) - يجب أنْ يكونَ (ص)، ولذا فإنَّ (ص) يجب أنْ تكونَ صفةً ذاتية (وليست عرضية) لأيِّ شيءٍ يُصنَّفُ علىٰ أنَّه (س)(١).

أمَّا فيما يخُصُّ الهويَّة، فإنَّ سوينبيرن يقول: إنَّ هويَّةَ الشَّخص جوهرية، ولا يمكن تحليلُها من خلالِ استمرارية الجسد أو الذَّاكرة أو الشَّخصية(٢).

---

(١) هذه النقطة مرتبطة بمشكلة الاستقراء. ويُستشهد - عادة - لبيان هذه المشكلة بقصَّة الكابتن كوك (Captain Cook). فقبلَ زيارة الكابتن كوك إلىٰ استراليا عام (١٧٧٠م)، كان يُعتَقد في أُوربا أنَّ كلَّ الأوز هو أبيض، لأنَّ كلَّ الأوز الذي تمَّ ملاحظته هناك كان أبيض. لكن ما أنْ زار كوك منطقة بوتاني باي، حتَّىٰ رأىٰ أوزاً أسود يسبح في مائها.
في ضوء هذا المثال، القولُ بأنَّ (كلَّ الأوز أبيض) لكون كلِّ الأوز الذي رأيته في السابق كان أبيض، لا يؤدِّي منطقياً إلىٰ عدم تماسك القول بأنَّ (هناك أوز ليس بأبيض). فالقضيَّة (كلُّ الأوز أبيض) لا يمكن أنْ تصدق دائماً، بحيث تكون القضيَّة (هناك أوز ليس بأبيض) غير متَّسقة معها، إلَّا إذا كانت صفة البياض ذاتية بالنِّسبة للأوز، وليس عرضية. والحال أنَّها ليست كذلك. (المراجع).

(٢) يقصد سوينبيرن أنَّ (أنا) الإنسان جوهرية، ولا يمكن القول بأنَّها ما هي إلَّا استمرارية الجسد، أو استمرارية الذاكرة، أو استمرارية الشَّخصية. فهناك شيءٌ

قَبِـلَ جيـه. إل. مـاكي (J. L. Mackie) - وهـو فيلسـوفٌ مُلْحِـدٌ - بتعريـفِ سـوينبيرن للإلـه، بأنَّـه روحٌ وأنَّـه حـاضرٌ في كـلِّ مكـان، وأنَّـه عـلىٰ كلِّ شيءٍ قـدير، وبكُـلِّ شيءٍ علـيم. وباختصـار، اعتـبرَ مـاكي أنَّـه (في الواقـعِ لا مشكلةَ في ذلك) عندما يتعلَّق الأمرُ بالتَّعريفِ والتَّمييز[١].

أدرَكَ مـؤرِّخُ الفَلْسـفة فريـدْرِك كوبْلِسْـتون (Frederick Copleston)[٢] قَـوَّةَ المشـكلة التـي أثرتُهـا فـيما يخُـصُّ تماسُـك تصـوُّر الإلـه، وردَّ بجـوابٍ مختلـف. يقـولُ فريـدْرِك: (لا أعتقـدُ أنَّ مـن المُـبرَّرِ الطَّلـبُ مـن العقـلِ البشـري أنْ يكـون قـادراً عـلىٰ تعريـفِ الإلـه كـما يُعـرِّفُ فراشـةً واقفـةً عـلىٰ صـندوقٍ زُجـاجي)[٣]. وفقـاً لكوبْلِسْـتون: (الإلـه يصـبحُ حقيقـةً واقعـةً للعقلِ البشـري عنـد حركـةِ الإنسـان نحـوَ التَّعـالي. في هـذه الحركـة، الإلـهُ يظهَرُ باعتبـارِهِ هـدفاً غـير مرئـي لهـذه الحركـة. وحيـثُ إنَّ المُتعـالي لا يمكـن إدراكُ كُنْه ذاتِهِ، وإذا جـازَ التعبـير: وفقـاً لخلفيَّتِنـا التصـوُّرية، فـلا بـدَّ للشَّـكِّ أنْ ينشـأَ ويظهـر. ولكـن، خـلال حركـة التَّعـالي، الشَّـكُّ يعـودُ للتَّـوازُنِ مـن خـلالِ التوكيـد (affirmation) المُتضـمَّن بالحركـةِ في ذاتِهـا. في ضِـمْنِ سـياق هـذه الحركـة الشَّخصـية للـرُّوحِ البشـرية، يصـبحُ الإلـهُ حقيقـةً واقعـةً

جـوهري (ولنقـل: نفْـسٌ مـثلاً) يتجـاوز مفهـوم اسـتمرارية الجسـد والـذاكرة والشَّخصـية. (المراجع).

(١) J. L. Mackie, The Miracle of Theism (Oxford: Clarendon, ١٩٨٢), ١.

(٢) بريطاني (١٩٠٧ - ١٩٩٤م).

(٣) يقصـد كوبلسـتون: يكفـي أنْ نطالـب العقـل بـأن يُعـرِّف الإلـه تعريفـاً إجماليـاً غامضـاً، لأنَّ العقـل البشـري لا يـرىٰ الإلـه بوضـوح ودقَّـة كـما يـرىٰ الفرّاشـة الواقفـة عـلىٰ صـندوق زجاجي. (المراجع).

للإنسان)[1].

ما الذي أعتقدُهُ اليوم عن الحُجَجِ المنصوصِ عليها في كتابِ (الإله والفَلْسفة)؟ في رسالةٍ عام (٢٠٠٤م) إلىٰ مجلَّةِ (الفَلْسفة الآن)، لاحظتُ أنَّني الآن أعتبرُ أنَّ الإلهَ والفلْسفةَ بقايا تاريخية (لكن، بطبيعةِ الحال، لا يمكن للمرءِ أنْ يكونَ متَّبعاً الدَّليل أينما يُؤدِّي إنْ لم يُعطِ الآخرين فرْصةَ إبداء وجهات نظرِهِم في أُمورٍ لم يضَعْها في الحُسْبان). وآرائي الحالية في الموضوعاتِ التي تمَّ التطرُّق لها هناك، تمَّ عرْضُها في القِسْمِ الثاني من هذا الكتاب (اكتشافي للمُقدَّس).

* * *

(١) Frederick C. Copleston, Philosophers and Philosophies (London: Search Press, ١٩٧٦), ٧٦.

فرضيَّةُ الإلحاد

(THE PRESUMPTION OF ATHEISM)

بعد مرورِ عقدٍ من الزَّمن علىٰ نَشْرِ كتاب (الإله والفَلْسفة)، قُمْتُ بكتابةِ مقالة (فرضيَّة الإلحاد) نُشِرَت في الولاياتِ المتَّحدة تحتَ عنوان: (الإله والحُرِّية والخُلُود). في هذا الكتاب، جادلْتُ بأنَّ النِّقاشَ حول وجود الإله يجبُ أنْ يبدأَ من فرضيَّةِ الإلحاد، وأنَّ عبءَ الإثبات يجبُ أنْ يكونَ علىٰ المؤمنينَ بالإله. أشرْتُ إلىٰ أنَّ هذا النَّهجَ الجديد يضَعُ مسألةَ وجود الإله في منظورٍ جديد بشكلٍ كاملٍ. كما أنَّه يُساعِدُ في التخلُّصِ من المشاكلِ التصوُّرية عن الإيمانِ التي قد لا يتمُّ الاهتمامُ بها، ويجبُرُ اللَّاهوتيين علىٰ البدءِ من البدايةِ المطلقة. استخدامُ المؤمنين بالإله لكلمةِ (الإله) يجبُ أنْ يُقدِّم معنىً يجعلُ من الممكنِ نظرياً لهذا الكائن الواقعي أنْ يُوصَف. توصَّلْتُ إلىٰ نتيجةٍ مفادُها أنَّه مع هذا المنظورِ الجديد يظهَرُ مشروعُ الإيمان بالإله بأكملِهِ متزعزعاً أكثرَ عمَّا كان عليه من قبل.

فرضيَّةُ الإلحادِ يمكنُ تبريرُها عن طريقِ القول بأنَّ الاعتقادَ بوجودِ الإله يفتقرُ إلىٰ مُبرِّراتٍ وجيهة. حتَّىٰ نؤمن بأنَّ هناك إلهاً، لا بدَّ أنْ تكون لدينا مُبرِّرات جيِّدة للاعتقاد. لكن إنْ لم تكن لدينا مثلُ هذه المُبرِّرات، فإنَّه لا يوجدُ هناك سببٌ كافٍ للإيمانِ بوجودِ الإله، والموقفُ

المعقولُ الوحيدُ هو أنْ تكونَ مُلْحِداً سلْبيَّاً أو لا أدْريَّاً (agnostic)[١].

ولا بدَّ لي من الإشارةِ هنا إلىٰ ما لا تتضمَّنُهُ (الفرضيَّة). الفرضيَّةُ لا تتضمَّنُ حُكماً مُسْبقاً علىٰ نتيجةٍ يُرادُ إثباتُها. وإنَّما هي مبدأٌ إجرائيٌّ لتحديدِ من سيقع عليه عبءُ الإثبات، يشبَهُ كثيراً قاعدة (أصْل البراءة)، التي يستندُ عليها القانونُ العامّ الإنكليزي[٢].

أجدُ أنَّه - في أيِّ نظامٍ منهجيٍّ سليم - علىٰ اللَّاهوتيين أنْ يبدأوا، كما هو الحالُ في كلِّ فرضيَّةٍ وجوديَّةٍ، بتحديدِ التصوُّر الخاصِّ الذي سوف يُستَعمَلُ لوَصْفِ الإله، ثُمَّ بعد ذلك يُشيروا كيفَ للموضوعِ المُطابِق أنْ يُعرَّف. فقط بعد تلبيةِ هاتينِ المهَّمتينِ بشكلٍ مُرْضٍ، يصبحُ مقبولاً البدءُ بتقديم الأدلَّة المقصودة.

هذه الحُجَّةُ حفَّزت العديدُ من الرُّدود. باعتبارِهِ لا أدْريَّاً، كتَبَ الفيلسوفُ الإنجليزي أنتوني كيني (Anthony Kenny)[٣] قائلاً بأنَّه قد يكون هناك فرضيَّة لتبريرِ اللَّاأدريَّة (agnosticism)، لكن ليس لتبريرِ الإلحادِ السَّلْبي أو الإيجابي[٤]. لقد أكَّدَ كيني علىٰ أنَّ إظهارَ أنَّكَ تعرِفُ

---

(١) المُلْحد السَّلْبي هو الذي (لا يؤمن بالإله)، في حين أنَّ المُلْحد الإيجابي هو الذي (يؤمن بعدم وجود إله). وهناك فرقٌ بين عدم الإيمان، والإيمان بالعدم. لذا المُلْحد السَّلْبي يقترب كثيراً من اللَّاأدري، وهو الذي إذا سألته: هل الله موجود؟ أجابك: لا أدري. (المراجع).

(٢) يقصد (فلو) من أصل البراءة أنَّ كلَّ متَّهم بريء حتَّىٰ تثبُتَ إدانتُهُ. وهو ما يوازي عندنا الحديث المروي: «البيِّنةُ علىٰ من ادَّعىٰ». (المراجع).

(٣) فيلسوف بريطاني، وُلِدَ سنة (١٩٣١م)، وما زال علىٰ قيد الحياة، مهتمٌّ بفلسفة الذهن، وبرع في الفلسفة التحليلية، والمزج بين أفكار فتجنشتين وتوما الأكويني.

(٤) يقصد كيني هناك فرق بين أنْ تُبرِّر الموقف اللَّاأدري، وأنْ يكون موقفك بوصفك لا

شيئاً ما يتطلَّبُ جهداً أكبر من إظهارِ أنَّكَ لا تعرف (وهذا يَشْمَلُ حتَّىٰ الادِّعاء بأنَّ تصوُّر الإله غيرُ متماسك). لكنَّه قال: إنَّ هذا لا يُخلِّص اللَّاأدْري من الورطة؛ فالمُتقدِّمُ للاختبار يمكنُهُ تبريرُ عدم معرفتِهِ بإجابةِ أحد الأسئلة، لكن هذا لا يمنحهُ القُدْرة علىٰ اجتيازِ الاختبار[1].

كاي نيلْسون (Kai Nielsen)[2]، هو زميلٌ مُلْحِدٌ زاملتُهُ سابقاً، قَدَّمَ نقداً زعمَ فيه أنَّ الموقفَ الأخلاقي المتميِّز هو أنْ تبقىٰ غير ملتزم تماماً حتَّىٰ تتوفَّرَ أسبابٌ كافيةٌ لذلك. نيلْسون ذهبَ للقولِ بأنَّ علَيَّ أنْ أُبيِّن أنَّ المعتقدينَ بالإله والمتشكِّكين لديهم تصوُّرٌ مشتركٌ عن العقلانيةِ (rationality) مع المعاييرِ المطلوبة لتقييمِ مزايا ادِّعاءآتهم المختلفة[3].

أدريَّاً مُبرَّراً. فعندما تريد أنْ تصبح لا أدريَّاً، فهذا يستبطنُ الادِّعاء بمعرفةِ شيء، ولو كان هذا الشيء هو عدم تماسُك تصوُّر الإله. لذا ليس المؤمن بالإله فقط يقع عليه عبءُ الإثبات، بل حتَّىٰ اللَّاأدري يقع عليه عبءُ تبرير موقفِهِ اللَّاأدري، هذا فضلاً عن المُلْحد. (المراجع).

(١) Anthony Kenny, Faith and Reason (New York: Columbia University Press, ١٩٨٣), ٨٦.

(٢) فيلسوف وُلِدَ سنة (١٩٢٦م)، وما زال علىٰ قيد الحياة، مهتمٌّ بفلسفة الأخلاق، وفلسفة السياسة، وفلسفة الدين.

(٣) العقلانية (rationality) تصوُّرٌ حيوي وبالغ الأهمّية في الفكر الغربي الحديث والمعاصر، وله تعريفاتٌ متعدِّدة، ومواقف الفلاسفة منه مختلفة. لكن التصوُّر المشهور عن العقلانية أنَّه الموقف الرَّشيد الذي يستندُ إلىٰ مبرِّراتٍ موضوعية. فالاعتقادُ أو القرارُ العقلاني هو الذي يقفُ علىٰ أرضيةٍ صَلْبة ومعطياتٍ كافية، في مقابل الاعتقاد أو القرار غير العقلاني الذي يكونُ ذاتياً، ولا يقفُ علىٰ أرضيةٍ صَلْبة ومعطياتٍ كافية. لذا يريد نيلسون أنْ يقول هنا: قبل أنْ نتَّخذ موقفاً من الإيمان بالإله، لا بدَّ أنْ نتَّفق علىٰ تصوُّرٍ شاملٍ للعقلانية، ثمَّ علىٰ ضوئه نُقيِّم المعطيات والمبرِّرات، لنرىٰ أنَّها تقف لصالح هذه الفرضية أو تلك. (المراجع).

وأضافَ بأنَّ هناك (علامةَ استفهامٍ كبيرة) علىٰ (فرضيَّةِ الإلحاد)[1] إنْ لم أُنتج تصوُّراً شاملاً مقبولاً لتصوُّر العقلانية.

أكبرُ تحدٍّ للحُجَّةِ جاءَ من أمريكا. حيثُ قدَّمَ أُستاذُ المنطق الجهاتي (Modal Logic) ألْفِن بلانتِيْنغا (Alvin Plantinga)[2] فكرةً مفادُها أنَّ الإيمانَ بالإلهِ هو اعتقادٌ أساسيٌّ تماماً. وأكَّدَ علىٰ أنَّ الاعتقادَ بالإلهِ مشابهٌ للاعتقادِ بالحقائقِ الأساسية، مثلُ الاعتقاد بالعقولِ الأُخرىٰ أو المدرَكات الحسِّية (رؤية شجرة) أو الذَّاكرة (الاعتقاد بالماضي). في جميعِ هذه الحالات، أنتَ تثِقُ بقُدُراتِكَ الإدراكية، علىٰ الرَّغمِ من أنَّكَ لا تستطيعُ إثباتَ صِدْق الاعتقاد محلّ التَّساؤل. وبالمثل، فإنَّ النَّاسَ يعتقدونَ بقضايا معيَّنة (كوجودِ العالَمِ مثلاً) كأُسُسٍ، ثُمَّ تُشتقُّ اعتقاداتٌ أُخرىٰ من هذه الاعتقادات الأساسيَّة. هذه الفرضيَّةُ تقول: إنَّ المعتقدينَ بالإلهِ يأخذونَ وجود الإله كقضيَّةٍ أساسية[3].

الفيلسوفُ التُّوماوي (نسبةً إلىٰ توما الأكويني) رالف ماكلنيرني (Ralph McInerny)[4] يرىٰ أنَّ من الطَّبيعي للإنسانِ أنْ يعتقدَ بالإلهِ

---

(١) Kai Nielsen, review of The Presumption of Atheism by Antony Flew, Religious Studies Review ٣ (July ١٩٧٧): ١٤٧.

(٢) فيلسوف أمريكي تحليلي كبير، وُلِدَ (١٩٣٢م)، وما زال علىٰ قيد الحياة، وهو أُستاذ فخري للفلسفة في جامعة نوتردام. بلانتينغا معروف علىٰ نطاق واسع لعمله في فلسفة الدين، نظرية المعرفة، الميتافيزيقيا واللَّاهوت، وله بصمة واضحة في الدفاع عن الإيمان بوجود الله في العالم الغربي اليوم.

(٣) لتوضيح هذه النقطة راجع: أفي الله شكٌّ؟ لمرتضىٰ فرج: ٢٠ - ٢٦/ ط ١/ ٢٠١٣م/ دار الانتشار العربي/ بيروت. (المراجع).

(٤) فيلسوف أمريكي، (١٩٢٩ - ٢٠١٠م).

بسببِ النِّظام، والتَّرتيب، والقوانين التي تحكُمُ الأحداثَ التي تقعُ في الطَّبيعة. ولذلكَ كثيراً ما يقول: إنَّ فكرةَ وجود الإله هي فكرةٌ فطريَّةٌ، وتبدو كمُسلَّمةٍ تقفُ ضدَّ الإلحاد. لذا فإنَّه في حين جادلَ بلانتِنْغا بأنَّ الموحِّدينَ لا يتحمَّلونَ عبءَ الإثبات، ذهبَ ماكلنيرني أبعدَ من ذلكَ بالقولِ أنَّ المُلْحدينَ هم من يتحمَّل عبءَ الإثبات!

ينبغي أنْ أُشيرَ هنا إلىٰ أنَّه علىٰ خلافِ حُجَجي المضادَّة للَّاهوت، فإنَّ الاحتجاجَ لفرضيَّةِ الإلحاد يمكنُ قبولُهُ بنحوٍ متَّسقٍ من قِبَلِ الموحِّدين. لأنَّنا إذا افترضنا وجود مُبرِّرات مناسبة للاعتقادِ بالإله، فالموحِّدونَ لا يرتكبونَ أيَّ خطأٍ فلسفيٍّ في مثلِ هذا الاعتقاد[1]! لأنَّ فرضيَّةَ الإلحاد في أحسَنِ الأحوال نقطةُ انطلاقٍ منهجيَّة، وليست نتيجةً وجوديَّة.

❊ ❊ ❊

---

(١) يريد (فلو) أنْ يقول: إنَّ الموحِّدين طالما قبلوا الاحتجاج بالأدلَّة علىٰ وجود الإله، فهم يقبلون بالاحتجاج بالأدلَّة علىٰ عدم وجوده، لأنَّهم لجأوا إلىٰ العقل واحتكموا إليه. ومن الناحية العملية لم يُرتِّبوا أثراً علىٰ القول بأنَّ الإيمانَ بالله فطريٌّ، حتَّىٰ يقولوا: نحن نرفض الاحتجاج علىٰ وجود الإله أو عدم وجوده، لأنَّ الإيمانَ به فطريٌّ. لذا ففرضية الإلحاد تكون هنا بمثابة مُحفِّز للعقل، ونقطة انطلاق للبحث عن وجود الإله أو عدم وجوده. (المراجع).

تغييرُ وجهة نظري

(CHANGING MY MIND)

كفيلسوفٍ محترف، قُمْتُ بتغييرِ وجهةِ نظري أكثرَ من مرَّةٍ في المسائلِ المختلفِ عليها. ينبغي أنْ لا يكونَ ذلك مُسْتغرباً، بالطَّبع، إذا أخذْنا بالاعتبارِ اعتقاداتي المُتعلِّقة بإمكانيةِ إحراز تطوُّر في الفَلْسفة، وبمبدأ اتِّباعِ الدَّليل أينما قادني.

عندما كنْتُ أقومُ بالتَّدريسِ في جامعةِ كييل في عامِ (١٩٦١م)، كتبْتُ كتاباً عن بحثِ هيوم (تحقيقٌ في الفهمِ الإنساني)[١]، بعنوان (فَلْسفة هيوم في الاعتقاد). حتَّىٰ ذلك الحين، كان يتمُّ التعامل مع تحقيقِ هيوم (عادةً يُقالُ له: الـ (تحقيق) الأوَّل لتمييزِهِ عن كتابِهِ اللاحق (تحقيقٌ في مبادئِ الأخلاق)) علىٰ عكسِ ما جالَ في ذهنِ المؤلِّفِ بوصفِها مجرَّد مقتطفات. لكن الآن، هذه المقتطفات تُعدُّ أعظمَ أعمال هيوم.

بخصوصِ كتابي عن هيوم، كَتَبَ جلْبرت رايل قائلاً: (أُقَدِّرُ عالياً ما جاءَ في الكتاب. فهو مملوءٌ معرفةً وحيوية). في حين كَتَبَ جون باسمور (John Passmore)[٢] قائلاً: (أيُّ مناقشةٍ لاحقةٍ لعِلْمانيةِ هيوم

---

(١) مرَّ علينا أنَّ ديفيد هيوم أصدر سنة (١٧٥٨م) كتابه (تحقيق في الفهم الإنساني) ترجمه د. موسىٰ وهبة/ دار الفارابي/ ٢٠٠٨م/ بيروت، بعنوان (مبحث في الفاهمة البشرية)، وفي سنة (١٧٥١م) أصدر كتابه (تحقيق في مبادئ الأخلاق). (المراجع).

(٢) فيلسوف أسترالي (١٩١٤ - ٢٠٠٤م).

عليها أنْ تبدأ من فلو).

رغمَ هذه الإشادات، إلَّا أنِّي كنْتُ أرغبُ دائماً بعملِ تعديلاتٍ جوهريةٍ في كتابي (فَلْسفة هيوم في الاعتقاد). مسألةٌ واحدةٌ بالتَّحديد كانت تحتاجُ إلىٰ تصحيحاتٍ كبيرة. الفصولُ الثلاثة: (فكرةُ الاتِّصال الضَّروري) و(الحرِّيةُ والضَّرورة) و(المعجزات والمنهجيَّة)، جميعُها كان بحاجةٍ إلىٰ إعادةِ صياغة، في ضوءِ إدْراكي المَبْنِيِّ حديثاً بأنَّ هيوم كان مخطئاً تماماً بالقولِ: إنَّنا ليس لدينا خِبْرة، ومن ثَمَّ ليس لدينا أفكارٌ أصيلة، وليس في قُدْرتِنا جعلُ بعضِ الأشياء تحدُث ومنْعُ البعض الآخر من الحدوث، أي ثَمَّةَ ضرورةٌ فيزيائية واستحالةٌ فيزيائية.

ونتيجةً لخطأ هيوم هذا، تمَّ تضليلُ أجيالٍ من أتْباعِ هيوم بتقديمِ تحليلٍ في غايةِ الضَّعف للسَّببيَّة والقانونِ الطَّبيعي، لأنَّه لم يكن هناك أساسٌ إمَّا للقبولِ بوجودِ السَّبب والنتيجة أو بوجودِ قوانين الطَّبيعة. وفي الوقتِ نفسِهِ، فإنَّ هيوم ذاتَهُ في الفصلِ (في الحُرِّية والضَّرورة Of Liberty and Necessity)[1] والفصلِ (في المعجزات Of Miracls)[2] كان يَسْعىٰ للكشْفِ عن أفكارٍ تتعلَّق بأسبابٍ تأتي بنتائجَ، أقوىٰ من تلك التي كان هيوم مستعدًّا لاعتبارِها مشروعة[3].

في كتابِهِ الـ (تحقيق) الأوَّل، أنكر هيوم السَّببيَّة، وادَّعىٰ أنَّ كلَّ ما

---

(١) وهو الفصل (VIII) من كتابه (تحقيق في الفهم الإنساني). (المراجع).

(٢) وهو الفصل (X) من كتابه (تحقيق في الفهم الإنساني). (المراجع).

(٣) يقصد (فلو) أنَّ هيوم رغمَ رفضِهِ للعلاقات السببية في حوادث الطبيعة، إلَّا أنَّ المفارقة أنَّه كان يبحث في هذين الفصلين من كتابه عن أفكارٍ سببية، سَبَقَ وأنْ رَفَضَ ما هو أبسط منها تتعلَّق بحوادثِ الطبيعة. (المراجع).

يتضـمَّنهُ العـالَمُ الخـارجي في الواقـعِ هـو مجـرَّدُ تـرابُطٍ دائـم. أي عبـارةٌ عـن أحداثٍ من هـذا النـوع، يتْبَعُهـا بانتظـام أحـداثٌ مـن ذلـك النـوع. وعنـدما نلاحـظُ هـذا الـتَّرابُطَ الـدَّائم، يتكـوَّنُ لـدينا عـاداتٌ قويَّـةٌ تسـتدعي فيهـا أفكارٌ من هذا أفكاراً مـن ذاك. فـنحنُ نـرىٰ المـاءَ يغـلي عنـدما يـتمُّ تسـخينُهُ، فنـربِطُ بـين تسـخينِ المـاء وغليانِـهِ، فنـربطُ بـين الاثنـين (تسـخين المـاء والغليان). ونعتقدُ أنَّ هنـاك علاقـةً واقعيَّـةً بـين الاثنـين، في حـين أنَّنـا بـذلك نُسـقِطُ بنحـوٍ خـاطئ تـداعياتنا النَّفْسـية الدَّاخليـة. يـتخلَّصُ هيـوم مـن تشـكيكِهِ في السَّـببِ والنَّتيجـةِ ولا أدريَّتِـهِ بالنِّسـبةِ للعـالَمِ الخـارجي في اللَّحظةِ التـي يـترُكُ فيهـا البحـث، بـل حتَّـىٰ قبـلَ أنْ ينتهـي مـن البحـث. في الحقيقـة، هيـوم يـتخلَّىٰ عـن تشـكيكِهِ بالسَّـببيةِ حتَّـىٰ قبـلَ أنْ ينتهـي مـن البحـث. لـذا، لـيسَ هنـاك علىٰ سـبيلِ المثـال في فَصْـلِ (في المعجـزات) في كتابِـهِ الــ (تحقيـق) الأوَّل أثـرٌ لأُطروحتِـهِ عـن العلاقـاتِ السَّـببيَّةِ ومـا كـان يقولُهُ من أنَّ الضَّرورات ليست سوىٰ إسقاطاتٌ كاذبةٌ علىٰ الطَّبيعة[1].

---

(١) يريـد (فلـو) أنْ يقـول - وهـو محـقٌّ تمامـاً في ذلـك - أنَّ هنـاك انفصـاماً غريبـاً في الفصـولِ الأُولىٰ من كتـاب (تحقيـق في الفهـم الإنساني) التـي يتحـدَّث فيهـا هيـوم عـن أصـلِ الأفكـار وتـداعيها والاقـتران الضـروري، مـع فصـل (في المعجـزات). ففـي فصـل (في المعجـزات) اسـتبعَدَ المعجـزات - في ضـوءِ الإخبـارات والشَّـهادات البشـرية عـن وقوعِهـا - لأسـبابٍ متعدِّدة، منها: عدمُ وجودِ عـددٍ كـافٍ مـن الشُّـهود نضـمنُ عـدم كـذبِهِم أو وقـوعهم فريسـةً للـوهم، ومنهـا: تعـارُض الشَّـهادات، ومنهـا: أنَّ أغلـب مـن ينقـل تلـك المعجـزات هـي شـعوب جاهلـة غـير متحضِّـرة... الـخ. وهـي أسـباب تبـدو عقلانيـة تمامـاً، لكـن بالنسـبة لمـن يـؤمن بوجـود علاقـة ضرورة بـين السَّـبب والنتيجـة. أمَّـا بالنسـبة لمـن لا يـؤمن بوجـود ضرورة بـين السَّـبب والنتيجـة، الموقـف الطبيعـي المترقَّـب منـه هـو أنْ يتسـامح مـع المعجـزات المنقولـة. فـما المـانع العقـلي مـن انكسـارِ قـانون الطبيعـة في العلاقـاتِ السَّـببية، طالمـا أنَّهـا مجـرَّد تـداعيات ذهنيـة لا واقعيـة لهـا، وإنَّـما نحـنُ مـن يُسْـقِطُها علىٰ الواقـع، كـما

ومـرَّةً أُخـرىٰ، في كتابـِهِ (تـاريخ إنكلـترا)، لم يُقـدِّم هيـوم أيَّ إشـارة عـن شـكِّهِ في السَّـببيَّةِ أو في العـالَمِ الخـارجي. وبهـذا يُـذكِّرُنا هيـوم بـبعضِ المعـاصرين الـذين يُنكِـرُونَ لُمـبرِّراتٍ اجتماعيـةٍ أو فَلْسـفيةٍ إمكانيـةَ المعرفـة الموضـوعية. ثـمَّ هُـمْ بعـدَ ذلـك يسـتَثْنونَ مـن هـذا التَّآكُـل للموضـوعيةِ الشَّـاملة، خُطَـبَهُم السِّياسـيَّة العنيفـة، وعمَلَهُـم البحثـي، وفـوقَ كـلِّ ذلـك، وحيَهُم الأوَّليِّ الخاصّ بعدمِ وجود معرفة موضوعية[١].

الموضـوعُ الآخـر الـذي غـيَّرْتُ رأيـي فيـه هـو الإرادة الحـرَّة، وحرِّيـة الإنسان. هـذا الموضـوعُ مهـمٌّ، لأنَّ السُّـؤالَ عـمَّا إذا كُنَّـا أحـراراً أو لا يكمُـنُ في قَلْبِ أغلَبِ الأدْيـانِ الرَّئيسـية[٢]. وقـد أشرْتُ مـن قبـلُ إلىٰ تعـارُضِ فكـرة الشَّر في العالَمِ الذي خلقَهُ إلـهٌ عـلىٰ كـلِّ شيءٍ قـدير وبكُـلِّ شيءٍ علـيم[٣]. كـان

يدَّعي هيوم!؟ (المراجع).

(١) يريـد (فلـو) هنـا أنْ يُظهِـرَ الموقـف الفلسـفي المتنـاقض لأُولئـك الـذين يُنكِـرون المعرفـة الموضـوعية. فهـم مـن ناحيـة، يُنكِـرون إمكانيـة الظفـر بحقـائقَ موضـوعية، لكـنَّهم يضـطرُّون - حتَّـىٰ يُقنِعـوا الآخـرين بصـحَّةِ مـوقفهم - أنْ يؤكِّـدوا أنَّ خُطـبَهُم، وبحـثَهُم، وإنكارَهُم للمعرفة الموضوعية، هي حقيقة موضوعية. (المراجع).

(٢) لأنَّ الأديـان عـادةً تؤيِّـد الحرّيـة الإنسـانية. فمـن دونهـا تنتفـي المسـؤولية الأخلاقيـة والقانونيـة. إنْ لم يكـن الإنسـان حُـرَّاً في أفعالـه، فكيـف يصـحُّ للإلـه أنْ يُدينَـهُ عنـدما يرتكبُ شرَّاً!؟ (المراجع).

(٣) بمعنىٰ أنَّ الإلـهَ لـو كـان بكـلِّ شيءٍ عليـم، لكـان عالمـاً بالشَّـرِّ الـذي يقـع في العـالَمِ. والإلـه لو كان عـلىٰ كـلِّ شيءٍ قـدير، لكـان قـادراً عـلىٰ منـعِ الشَّـرِّ في العـالَمِ، لكـن لم يفعـل. فوجـودُ الشَّرِّ يكشفُ إمَّا عن عدم علمِهِ به، أو عدم قدرتهِ علىٰ منعِ وقوعِهِ.

ومشـكلةُ الشَّـرِّ تـارةً تـرتبط بـالظواهر والكائنـات الطبيعيـة؛ كـالزلازل والبراكـين والأمـراض والثعـابين والحيوانـات المفترسـة، وتـارةً أُخـرىٰ تـرتبطُ بأفعـالِ الإنسـان، كـالحروب بسـبب البغـي والجشـع والانتقـام، وكـالفقر والجهـل بسـبب الكسـل

ردُّ الموحِّدين علىٰ هذا التَّعارُضِ المُشاهَد بالقولِ بأنَّ الإلهَ وهبَ الإنسانَ الإرادةَ الحرَّة، وأنَّ كلَّ أو معظمَ الشُّرور الصَّارخة ترجعُ بشكلٍ رئيسيٍّ أو جزئيٍّ إلىٰ سوءِ استخدام هذه الهدية الخَطِرة، إلَّا أنَّ المحصِّلةَ النِّهائيةَ ستكونُ في إدراكِ أنَّ الخيراتَ المتحقِّقة من هِبةِ الحرِّية أعظم بكثيرٍ من سَلْبِها. كنْتُ في الواقعِ أوَّلُ من سمَّىٰ هذه الحُجَّة (دفاع الإرادة الحرَّة).

وبغضِّ النَّظَر عمَّا يمكنُ تسْميةُ هذه الجدل بين (الإرادةِ الحرَّة والجبرية)، أو بالتَّعبيرِ العِلْماني بين (الإرادةِ الحرَّة والحَتْمية)، فإنَّ السُّؤالَ عمَّا إذا كُنَّا أحراراً في أفعالِنا له أهميَّةٌ رئيسيَّة. ردِّي علىٰ ذلك تمثَّلَ بمحاولةِ سُلُوك طريقين:

أوَّلاً بعَرْضِ الموقف الذي أصبحَ يُعرَفُ بـ (التوافقية compatibilism). فغيرُ التَّوافقيِّين يزعمون أنَّه لا يمكنُ الجَمْعُ بين الإرادةِ الحرَّةِ والحتْمية[1]. التَّوافقيُّون، من جهةٍ أُخرىٰ، لم يكتفوا بالقولِ بإمكانيَّةِ الجَمْع بينهما، أي إنَّ الإرادةَ الحرَّةَ لشخصٍ ما لا تتعارضُ مع كونِ مستقبلِهِ محتومٌ حتَّىٰ قبلَ أنْ يقومَ بالعمل، بل ذهبوا إلىٰ أبعدِ من ذلكَ بالقولِ بأنَّ الأفعالَ الإراديةَ يمكنُ أنْ تكونَ حرَّةً حتَّىٰ لو كان وقوعُها حَتْمياً من الناحيةِ الفيزيائية، بمعنىٰ حتَّىٰ لو كان وجودُها محكوماً

والتواكل... الخ.
ما يتحدَّث عنه فلو هنا هو الشُّرور المرتبطة بأفعالِ الإنسان. أمَّا الشُّرور المرتبطة بالطبيعة، فراجع: العدل الإلهي لمرتضىٰ المطهَّري/ الفصل الأربعة الأُولىٰ. (المراجع).

(١) فأتباع هذا الاتِّجاه يظلُّون مُصرِّين علىٰ أنَّ التسيير لا يتلاءم مع التخيير، والجبر لا ينسجم مع التفويض. (المراجع).

بقوانينِ الطَّبيعة[١].

ورغمَ استمراري بالاعتقادِ بأنَّ الناسَ يقومون باختياراتٍ حرَّة، إلَّا أنَّني في الأعوامِ اللاحقة بدأتُ ألحَظُ أنَّه لا يمكنُكَ الاعتقادُ في الوقتِ نفسِهِ وبنحوٍ متَّسق بأنَّ الاختيارات الحرَّة لها أسبابها الفيزيائية. بكلمةٍ أُخرىٰ: الجمْعُ والتَّوفيقُ هنا لا يَصُحُّ. قانونُ الطَّبيعة ليس عبارةً عن حقيقةٍ عمياء صِرْفة بحيث أنَّ نمطاً خاصَّاً من الإرادةِ بمجرَّدِ أنْ يحدُث، فإنَّ نمطاً آخرَ من الحُدُوثِ يتْبَعُهُ أو يتزامن معه[٢]. بل هو ادِّعاءٌ بأنَّ حدوثَ حادثةٍ من نمطٍ خاصٍّ بنحوٍ فيزيائي يُحتِّمُ بالضَّرورةِ حدوثَ الشَّيء الآخر، ممَّا يجعلُ عدمَ حدوثِهِ أمراً مستحيلاً. ومن الواضح أنَّ الحالَ ليس كذلك في الإرادةِ الحرَّة.

أيضاً نحنُ بحاجةٍ إلىٰ تمييزِ حاسمٍ بين معنيينِ من معاني (السَّبَب)، وبحاجةٍ إلىٰ تمييزٍ موازٍ بين معاني (الحَتْمية). أسبابُ الأفعالِ البشرية تختلفُ بشكلٍ جوهريٍّ عن أسبابِ الحوادث غير البشرية. فعندَ توفُّرِ السَّبب الكامل لحُدُوثِ انفجارٍ ما، فإنَّه يصبحُ من المستحيلِ علىٰ أيَّةِ قوَّةٍ في هذا العالَمِ منعُ حدوث الانفجار[٣]. ولكن إذا أعطيتُكَ سبباً كافياً

---

(١) فأتباع هذا الاتِّجاه يفهمون الإرادة الحرَّة علىٰ ضوء الحتمية الفيزيائية، ويرون أنَّ الضرورةَ مهيمنةٌ علىٰ أحداثِ العالَم، وعلىٰ هذا الأساس تصبح الإرادة الحرَّة مجرَّد وهمٍ من الأوهام. (المراجع).

(٢) فمثلاً أنت لا تستطيع أنْ تقول كقانون من قوانين الطبيعة: إنَّ إرادةَ الانتقام سوف يتبعها بالضرورةِ نمطٌ معيَّنٌ من الحوادث. فقد يكبِتُ صاحبُ هذه الإرادة رغبتَهُ في الانتقام، بل قد يتعامل مع الطرفِ الآخر بلُطفٍ بالغ، لسببٍ أو آخر. (المراجع).

(٣) بعبارةٍ أُخرىٰ: إذا اجتمعت كلُّ شروط تحقُّق الانفجار (تحقَّقت علَّته التامَّة)، فإنَّ منعَ تحقُّقِهِ يصبحُ مستحيلاً من الناحيةِ الواقعية، إلَّا إذا نجحنا في تعطيلِ شَرْطٍ من شروط

لإظهارِ الفرَحِ والابتهاج، فإنَّ هذا لا يعني أنَّك بالضَّرورةِ ستطْلِقُ صوتَ الفرَحِ والابتهاج. ويترتَّبُ علىٰ هذا أنَّه ليس كلُّ حركةٍ إنسانيةٍ يمكنُ إرجاعُها بشكلٍ كاملٍ إلىٰ أسبابٍ فيزيائية.

يمكنُ التَّمييزُ بين معنيينِ للفظِ (السَّبَب)، من خلالِ استخدامِ مصطلح هيوم: الأسبابُ المادِّية والمعنوية (أو الأخلاقية). فعندما نتحدَّثُ بشكلٍ كاملٍ عن أحداثٍ غير بشرية - الكسوف علىٰ سبيلِ المثال - فإنَّنا نستخدمُ كلمةَ (السَّبَب) بالمعنىٰ الذي يتضمَّنُ الضَّرورةَ الفيزيائية والاستحالةَ الفيزيائية (أي: ما حدَثَ كان يجب أنْ يحدُث، وعدَمُ حدوثِهِ مستحيل).

ولكن هذا بالتأكيد ليس الحالُ عندما نتكلَّم عن الأسبابِ (الدَّوافعِ أو البواعث) في حالةِ الأفعال البشرية. لنستخدمَ المثالَ السَّابق، افترض أنَّني أخبرتُكَ بأخبارٍ مفرحة. فإذا كان ردُّ فعلِكَ هو الابتهاج، فإنَّ من المحتملِ جدَّاً أنْ تصِفَ إخباري لكَ بهذه الأخبار بأنَّه (سببٌ) لابتهاجِك. ولكنَّني في الواقعِ لم أكن سبباً في ابتهاجِكَ[1]؛ فهو لم يكن ضرورياً وكان بالإمكانِ تجنُّبُهُ. فقد تُقرِّرُ أنْ لا تبتهجَ، لأنَّنا كنَّا حينَها، لنَقُل: في المكتبة[2]. وبعبارةٍ أُخرىٰ: قد يكونُ نقلي أخباراً مفرحةً دفعَكَ لإطلاقِ صوت الابتهاج، لكنَّني أيضاً لم أمنعكَ من أنْ تبكي.

تحقُّق الانفجار (جزء من أجزاء العلَّة التامَّة). لكن طالما افترضْتَ أنَّ كلَّ شروط تحقُّق الانفجار قد اجتمعت، ففي هذه الحالة يصبح وقوعه ضرورياً. (المراجع).

(١) فهو مجرَّد مثير خارجي. (المراجع).

(٢) حيث يتطلَّب الوجود في المكتبة الهدوء، وعدم إطلاق أصوات البهجة حتَّىٰ لا يتأذَّىٰ الآخرون. (المراجع).

ولنستخدم تعبيرَ الفيلسوف الرِّياضي جوتْفرِدْ لَيبْنِتْزْ (Gottfried Leibniz) أسبابُ هذه اللَّحظة تُرجِّحُ، لكن لا تُحتِّم.

ولـمَّا كان هيوم منكراً لمشروعيةِ تصوُّر الضَّرورة الفيزيائية، لذا لم يكن قادراً علىٰ إقامةِ هذا التَّمييز بين المعنيين بالطَّريقةِ التي أشرنا إليها هنا. ومع ذلك، فإنَّ طريقةَ هيوم في العنْونةِ تُؤشِّرُ إلىٰ الفَرْقِ الجوهري بين العُلُومِ الطَّبيعيةِ من جهة[1]، والعُلُوم الاجتماعيةِ والنَّفسيةِ من جهةٍ أُخرىٰ[2].

انطلاقاً من المعنيينِ المختلفينِ الأساسيينِ لكلمةِ (السَّبب)، يصبحُ من الواضحِ - علىٰ الأقلِّ عندما نتحدَّث عن السُّلوكِ البشري - أنَّنا نحتاجُ إلىٰ تمييزٍ موازٍ بين معنيينِ مختلفينِ لـ (الحَتْمية): الحَتْميةُ الناتجةُ عن أسبابٍ فيزيائية، والحتميةُ الناتجةُ عن أسبابٍ معنوية (أو أخلاقية). من المؤكَّدِ أنَّه إذا كان هناك سلوكٌ ما يتحقَّقُ بنظامِ الأسباب الفيزيائية، فإنَّ فاعلَ السُّلوك لم يكن حرَّاً في هذا السُّلوك، ولم يكن بمقدورِهِ أنْ يمنَعَهُ من الحدوث[3]. لكن الحتميةُ الناتجةُ عن أسبابٍ معنوية (أو أخلاقية) هي شيءٌ آخر. فأنْ تُفسِّرَ سلوكَ فرْدٍ من خلالِ الإشارةِ إلىٰ دوافعِهِ للفعلِ كما وَقَعَ، يعني أنَّكَ تفترضُ ضمناً أنَّه كان بمقدورِهِ أنْ يتصرَّفَ بنحوٍ آخر[4].

---

(١) المحكومة بقوانين طبيعية لا أثرَ للإرادة الإنسانية فيها. (المراجع).

(٢) التي تعتبرُ الإرادةَ الإنسانية عنصراً أساسياً ومحورياً فيها. (المراجع).

(٣) فمثلاً سلوك زهرة دوَّار (عبَّاد) الشَّمس، التي تتحرَّك مع حركةِ الشمس، لا يمكن القول: إنَّ حركتَها إرادية، لأنَّها تقع ضمن نظام الأسباب الفيزيائية. (المراجع).

(٤) في ضوء هذا التمييز، يمكن القول: إذا كان وقوعُ حادثةٍ ما في العالَمِ الفيزيائي (بنحوٍ محتوم) يتطلَّبُ اجتماعَ شروط متعدِّدة معيَّنة (علَّة تامَّة)، فإنَّ الإرادةَ الحرَّة قد تكون

من المؤكَّدِ أنَّ الفشلَ في تشخيصِ هذه التَّمييزات الأساسية سوف يُضلِّلُ الكثيرَ من الناسِ ويقودُهُم للاستنتاجِ بأنَّ تفسيرَ وقوع حدثٍ ما بأسبابٍ فيزيائيةٍ أو معنويةٍ يُؤيِّدُ مبدأَ الحتْمية الكونية الفيزيائية[1]. وهذا يعني أنَّه كان من المستحيلِ علىٰ أيِّ فاعلٍ أنْ يسلُكَ خلافَ السُّلوك الذي صدَرَ منه.

ما نحتاجُهُ لتجنُّب مثل هذه الأخطاء (كما فعلْتُ في كتابِ (الحياة الاجتماعية)، و(الحكم الأخلاقي)) هو التحليلُ المنطقي لثلاثةِ أفكار مترابطة: (الفاعل)، (حرِّية الاختيار)، (القُدْرة علىٰ اختيارِ غير ما اخترناهُ في الواقع). عندما نستطيعُ التَّمييز بين التحرُّكات (movings)

شرطاً فريداً من تلك الشُّروط (الجزء الأخير من العلَّة التامَّة). فمثلاً إذا كان وقوع حادثة إطلاق نار من مسدَّس يتطلَّبُ اجتماع شروط متعدِّدة، كوجود مسدَّس، وصلاحيته للعمل، ووجود طلقات بداخلِهِ، وسلامتي البدنية، فتكون إرادتي الحرَّة حينئذٍ بإطلاق النار هو الشَّرط الأخير، والفريد بطبيعتِهِ، الذي يُحقِّق وقوع هذه الحادثة.

وإلىٰ هذا المعنىٰ أشارَ أئمَّةُ أهل البيت عليهم السلام قبلَ أكثر من ألفِ عام بقولِهِم: «لا جبرَ ولا تفويض، ولكن أمرٌ بين أمرين». وقبْلَهُم القرآنُ الكريم في قولِهِ تعالىٰ: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧]، حيثُ أثبتَ له الرَّمي في عين نفيِهِ، ونفاهُ في عين إثباتِهِ. وكذلك قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا تَشَاؤُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [التكوير: ٢٩]، فللإنسان - بخلافِ بقية الكائنات - مشيئة وإرادة حرَّة، لكنَّها مُعلَّقة علىٰ مشيئةِ الله وإرادته. ولا تناقُضَ في ذلك، فالمسألةُ مرتبطةٌ بزاويةِ النَّظر، فإنْ نظرْتَ من زاويةِ الإنسان الفرد الواعي القادر، رأيتَ تجلِّياً للإرادةِ الإنسانيةِ الحُرَّة، وإنْ نظرْتَ من زاويةِ المشهد الكُلِّي، لتسلْسُل وسير الأحداث المُعقَّد بنحوٍ مذهل، رأيتَ يدَ الغيب والحتمية والضَّرورة المرتبطة بالإرادةِ الإلهية. (المراجع).

(١) يقصد بذلك حتمية جميع حوادث الكون الشَّاملة لأفعال الإنسان الإرادية. (المراجع).

والحركـات (motions)، فإنَّـه يمكنُنـا أنْ نُفسِّـرَ التصـوُّر الأسـاسي: (الفعـل action)[١]. التحـرُّك (moving) هـو حركـةٌ يـتمُّ القيـامُ بهـا اختياريـاً، وأمَّـا الحركـة (motion) فهـي حركـةٌ لا يمكـنُ تجنُّـب القيـام بهـا. فالقـدْرةُ عـلىٰ التحـرُّكِ هـي خاصـيَّةٌ للبشَــرِ فحَسْـب، أمَّـا الكائنـات التـي لا تمتلـكُ الإدراكَ والقصْد فإنَّ ما تقوم به هو مجرَّدُ حركة (motion).

الفـاعلونَ هـم المخلوقـات القـادرة عـلىٰ حرِّيـةِ الاختيـار في أنْ تفعـل أو لا تفعل: الاختيار بين عـدَّةٍ بـدائلٍ للفعـلِ أو عـدم الفعـل، وهـي البـدائلُ التـي تتغـيَّرُ مـن وقـتٍ لآخـرَ حسب الظُّـروف. والفـاعلون - مـن خـلالِ دورِهـم كفـاعلين - لـيس بوسـعِهِم تجنُّـب الاختيـار بـين بـديلين، أو غالبـاً أكثر، من البدائلِ المتاحة لهم في وقتِ الحدث.

التَّمييزُ الحاسـمُ بـين التحرُّكـاتِ المتضـمَّنة في (الفعـل)، والحركـة التـي تُشـكِّلُ السُّـلوكَ الضَّــروري، يكمُـنُ في أنَّ السُّـلُوكَ الأخـير هـو ضروريٌّ فيزيائيـاً. بيـنما معنـىٰ، واتِّجـاه، وخاصـية الــ (فعـل) لا يمكـن أنْ يكـونَ ضروريـاً مــن الناحيـةِ الفيزيائيـة. ويترتَّـبُ عـلىٰ ذلـك اسـتحالة القـول بمـذهبِ الحَتْميـةِ الفيزيائيـة الشَّـاملة في الكـون، بنحـوٍ يشـمل حركـة جسَـد الإنسـان، مــن خــلالِ القـول: إنَّ (التحرُّكـات) بالإضـافةِ إلىٰ (الحركـاتِ) هي معاً محكومةٌ بأسبابٍ فيزيائيةٍ حتمية.

في ضـوءِ تراجُعـي عـن القـولِ بالتَّوافقيَّـةِ الكاملـة، فـإنَّ الكثـيرَ ممَّـا كتبتُـهُ عـن الإرادةِ الحـرَّة أو الاختيـار، في سـياقِهِ العِلْـماني أو الـدِّيني، يحتـاجُ إلىٰ تعـديلٍ وتصـحيح. إنْ أخـذنا بالاعتبـار أنَّ هـذا الأمـرَ يتعلَّـقُ بالسُّـؤالِ

---

(١) كلمـة (الفعــل action) تُسـتَخدمُ في هــذا السِّـياق في الأفعــال الصــادرة مــن الإنســان بالتحديد. (المراجع).

الثاني من أسئلةِ كانت الفَلْسفية الثلاثة الأساسية: (الإله والحرِّية والخلود)، فإنَّ تغيير قناعتي بشكلٍ جوهريٍّ في الحرِّية، يُماثِلُ التَّغيير الجوهري لوجهةِ نظري في السُّؤالِ الأوَّل عن الإله.

* * *

الفصل الثالث:

إعادةُ النَّظَر في الإلحادِ بهدوء

ATHEISM CALMLY CONSIDERED

كان جورج هيرْمان روث (George Herman Ruth)[1] أفضـلَ لاعـبٍ في الدَّوري، وكان في بدايتِهِ أفضلَ ضاربٍ، وبعد ذلك أصبحَ لاعبَ وسطٍ يُسجِّلُ (٢٩) هدفاً في المباراةِ الواحدة، وفي الوقتِ نفسِـهِ لعـبَ في مركـزِ الضَّـاربِ في (١٧) مباراة، وكان ذلك في عام (١٩١٩م). بعد ذلك باعَ مالكُ نادي بوسـطن رد فوكس، هاري فريـزي (Harry Frazee) - الـذي قيـلَ في وقتِهـا إنَّـه يحتـاجُ للأموال - باعَ روث إلىٰ نادي نيويورك مقابلَ (١٢٥,٠٠٠) دولار. قادَ روث نادي نيويورك للبطولةِ الأمريكيةِ في سبعةِ مواسـم، وقـادَهُ أيضـاً أربـع مـرَّات لبطولةِ العالَمِ. ولم يستطع نادي رد فوكس أنْ يحصُلَ بعـدَها علىٰ البطولـةِ إلَّا في عام (٢٠٠٤م)، أي بعد خمسٍ وثمانينَ سنة.

مـن المثـيرِ أنَّ (٢٠٠٤م) كـان العـام الـذي أعلنْـتُ فيـه في نيويـورك أيضاً عن (تحوُّلي) إلىٰ التوحيدِ بعدَ أكثـرَ مـن سـتَّةِ عقـودٍ مـن الإلحـاد، حيـثُ أعلنْتُ أنَّنـي غـيَّرْتُ (فريقـي) إنْ صـحَّ التعبـير. ولكنَّنـي بـدأتُ أيضـاً أنظُـرُ إلىٰ الأُمورِ مـن زاويـةٍ أُخـرىٰ، لأنَّنـي كنْـتُ لا أزالَ أُمـارسُ (اللُّعبـةَ) بـنفسِ الحماسِ والمبادئِ كما كُنْتُ في السَّابق.

* * *

(١) (١٨٩٥ - ١٩٤٨م)، يُعتَـبر أعظـم لاعـب كـرة القاعـدة (بيسـبول) في تـاريخ الولايـات المتَّحدة.

واجبٌ تجاهَ الحوار

(A DUTY TO DIALOGUE)

توجَّـتُ رحلتـي نحـو التَّوحيـد بنَشْــرِ كتـاب (فرضـيَّة التَّوحيـد The Presumption of Qtheism). وفي كتابـاتي اللَّاحقـة تناولْـتُ عـدَّة موضـوعات بشـكلٍ مختلـفٍ تمامـاً. في الواقـعِ، كتبْـتُ في مقالـةٍ نُشِــرَت ضـمْنَ كتـاب صـدَرَ في عـام (١٩٨٦م) تحـتَ عنـوان (الفَلْسـفةُ البريطانيَّـةُ اليـوم British Philosophy Today)، أنَّنـي أرغـبُ بعمـلِ أشـياءٍ أُخـرىٰ إنْ سـمحَ لي الوقـتُ بـذلك. أودُّ، عـلىٰ سـبيلِ المثـال، أنْ استكشِـفَ النِّزاعـات التَّاريخيـة الكبـيرة حـولَ بُنْيـةِ الثَّـالوث (structure of the Trinity)[1]، وحـولَ مـا يجـري في القُرْبـانِ المُقـدَّس (Eucharist)[2]. مـع ذلـك، وبحلـولِ أواخـرِ السـتِّينات مـن القَرْنِ الماضي، أصـبحَ واضـحاً لي أنَّ الحاجـةَ لجهـودي ماسَّـةٌ في مكـانٍ آخـر. كُنْتُ علىٰ قناعةٍ بأنَّ عـليَّ في بقيَّـةِ حيـاتي تركيـز طاقـاتي في المجـالاتِ العِلْمانيـة الواسعة لفَلْسفةِ العُلُوم الاجتماعية والفَلْسفة الاجتماعية.

بما أنَّني قُلْتُ الكثيرَ حـولَ فَلْسـفة الـدِّين خـلالَ سـنواتٍ طويلـة، فـإنِّي أجـدُ نَفْســي مُلْزمـاً مــن الناحيـةِ الفكريـة بـأنْ أرُدَّ عـلىٰ أيِّ انتقـادٍ قَـدْرَ

---

(١) العقيـدة المسـيحية في الثـالوث، أي الاعتقـاد بالإلـه الواحـد الـذي لـه أقـانيمٌ ثلاثـة: الأب، الابن، الرُّوح القُدُس.

(٢) أحـد الأسرار السـبعة المقدَّسـة في الكنيسـتين الكاثوليكيـة والأُرثوذكسـية، و هـو تـذكيرٌ بالعشاء الذي تناوله يسوع بصحبة تلاميذه عشيَّة آلامه.

الإمكان، إمَّا بالاعتراف بأنَّني كنْتُ مخطئاً أو ببيانِ سبب عدم اتِّفاقي مع مُنتقديّ. ولذلك ظَلَلْتُ في النِّقاشِ مع المدافعينَ عن التَّوحيد الذين استمرُّوا هم أيضاً في نقدِ وتحدِّي حالةَ إلحادي، حتَّىٰ بعد انتقالي إلىٰ مواضيعَ فَلْسفيةٍ أُخرىٰ.

لم يكن هذا التحدِّي شيئاً جديداً بالنِّسبةِ لي. في الواقعِ، لقد أمضيْتُ مسيرتي الفَلْسفية كلَّها في حواراتٍ حماسيَّةٍ ونقاشٍ عامٍّ مع مُفكِّرينَ يختلفونَ معي في العديدِ من الموضوعاتِ التي تتراوحُ ما بين الفَلْسفةِ الاجتماعية، مشكلة الجسد/ العقل، مشكلة الإرادة الحرَّة/ الحَتْمية، فيما يتعلَّق بوجودِ الإله. لقد استغرَقَ النِّقاشُ في هذه الموضوعاتِ أكثرَ من نصْفِ قَرْنٍ من حياتي الفكرية.

في عامِ (١٩٥٠م) سعيْتُ لتحديدِ ماذا يُقصَدُ بالقولِ: (إنَّ اللهَ يُحِبُّكَ)؟ وفي عامِ (١٩٧٦م) حاولتُ أنْ أُوضِّحَ (هل مفهومُ الإله مُتماسِكٌ؟)، وفي عامِ (١٩٨٦م) كنْتُ أُحاولُ أنْ أُحدِّدَ علىٰ من يقعُ عبءَ تقديم الدَّليل؟ وفي عامِ (١٩٩٨م) كنْتُ أُناقِشُ تداعيات الانفجار الكوني الكبير.

خلالَ كلِّ ذلك، لم يُساعِد اشتراكي في المناظراتِ والنِّقاشاتِ اللَّاهوتية علىٰ تقويةِ آرائي فحسب، بل أتاحَ لي فرْصةَ التعرُّفِ علىٰ العديدِ من الزُّملاءِ والخصوم الذين يستحِقُّونَ الاحترام رغمَ اختلافي معهم.

* * *

الاحتفاظ بأسْلِحتي

(STICKING TO MY GUNS)

من بينِ جميعِ المناظرات التي شاركْتُ فيها، كانت هناك مناظرتانِ في عامي (١٩٧٦ و١٩٩٨م) اعتبرُهُما الأفضل.

الأُولىٰ مناظرةُ عام (١٩٧٦م) مع توماس وارِن (Thomas Warren) في مدينةِ دينْتون بولايةِ تكساس، حيث كان الحضورُ ولعدَّةِ أيّامٍ يتراوحُ ما بين خمسة إلىٰ سبعةِ الآلاف متابع. أمَّا مناظرةُ عام (١٩٩٨م) فكانت مع وليام لين كريج (William Lane Craig)[1] في مدينةِ مديسون في ولايةِ ويسْكِنْسن، وكان الحضورُ يُقدَّرُ بأربعةِ الآلاف. فقط في هاتينِ المناظرتين لعبْتُ دورَ البطل في مناظرةٍ عامَّة.

تُعقَدُ المناظراتُ في المملكةِ المتَّحدةِ عادةً بحضورٍ أكاديميٍّ قليل. لذا، تجرُبتي الأُولىٰ في مواجهةِ جمهورٍ كبيرٍ في سياقِ مناظرةٍ، كانت في مواجهةِ البروفيسور الرَّاحل الفيلسوف المسيحي توماس وارِن (Thomas B. Warren)[2]. وقد عُقِدَت المناظرةُ في حرمِ جامعةِ شمال تكساس في مدينةِ دينْتون، علىٰ مدىٰ

---

(١) فيلسوف أمريكي مسيحي، وُلِدَ في (١٩٤٩م)، ويُعتَبر من أشهر اللَّاهوتيين المدافعين عن المسيحية في العالم، عُرِفَ بمناظراته المفعمة بالحماسة. قام بمناظرة أشهر أعلام الإلحاد في العالم، مثل: ريتشارد دوكينز وسام هاريس، وغيرهم كثير. مناظراته مرفوعة علىٰ اليوتيوب. (المراجع).

(٢) فيلسوف أمريكي ولاهوتي مسيحي، (١٩٢٠ - ٢٠٠٠م).

أربعِ ليالٍ متتالية، بدايةً من (٢٠) سبتمبر من عام (١٩٧٦م)، وهو التاريخ الذي تزامنَ مع المناظرةِ الرِّياسيَّةِ الأُولىٰ بين جيمي كارتر (Jimmy Carter) وجيرالد فورد (Gerald Ford). أمامَ جمهورٍ متحمِّسٍ، قدَّمَ البروفيسور وارِن مجموعةً مؤثِّرةً من الرُّسومِ واللَّوحاتِ التَّوضيحية.

والمثيرُ أنَّ جزءاً كبيراً من محاضرتِهِ ذهبَ للهُجومِ علىٰ نظريةِ التطوُّر (theory of evolution)، التي كانت بالنِّسبةِ لي في ذلك الوقت مهمَّةً غير مألوفة. وعندما سألني البروفيسور وارِن عمَّا إذا كُنْتُ أعتقدُ بأنَّ هناك موجوداً نِصْفُ قِرْد (ape) ونِصْفُ إنسان، كان ردِّي بأنَّ ذلك يشبهُ السُّؤال عمَّا إذا كان شخصٌ ما أصْلَعاً أم لا. كان رأسُ المُشْرف علىٰ رسالتي في الدُّكتوراه جلْبرت رايل يشبهُ البيضة (لم يكن علىٰ رأسِهِ أيَّة شعرة)، وليس هناك شكٌّ بأنَّ أيَّ شخصٍ لا بدَّ أنْ يقولَ: إنَّه أصْلَع. ولكن في زمنِ تساقُط الشَّعر، ليس من السَّهلِ تعريف من هو الأصلع، ومن هو غير الأصلع[1].

ومع ذلك، وأخذاً لآرائي الحالية بالاعتبار، ربَّما كان عددٌ قليلٌ من عباراتي الإخبارية (declarative statements)[2] (الجُمَل التي ليست سؤالاً أو أمراً أو استفهاماً) في تلك المناظرة مهمَّاً، في توضيحِ قوَّة

---

(١) يقصد (فلو) أنَّه في ضوء نظرية التطوُّر، التي تفترضُ أنَّ الإنسان تطوَّرَ من كائنٍ بدائيٍّ يشبه القرد (ape)، من الصعب تحديد لحظة انتقالهِ من فئةٍ إلىٰ فئة أُخرىٰ، لأنَّ التطوُّرَ تدريجيٌّ وبطيءٌ جدَّاً. كما هو الحال عند تساقط الشَّعر، فعندما يبدأ الشَّعر بالتساقط من رأس إنسان، من الصَّعب الحكم عليه أنَّه متىٰ صار أصلعاً. (المراجع).

(٢) العبارات الإخبارية هي العبارات التي تحتملُ الصِّدْقَ أو الكذب، وتأتي في مقابلِ العبارات الإنشائية التي تنطوي علىٰ سؤالٍ أو أمرٍ أو استفهام...الخ، ولا تحتمل في ذاتِها الصِّدْق أو الكذب، إلَّا إذا تمَّ تحويلُها إلىٰ عباراتٍ إخبارية. (المراجع).

اعتقاداتي الإلحادية، من قبيل:

(أنا أعرفُ أنَّه ليس هناك إلهٌ).

(نظامُ الاعتقاد المتعلِّق بالاله) يتضمَّنُ (التَّناقُضَ) نفسَهُ الموجود في (الأزواجِ غير المتزوِّجين أو المربَّعات الدَّائرية).

(أنا أميل إلىٰ الاعتقادِ بأنَّ الكونَ لا بدايةَ له وسيظلُّ دونَ نهاية. وفي الحقيقةِ، أعرفُ أنْ لا جدوىٰ من تحدِّي أيٍّ من هذينِ الاعتقادين).

(أعتقدُ أنَّ الكائنات الحيَّة تطوَّرت علىٰ مدىٰ فترةٍ طويلةٍ لا يمكنُ حسابُها من موادٍّ غير حيَّة).

لقد تأثَّرْتُ بالاستقبالِ الحافلِ من قِبَلِ المسْتضيفين، ولكن المناظرة انتهت بتمسُّكي وتمسُّك وارِن بأسلحتِنا.

* * *

إطلاقُ نارٍ على زريبة[1]

(SHOOTOUT AT THE O.K. CORRAL)

مناظرتي التَّالية كانت بعد عَشْرةِ سنواتٍ من تلك المناظرة. وكانت أيضاً في تكساس، وعُقِدَت في دالاس في عام (١٩٨٥م)، وشَعَرْتُ بأنَّ الوضْعَ يبدو كإطلاقِ النار المَشْهور علىٰ الزَّريبة (O.K.). اشترَكَ معي في المناظرةِ ثلاثةٌ من مشاهيرِ المُلْحدين: والاس ماتْسون (Wallace Matson) وكي نلْسن (Kai Nielsen) وبول كيرتز (Paul Kurtz)، وقد واجهنا مجتمعين مجموعةً من كبارِ الفلاسفة اللّاهوتيين: ألفِن بلانتينْغا (Alvin Plantinga) ووليام ألسْتون (William P. Alston) وجون مافرودِس (George Mavrodes) ورالف ماكْلنيرني (Ralph McInerny).

علىٰ عكسِ المعاركِ المَشْهورة، لم تَشْهد هذه المناظرة أيَّةَ ألعابٍ ناريَّةٍ لأنَّ كلا الفريقين لم يرغب بجَذْبِ الانتباه لخَصْمِهِ. وكلا الفريقين تمسَّكَ برأيهِ بأنَّ مهمَّةَ تقديم الدَّليل تقعُ علىٰ عاتقِ الطَّرفِ الآخر. لقد أصرَرْتُ علىٰ أنَّ فرضيَّةَ الإلحاد مشتقَّةٌ من المبدأِ القانوني القديم القائل بأنَّ (تقديمَ الدَّليل هي مسؤوليَّةُ المُدَّعي، وليس مسؤوليَّة المنكر). أمَّا

---

(١) قصة تُصوِّر تبادل إطلاق النار بين أحد رعاة البقر الخارجين عن القانون وبين رجال الشرطة قرب زريبة خيول في الريف الأمريكي، وتمَّ إنتاج فيلم بنفس اسم هذه القصَّة.

علىٰ الطَّرفِ المُوحِّد، فإنَّ بلانتينغا أصرَّ علىٰ أنَّ الاعتقادَ بالإلهِ أمرٌ أساسيٌّ، وهو ما يعني أنَّ الموحِّدينَ ليسوا ملْزمينَ بتقديمِ الحُجَجِ علىٰ صحَّةِ ادِّعائِهم، كما أنَّهم ليسوا مُلْزمينَ فيها بتقديمِ حُجَجٍ لتأييدِ اعتقاداتٍ أساسيَّةٍ مثل وجود العالَم[1]. أمَّا من جانِبنا المُلْحِد، فإنَّ نلْسون اعتبرَ أنَّ فَلْسفةَ الدِّين مِلَّة، في حين اعتبر ماتسون أنَّ الحُجَجَ التَّقليديةَ علىٰ وجودِ الإلهِ معيبة، أمَّا كيرتز فادَّعىٰ أنَّه ليس من الممكنِ استنتاج وجود مُوحٍي مُقدَّس (إله) اعتماداً علىٰ الادِّعاءِ بوجودِ وحيٍ مُقدَّس.

بينما كُنْتُ في دالاس، قابلْتُ اثنين من فلاسفةِ المسيحيَّةِ الإنجيلية، تيري ميثي (Terry Miethe) وهو يعمَلُ في مركزِ دراسات أكسفورد، وغاري هيبرماس (Gary Habermas) من كليَّةِ لينتشبيرغ (Lynchburg) بولايةِ فرجينيا، واللَّذانِ أصبحا صديقاي منذُ ذلك الوقت. في السَّنواتِ التي تلت ذلك، نُشِرَت لي مناظرتين: مناظرةٌ عن قيامةِ المسيح مع هيبرماس، ومناظرةٌ عن وجودِ الإله مع ميثي.

من جهتي - في مناظرتي مع ميثي - أعدْتُ تأكيدَ مجموعةٍ من مواقفي التي طوَّرْتُها خلالَ سنواتٍ عن انسجام تصوُّر الإله وفرضيَّة الإلحاد[2]. أمَّا ميثي فقدَّمَ صياغةً عميقةً للحُجَّةِ الكونية المبنيَّة علىٰ

(١) لأنَّ بلانتينغا - كما مرَّ - يرىٰ أنَّ (الاعتقادات الأساسية) لا حاجة لتقديم الأدلَّة علىٰ صحَّتِها، مثل الاعتقاد بالعالَم الخارجي، وعقول الآخرين، والاعتقاد بوقوع أحداث ماضية اعتماداً علىٰ الذاكرة، كذلك هو الحال في الاعتقاد بالله، لأنَّه من نمط الاعتقادات الأساسية. ويوازي مصطلح (الاعتقادات الأساسية) عند بلانتينغا، مصطلح (التصديقات البديهية) في أدبياتنا. (المراجع).

(٢) يقصد (فلو) الانسجام بين تصوُّر الإله وعدم الإيمان به. فمن الممكن أنْ يحمِلَ الإنسانُ تصوُّراً عن الإله دون أنْ يؤمن به، لأنَّه يرىٰ أنَّ الأدلَّة علىٰ وجوده غير كافية.

المقدِّمات التالية:

بعضُ الكائناتِ المُتغيِّرة بنحوٍ محدود، موجودةٌ.

الوجودُ الحاضِرُ لكُلِّ كائنٍ متغيِّرٍ بنحوٍ محدود، ناتجٌ عن آخر.

لا يمكــن أنْ يكــون هنــاك تسلســلٌ (تراجــعٌ) لا نهــائي لأســبابِ الكائنــات، لأنَّ التَّسلســلَ اللَّانهــائي للكائنــاتِ المتناهيــة لــن يكــون (ســبباً) لوجودِ أيِّ شيء.

إذاً، يوجدُ سببٌ أوَّلٌ للوجودِ الحاضِرِ لهذه الكائنات.

السَّــببُ الأوَّلُ يجــب أنْ يكــون لا متناهيــاً، ضروريــاً، خالــداً، وواحداً.

السَّــببُ الأوَّلُ الــذي لا ســببَ لــه، متطــابقٌ مــع إلــهِ التَّقليــد اليهودي/ المسيحي[1].

هــذه الحُجَّــةُ لا تســتندُ إلىٰ مبــدأِ العلَّــةِ الكافيــة (sufficient reason)[2]

(المراجع).

(١) هــذه الحجَّـة يُقــالُ لهـا: (دليـل الحركـة والتغـيّر)، وهــو دليــلٌ مــوروثٌ مــن أُرســطو، حيــث ذكــر بــأنَّ المُحــرِّك الأوَّل يجب أنْ يكــون غــير متحــرِّك، وإلَّا وقــع محــذور الــدُّور أو التسلســل. فالتسلســل في العِلَــل مُحــال. ثــمَّ طــرح الفلاســفة المســلمون في مباحــث العلَّــة والمعلــول أدلَّــة كثيرة عــلىٰ امتنــاع الــدور والتسلســل، أنهاهــا صــدر الــدِّين الشِّــيرازي إلىٰ عشرة براهين. (المراجع).

للاطِّلاع علىٰ تفاصيل مهمَّـة تتعلَّـق بإثبـات اسـتحالة وامتنـاع التسلسـل مـن خـلال كلـمات الفــارابي وابــن ســينا والســهروردي والفخــر الــرازي ودبــيران الكــاتبي وعضــد الــدين الإيجــي وصــدر الــدين الشــيرازي، ومعرفــة البراهــين التــي أقاموهــا لإثبــات قاعــدة (التسلسـل محـال)، راجـع: القواعـد الفلسـفية العامَّـة في الفلسـفة الإسـلاميَّة للـدكتور غـلام حسين الديناني ١: ١٣٥ - ١٤٣/ ط ١/ ٢٠٠٧م/ دار الهادي/ بيروت. (المراجع).

(٢) العلَّة الكافية قضيَّة أو مجموعـة قضـايا معـروف أنَّهـا صـادقة، منهـا يمكـن اشـتقاق النتيجـة

الذي رفضْـتُهُ، وإنَّـما تستندُ إلىٰ مبـدأِ السَّـببيَّة الوجوديـة. لقـد رفضْـتُ هـذه الحُجَّة علىٰ أسـاسِ أنَّ الأسـبابَ الفاعلـةَ في الكـون تكـونُ فاعلـةً بـذاتِها دونَ الحاجة إلىٰ سببٍ فاعـلٍ أوَّل. مـع ذلـك، قُلْـتُ: إنَّـه (رغـمَ صـعوبة الاعتقـاد بالوجودِ المسـتمرِّ للكـونِ الفيزيـائي - وهـو مـا يحتـاجُ إلىٰ تفسـيرٍ خـارجي - فـإنَّ مـن السَّـهلِ اقنـاعَ العامَّـة بـأنَّ الانفجـارَ الكبـير يسـتلزمُ وجـودَ سـببٍ أوَّل)[1].

❋ ❋ ❋

منطقياً.

(١) يقصـد (فلـو) أنَّـه كـان يعتقـد أنَّ مهمَّـة المـؤمنين بالإلـه مـع عامَّـة النـاس سـهلة، لأنَّـه مـن السـهل إقنـاعهم بـأنَّ الانفجـار الكبـير يسـتلزم وجـود سـبب أوَّل، في حـين أنَّ مهمَّتـه كمُلْحد يـؤمن آنـذاك بـالوجودِ المسـتمرِّ لهـذا الكـون (لا بدايـة لـه)، هـي مهمَّـة صـعبة. لـذا سنرىٰ لاحقاً أنَّ فلـو غـيَّرَ رأيـه وصـار يـؤمن بالانفجـار الكبـير، الـذي دفعـه للتسـاؤل عـن سببه الأوَّل. (المراجع).

الاستمرارُ بسُرْعة

(HOLDING FAST)

في الوقـتِ الـذي كُنْـتُ أقـومُ فيـه بالتَّـدريسِ عـام (١٩٨٠م)، في جامعـةِ بولِنْـغ غـرين (Bowling Green) بولايـةِ أُوهـايو، كانـت لي منـاظرةٌ طويلـةٌ مـع ريتْشـارد سـوينْبيرن، وهـو كـما ذكـرْتُ سـابقاً خلَفَنـي في جامعـةِ كييل، وبعد ذلك أصبحَ أُستاذاً في أكسفورد.

سـوينْبيرن أصـبحَ أشـهرَ مُـدافعٍ عـن التَّوحيـدِ في الـدُّولِ الناطقـة بالإنكليزيـة. وقـد أشـادَ أحـدُ زملائـي السَّـابقين مـن التيَّـارِ الشـكِّي تِـرِنْس بيـنِلْهَم (Terence Penelhum) بكتـابِ سـوينْبيرن وهـو بعنـوان (اتِّسـاق التَّوحيـد The Coherence of Theism) بقولِـهِ: (أنـا لا أعـرفُ أيَّ دفـاعٍ ضـدَّ الفَلْسفة الشـكِّية المعـاصرة يمكـن مقارنتُـهُ بهـذا الكتـاب مـن حيـثُ النوعيـةِ والوضوح في الفِكْر).

أحـدُ التصـوُّرات التـي دافـعَ عنهـا سـوينْبيرن بقـوَّةٍ هـو تصـوُّر روح غـير مادِّيـة عالِمـة بكُـلِّ شيء، وهـو أحـدُ أهـمّ التصـوُّرات التـي تناولْتُهـا في كتـابِ (الله والفَلْسـفة). وكـما هـو الحـال في منـاظرتي مـع بلانتينْغـا، فـإنَّ منـاظرتي مـع سـوينْبيرن انتهـت إلى طريـقٍ مسـدود، حيـثُ تمسَّـكَ كلانـا بموقفِـهِ. لم أجـد أيَّ مُـبرِّرٍ لتصـوُّر روح غـير مادِّيـة، بينـما لم يجـد سـوينْبيرن مُـبرِّراً لأيِّ شـخصٍ في رفـضِ تلـك الفكـرة. حـواراتي مـع سـوينْبيرن لم تنْتَـهِ

إلىٰ هذا الحدِّ، كما سيتَّضِحُ لاحقاً في هذا الكتاب، بل استمرَّت إلىٰ اليوم. بالمناسبةِ، عندما انتشَرَ خبرُ تحوُّلي إلىٰ التَّوحيدِ علَّقَ بلانتينْغا علىٰ ذلكَ بالقول: (إنَّ هذا يدُلُّ علىٰ صِدْقِ وأمانةِ البروفيسور فلو. فهو بعد كلِّ هذه السِّنين من معارضةِ فكرةِ الخالِق، ها هو يُغيِّرُ موقِفَهُ استناداً إلىٰ الدَّليل).

تلَت المناظرة مع سوينْبيرن مناظرة أُخرىٰ مع وليام لين كريج (William Lane Craig) في عام (١٩٩٨م) في ميدسون بولايةِ ويسكنسون. وقد عُقِدَت المناظرةُ بمناسبةِ الذِّكرىٰ الخمسين لمناظرةِ الإذاعة البريطانية بي بي سي (BBC) الشَّهيرة بين برْتراند رَسِل وفريدْرِك كوبْلِسْتون (Frederick Copleston). جادَلَ كريج بأنَّ أصلَ الكون والنِّظامَ المعقَّد فيه يمكن تفسيرُهُ بأفضلِ نحوٍ بوجودِ إله. وقد قُمْتُ بالرَّدِّ عليه بأنَّ معرفتَنا عن الكونِ يجبُ أنْ تتوقَّفَ عند الانفجارِ الكبير، والذي ينبغي رؤيتُهُ علىٰ أنَّه الحقيقة النِّهائية (Ultimate fact). أمَّا ما يتعلَّق بحُجَّةِ التَّصميم، فأشرْتُ إلىٰ أنَّه حتَّىٰ أعظمَ الكائنات المُعقَّدة في الكون - البشر - هي نتاجُ قوىٰ فيزيائية وميكانيكية.

في هذه المناظرة، كرَّرْتُ موقفي بأنَّ الإلهَ الذي هو علىٰ كلِّ شيءٍ قدير، يمكنُ أنْ يجعَلَ البشَرَ يطيعونَهُ باختيارِهِم. وهذا يعني أنَّ الدِّفاعَ التَّقليدي عن الإرادةِ الحُرَّة لا يستطيع تجنُّب ما يترتَّب علىٰ ذلك من أنَّ الإلهَ قد حَدَّدَ مصيرَ جميع الأشياء، بما فيها الاختيارات الحُرَّة. كنْتُ أرفُضُ علىٰ الدَّوام الاعتقاد بفكرةِ المصير المُسْبق، والتي تنُصُّ علىٰ أنَّ

الإلـهَ حـتَّمَ الخطيئـة عـلىٰ معظَـم البشـر[١]. مـن خصـائصِ هـذه المنـاظرة، رَفْـضُ كـريج لأفكـارِ المصـيرِ المُسْبق التَّقليديـة ودفاعُـهُ عـن الإرادةِ الحـرَّة اللِّيبرالية. ذهـبَ كـريج إلىٰ أنَّ الإلـهَ يتـدخَّلُ مباشرةً في النتـائج (المسبَّبات)، ولا يتصرَّفُ كعاملٍ ثانوي، ولـذلك فقـد كـان مـن المستحيلِ أنْ يخلُـقَ الإلـهُ عالمَـاً مُكوَّنـاً مـن كائنـاتٍ حُـرَّةٍ تفعـلُ الأمـرَ الصَّـائب. واستشـهَدَ كـريج بنصوصٍ من الكتـابِ المقـدَّس تُؤكِّـدُ رغبـةَ الإلـهِ في أنْ (يظفَـرَ جميـعُ النـاسِ بالنَّجـاة (الخـلاص)) (مثـال: رسـالة بطـرس الثانيـة ٣: ٩)[٢]. حـديثاً وجـدْتُ أنَّ جـون ويسْـلي (John Wesley) - الـذي أعتـبرُهُ أحـدُ أعظـم أبنـاء بلـدي - قـادَ حملـةً ضـدَّ فكـرة المصـير المُسْـبق وتأييـداً للبـديلِ (الأرمنـي

---

(١) في ضـوء هـذا المنطـق، لا فـرق سـواءٌ قُمْنـا بالطاعـات أم بالمعـاصي، جئنـا بـأعمال حسـنة أم قبيحـة، لأنَّ كـلَّ شيء مقـدَّر مسبقاً! وهـي فكـرة رائجـة حتَّـىٰ في أذهـان بعـض المسـلمين، ومفادهـا: (رُفِعَـت الأقـلام وجفَّـت الصُّـحُف، فكـلُّ أعمالنـا مكتوبـة ومقـدَّرة، وبالتـالي إرادتنا الحرَّة لن تُغيِّر شيئاً من مصيرنا!).

هـؤلاء لم يسـتوعبوا الموقـف العميـق للإسـلام تجـاه القضـاء والقـدر. فالقضـاء فـيما يتعلَّـق بمصير البشـر - وفقـاً لمدرسـة أهـل البيـت عليهم السلام - عـلىٰ نحـوين: محتـوم وغـير محتـوم. إرادة الله في قضـائه المحتـوم، يتمثَّـل في أُمِّ الكتـاب. أمَّـا إرادة الله، في قضـائه غـير المحتـوم، فتتغـيَّر تبعـاً لتغـيُّر إرادة البشـر في اختيـاراتهم الحـرَّة. لـذا قـال تعـالىٰ: ﴿يَمْحُـوا اللهُ مـا يَشـاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتابِ ۝٣٩﴾ (الرعد: ٣٩). (المراجع).

(٢) وردَ في هـذا الموضـع مـن رسـالةِ بطـرُس الثانيـة (مـن العهـد الجديـد في الكتـابِ المقـدَّس): (لا يتباطأ الـربُّ عـن وعـدِهِ كـما يحسَـبُ قـومٌ التباطـؤ، لكنَّـه يتـأنَّىٰ علينـا، وهـو لا يشـاءُ أنْ يهلِكَ أُناسٌ، بل أنْ يُقبلَ الجميعُ إلىٰ التوبة).

وهـذا المعنـىٰ يُـذكِّرنا بـدعاء الإمـام زيـن العابـدين في (الصَّـحيفة السـجّادية) ليـوم الجمعـة والعيـد: «رزقُـكَ مبسـوطٌ لمـن عصـاكَ، وحلمُـكَ معـترضٌ لمـن نـاواك، عادتُـكَ الإحسـانُ إلىٰ المسـيئين، وسُـنَّتُكَ الإبقـاءُ عـلىٰ المعتـدين، حتَّـىٰ لقـد غـرَّتْهُم أناتُـكَ عـن الرُّجـوع، وصدَّهُم إمهالُكَ عن النُّزوع، وإنَّما تأنَّيتَ بهم ليفيئوا إلىٰ أمرِكَ». (المراجع).

(Arminian alternative)[(١)]، خصوصاً في ورقتِهِ البحثية العظيمة (إعادةُ النَّظَرِ بهدوء في المصيرِ المُسْبق). أتفهَّمُ أيضاً أنْ يتعاطىٰ الكثير من المفسِّرين اليوم مع كتاباتِ القدِّيس بولس (St. Paul) في فكرةِ المصير المُسْبق[(٢)] بوصفِها مرجعية لدورِ أفرادٍ محدَّدين في أعمالِ الكنيسة، وليس إلىٰ خلاصِهم أو هلاكِهم[(٣)].

* * *

---

(١) تعني عودة المسيح.

(٢) يقصد (فلو) رسالة بولس إلىٰ أهل أفسس (١: ٣ - ١٤)، رسالته إلىٰ أهل رومية (٨: ٢٨ - ٣٣)، رسالته الثانية إلىٰ تيموثاوس (٢: ١٠)، رسالته الثانية إلىٰ أهل تسالونيكي: ١٣...، كلُّ هذه المقاطع من رسائل بولس تُؤسِّس لفكرة المصير المُسْبق، وأنَّ الله قد حكم في قضائه القديم أنَّ بعضَ الناس (وهم مُحدَّدون) سيحظون بالخلاص والنعيم الأبدي، وبعضَهُم الآخر (وهم مُحدَّدون) سينتهي به المطاف إلىٰ الموت الأبدي. (المراجع).

(٣) بمعنىٰ أنَّ الكثيرَ من المُفسِّرين يُفسِّرون كلمات بولس في المصيرِ المُسْبق، بمعنىٰ أنَّ الله قد انتجبَ في قضائه القديم بعضَ الأشخاص، واصطفاهم لخدمةِ الكنيسة، ولا يُفسِّرونَ كلامه علىٰ أنَّ الله قد قضىٰ بشأنهم أنَّهم من أهل السعادة والخلاص، أو من أهل الشَّقاء والموت الأبدي. وعلىٰ هذا الأساس، فعلينا - وفقاً لفلو - أنْ لا نتزمَّت في فهم ظاهر كلمات بولس، لأنَّها يمكن أنْ تُفهَم بطريقةٍ لا تنتهي إلىٰ محذور المصير المُسْبق بشأن جميع البشر، كما يفعل الكثير من مُفسِّري كلمات بولس اليوم. (المراجع).

ظهوري الأوَّل في نيويورك
(MY NEW YORK DEBUT)

المناظرةُ العموميةُ الأخيرة لي، كانت في ندوةٍ في جامعةِ نيويورك، وتمَّتْ في مايو من عام (٢٠٠٤م). المشاركونَ الآخرون كانوا هم العالِمِ الاسرائيلي جيرالد شرويدر (Gerald Schroeder)[١]، مؤلِّف أفضـل الكُتُـب مبيعـاً في مجـالِ العِلْـمِ والدِّين، وهو بعنوان (عِلْمُ الإله The Science of God)، أيضـاً كـان مـن ضِـمْنِ المشاركين الفيلسوفُ الأسكتلندي جون هالدين (John Haldane)[٢]، الذي كان مشاركاً في مناظرةِ (التَّوحيد والإلحاد) حولَ وجـود الإلـه إلىٰ جانـبِ صـديقي جاك سمارت (Jack Smart)[٣].

وكمفاجـأةٍ لجميـعِ المهتمّـين، أعلنْـتُ في البدايـةِ أنَّنـي الآن بِـتُّ أقبـل

---

(١) فيزيائي وعالم نووي، مهتمٌّ بالتوفيق بين العلم والدين.

(٢) فيلسوف أسكتلندي، وُلِدَ سنة (١٩٥٤م)، وما زال علىٰ قيد الحياة.

(٣) فيلسوف أسترالي (١٩٢٠ - ٢٠١٢م)، متخصِّص في فلسفة الذهن، من أبـرز القـائلين بنظريـة الهويَّة (Identity Theory)، سُمِّيت كذلك لأنَّها ترىٰ أنَّ العقـل هـو الـدماغ وتسـوِّي بيـنهما، وأنَّ الحالات النفسية والعمليات العقليـة ليسـت إلَّا تغـيُّرات فسـيولوجية معيَّنـة تحـدُثُ في الجهـاز العصبي المركزي أو حتَّىٰ في الدماغ فقط، وليس العقـل أكثـر مـن ذلـك. هـذه النظريـة حديثـة العهد، إذ بدأت في أواخر الخمسينات من هذا القرن، لكن الـدعوىٰ قديمـة نـادىٰ بهـا فلاسـفة قدماء مثل دموقريطس ومحدَثون مثل هـوبز. ولعـلَّ الجديـد في النظريـة المعـاصرة أنَّ أصـحابها جعلوا أقوالهم متَّسقة مـع التطـوّرات العلميـة لعلـم وظـائف الأعضـاء، وأفـادوا مـن أخطـاء السلوكية وثغرات السيبرنطيقا وتجنَّبوها. (المراجع).

بوجودِ إله. ما اعتُبِرَ في وقتِهِ تبادُلاً حادّاً لوجهاتِ النَّظر المتعارضة أثناءَ المناظرة، انتهىٰ إلىٰ أنْ يُصبِحَ بحثاً مشتركاً في التطوُّراتِ العِلْمية الحديثة، التي يبدو أنَّها تشيرُ إلىٰ ذكاءٍ خارق. في الفيديو الذي عُرِضَ في الندوة، ادَّعىٰ عرِّيفُ الندوة أنَّ أعظَمَ اكتشافات العِلْم الحديث هو الإله.

وعندما سُئِلْتُ في هذه الندوةِ إنْ كان بحثي حولَ أصل الحياة يُشيرُ إلىٰ ذكاءٍ إبداعي، أجبْتُ بالقول:

(نعم، أنا الآن أعتقدُ بذلك... بشكلٍ كاملٍ تقريباً بسببِ اكتشافات الحمض النووي (DNA). ما قدَّمَهُ اكتشافُ الحمض النووي - كما اعتقد - هو أنَّه أوضَحَ التَّعقيدَ الشَّديد غير القابل للتَّصديق للترتيباتِ اللازمة لخَلْقِ (حياة)، وهو الأمرُ الذي يوجبُ أنْ يكون هناك ذكاءٌ خارقٌ يجعلُ هذه العناصر المختلفة تعملُ معاً. إنَّه التَّعقيدُ الخارقُ لهذه العناصر والدِّقَّةُ الهائلةُ في الطُّرُقِ التي تتفاعل فيما بينها. اجتماعُ هذينِ الأمرين (التَّعقيد والدِّقَّة) في الوقتِ المناسب بالصُّدفةِ أمرٌ - بكلِّ وضوح - مستحيلٌ. لا بدَّ من أنَّ الأمرَ يتعلَّقُ بتعقيدٍ هائلٍ أنتجَ ما وصلْنا إليه، وهو ما بدا لي أنَّه نتاجُ ذكاء).

هذا التَّصريحُ مثَّلَ تغيُّراً كبيراً بالنِّسبةِ لي، لكنَّه مع ذلك كان يتَّسِقُ مع المبدأِ الذي تبنَّيتُهُ منذُ بدايةِ مسيرتي الفَلْسفية في اتِّباعِ الحُجَّة حيثما قادتني.

لقد تأثَّرْتُ بشكلٍ خاصٍّ بالتَّفنيدِ المُفصَّل الذي قامَ به جيري شرويدر (Gerry Schroeder) لما أسميْتُهُ (مُبرْهنةُ القِرْد monkey theorem). هذه الفكرةُ، التي قُدِّمَت بطُرُقٍ مختلفة، تُدافِعُ عن احتمالِ حدوث الحياة بالصُّدفة، من خلالِ استخدام مثال قيام مجموعة من القِرَدة بالعبَثِ علىٰ

لوحـةِ مفـاتيح الكمبـويتر، ليُنْـتِجَ هـذا العبـث في النِّهايـةِ كتابـة قصـيدة السُّونيتة (sonnet) لشكسبير.

أشـارَ شرويـدر في البدايـةِ إلىٰ تجرُبـةٍ قـامَ بهـا المجلـسُ الـوطني البريطاني للفنـون. حيـثُ تـمَّ وضْـعُ كمبيـوتر في قفـصٍ بداخلِـهِ سـتَّةُ قُـرُود. وبعـد شـهرٍ مـن العبَـثِ بـالكمبيوتر (بالإضـافةِ لاسـتخدامِهِ كمرحـاض!) أنتجت القرودُ خمسينَ صـفحة مكتوبـة، لكـن دون كلمـة واحـدة تامَّـة. وقـد علَّقَ شرويدر بالقول: (**إنَّ هـذه كانـت هـي النتيجـة، بـالرَّغم مـن أنَّ الكلمـةَ باللُّغـةِ الإنجليزيـة يمكـن أنْ تتكـوَّنَ مـن حـرْفٍ واحـدٍ فقـط (a) أو (I). فالحرْفُ (A) يمكـنُ أنْ يُمثِّـلَ كلمـةً إذا كـان هنـاك مسـافة إمَّـا عـن يمينِـهِ أو يسـارِهِ. فـإذا أخـذنا بالاعتبـارِ أنَّ هنـاك ثلاثـينَ حَرْفـاً ورقـماً عـلىٰ لوحـةِ المفاتيح، فإنَّ احتمالَ الحصول عـلىٰ كلمـةٍ مُكوَّنـةٍ مـن حَـرْفٍ واحـد هـو (٣٠ × ٣٠ × ٣٠)، أي (٢٧, ٠٠٠). وعنـدها يكـونُ احـتمالُ الحصـول عـلىٰ كلمةٍ من حَرْفٍ واحدٍ هو أي (١: ٢٧, ٠٠٠)**).

بعد ذلك قامَ شرويـدر بتطبيـقِ قـوانين الاحـتمال عـلىٰ مثـالِ السُّـونيتة. وتساءَل: (**ما هي فُرْصَةُ الحصول علىٰ قصيدةِ السُّونيتة لشكسبير؟**).

وأكمـلَ قـائلاً: (**كـلُّ بيـتٍ مـن أبيـاتِ القصـيدة مُكـوَّنٌ مـن العـددِ نفسِهِ من الحـروف، والقصـيدةُ مُكوَّنـةٌ مـن (١٤) بيتـاً. وقـد اخـترْتُ البيـتَ الـذي يبـدأُ بجملـةِ: (Shall I compare thee to a summer's day?)، وقُمْـتُ بحسـابِ عـدد الحُـرُوف، فكـان عـدَدُها (٤٨٨) حَرْفـاً. مـا هـي احتماليـة أنْ تعبَـثَ القـرود عـلىٰ لوحـةِ المفـاتيح وتكتُـبُ (٤٨٨) حرفـاً لتظهَـر لـكَ هـذه الجملـة بتعاقُـبِ الأحـرُفِ نفسـها (أي تترتَّـب الــ (٤٨٨) حَرْفـاً بالتَّرتيـبِ نفسِـهِ الـذي نجِـدُهُ في البيـت)؟ النَّتيجـةُ هـي واحـدٌ مقسـومٌ عـلىٰ (٢٦)**

مضـــروبةٌ في نفسِــها (٤٨٨) مــرَّة. أو بكلمــةٍ أُخــرىٰ: هــي (26^{-488})، وهو ما يُعادِل (10^{-690}).

(الآن) عندما أحصىٰ العُلماءُ عـددَ الجُسـيماتِ في الكـون (الكترونـات، برتونات، ونيوترونات)، وجدوا أنَّها (10^{80})، أي واحـد وعـلىٰ يمينِـهِ (٨٠) صفراً. معنىٰ ذلك أنَّه ليس هناك جسيماتٌ تكفي لإجراءِ المحاولات، وسنحتاجُ إلىٰ المزيدِ من الجُسيماتِ بمقدار (10^{600}).

وإذا حوَّلنا مادَّةَ الكون كلَّها إلىٰ رقاقاتِ كمبيوتر (computer chips)، تزنُ كلٌّ منها جُزْءاً من المليون من الجرام، وافترَضْنا أنَّ كلَّ رقاقةٍ تسـتطيعُ أنْ تُجـري المحاولات، بدلاً من القِرَدة، بسُــرْعةِ مليـون محاولـة في الثانيـة، نجـدُ أنَّ عـددَ المحاولات التي تمَّت منذُ نشاة الكون هي (10^{90}) محاولة. أي إنَّكَ ستحتاجُ مرَّةً أُخرىٰ كوناً أكبر بمقدار (10^{600})! وهذا يعنـي أنَّـك لـن تحصـل أبـداً عـلىٰ السُّونيتة عن طريقِ الصُّدفة. فلا بدَّ أنْ يكون الكونُ أكـبر بمقـدارِ عشــرة أُسّ ستّمائة مرَّة. ومع ذلكَ ما زالَ البعضُ يتوهَّم أنَّ القِرَدةَ بمقدورِها فعلُ ذلك كـلَّ مرَّة)[١].

بعــد أنْ اســتمعتُ إلىٰ محـاضرةِ شرويــدر (Schroeder) قُلْــتُ لــه: إنَّــه توصَّــلَ بصــورةٍ مُرْضـيةٍ وحاسـمةٍ إلىٰ أنَّ (مُبرْهنـةَ القِـرْد) مـا هـي إلَّا كومـةٌ من القمامـة، وأنَّ اختيـارَ قصـيدة السُّـونيتة كمثـالٍ كـان مناسـباً، لأنَّ الـبعضَ يتـوهَّم أنَّ القِـرَدةَ بإمكانِهـا كتابـةُ روايـةٍ كاملـةٍ لشكسـبير، مثـل هامِلْـت أو عطيل، أو حتَّـىٰ أعـمال شكسـبير بأسْرِهـا. فـإذا كانـت (مُبرْهنـةُ القِـرْد) غـيرُ قـادرةٍ عـلىٰ الصُّــمودِ في قصـيدةٍ واحـدة، فمــن المؤكَّـد أنَّ مــن المسـتحيل

(١) Gerald Schroeder, "Has Science Discovered God?" http://science. lenicam.com.

القول بأنَّ عملاً رائعاً مثل أصل الحياة (أي نشأة حياة من مادَّةٍ غير حيَّة) حدَثَ بالصُّدفة.

* * *

مبارزة مع دوكينز
(DUELING WITH DAWKINS)

بالإضـافةِ إلىٰ منـاظراتي العامَّـة، اشـتركْتُ في مناقشـاتٍ جدليَّـةٍ كتابيَّـةٍ متعدِّدة. ومن الأمثلـةِ البـارزة علىٰ هـذه المناقشـاتِ، السِّـجال الـذي حصَـلَ مـع العـالِمِ ريتْشـارد دوكينـز (Richard Dawkins). فـرغمَ أنَّنـي كُنْـتُ مـن المُتـدِحينَ لأعمالِـهِ الإلحاديـة، إلَّا أنَّنـي كُنْـتُ مـن الناقـدينَ أيضـاً لجينِـهِ الأناني في مدرستِهِ الفكرية[1].

في كتابي (التطوُّر الدَّاروني)، أشرْتُ إلىٰ أنَّ الانتخـابَ الطَّبيعـي لا يُنْـتِجُ بنحوٍ إيجابي أيَّ شيء. وأنَّه فقط يتخلَّص (يُقْصـي)، أو يميل للتخلُّصِ، من كلِّ الأشياء غير القادرة علىٰ المنافسة. تحقُّق التنوُّع في الكونِ ليس بحاجةٍ لتنشيطِ أيِّ مَزِيَّة واقعية تنافُسية لتفادي الإقصاء؛ فمن الكافي أنْ لا تكونَ المزِيَّـةُ عِبْئـاً عـلىٰ حامِلِها وأنْ لا تُضعِف موقِفَهُ التَّنافُسـي. لتقديمِ شرحٍ مُيسَّـر، افترضـوا أنَّنـي أملِكُ أجنحةً لا فائدة منها تحتَ ملابسـي، لكن هـذه الأجنحـة مـن الضَّـعفِ بحيث لا تستطيع رَفْعي عن الأرض. ونظراً لكونِ الأجنحة ضعيفة، لذا هي لا تُمكِّنني من الهُرُوبِ من الحيواناتِ المفترسة، ولا تُمكِّنني من جَمْعِ الطَّعام. لكنَّها ما دامت لا تجعلني (أكثرَ) عُرْضة للحيواناتِ المفترسة، لذا من المرجَّحِ أنْ أبقىٰ حيَّاً

---

(١) يشير (فلو) إلىٰ كتاب دوكينز (The Selfish Gene/ ١٩٨٩م)، وقد تُرجِمَ الكتاب بعنوان: (الجينة الأنانية)، ترجمة تانيا ناجيا/ ٢٠٠٩م/ دار الساقي/ بيروت. (المراجع).

وأحتفظَ بها وأُورِّثُها إلىٰ أحفادي. خطأ داروين كان يكمُـنُ في المبالغـةِ في تقـديرِ حُجَّتِهِ، حيثُ قال: إنَّ الانتخابَ الطَّبيعي يُنْتِجُ شيئاً مـا، والمبالغـةُ تـأتي بسـببِ توظيفه لتعبيرِ (الانتخاب الطَّبيعي) أو (البقاء للأصْلح) بدلاً من تعبيرِهِ المُفضَّل في نهايةِ مقالتِهِ (الحماية الطَّبيعية natural preservation).

لقد ذهبتُ للإشارةِ إلىٰ أنَّ كتابَ دوكينز (الجين الأناني) كان تدريباً رئيسياً علىٰ ممارسةِ التَّضليل الشَّعبي. كفيلسوفٍ مُلْحِـد، اعتـبرْتُ أنَّ هـذا النـوعَ مـن العمَلِ الشَّعبوي مُدمِّرٌ بحدِّ ذاتِهِ إمَّا (كقِرْدٍ عارٍ) أو (كحديقةِ حيـوانٍ بشـرية) اللَّذينِ كتبَهُما ديسموند موريس (Desmond Morris). قـدَّمَ مـوريس في أعمالِـهِ، كنتيجةٍ لأبحاثِهِ الحيوانية، قَدْراً إضافياً من الإنكارِ المُـنظَّم لفكـرةِ أنَّ المُكوِّنـات المُميِّزة لنا تبدو كظاهرةٍ بيولوجيـة. لكنَّـه تجاهـلَ الاختلافـات الواضـحة بـين الكائناتِ البشرية وبقيَّةِ الأنواع.

مـن ناحيـةٍ أُخـرىٰ، اجتهـدَ دوكينـز في التَّقليـلِ والانتقـاصِ مـن ثمـرةِ أكثر من خمسينَ عامـاً مـن الأبحـاثِ في مجـالِ الجينـات، التـي توصَّـلَتْ إلىٰ أنَّ قَسْماً كبـيراً مـن الصِّـفاتِ الظَّـاهرة للكائنـاتِ الحيَّـة تتكيَّـفُ نتيجـةً للتَّفاعُـلِ الـدَّاخلي فـيما بـين مجموعـةٍ مـن الجينـات، في حـين أنَّ معظـمَ الجينـات لهـا تـأثيراتٌ متعـدِّدةٌ عـلىٰ هـذه الصِّـفات. بالنِّسبةِ لـدوكينز، الأمـرُ الأسـاسي الذي يُنْتِجُ السُّـلُوكَ البشـري يعـودُ إلىٰ خصـائص الجينـات التـي يمكـن أنْ تُعزىٰ إلىٰ الأشـخاص. وبالتـالي، بعـد أنْ أصرَّ عـلىٰ أنَّنـا جميعـاً مخلوقـاتٌ غـير مختارة نتيجةً لنوْعِ جيناتِنـا، اسـتنتَجَ أنَّ كـلَّ مـا نسـتطيعُ فعلُـهُ هـو أنْ نتقاسَـمَ صفاتَنا غير المُحبَّبَة مع الكائناتِ أحاديَّة الخليَّة.

الجينـاتُ، بـالطَّبعِ، لا يمكـن أنْ تكـونَ أنانيـةً ولا غـير أنانيـة أكثـرَ ممَّـا هـو حـالُ بقيَّـة الكائنـات غـير الواعيـة المنخرطـة في المنافسـةِ أو الاختيـار.

(الانتخابُ الطَّبيعي المتداول، ليس انتخاباً، بل هو بنحوٍ ما حقيقةٌ منطقيةٌ غير مألوفة، تحتَ المستوىٰ البشري، فالصِّراعُ من أجلِ الوجود ليس (تنافُسيَّاً) بالمعنىٰ الحقيقي للكلمة). ولكن ذلك لم يمنع دوكينز من الادِّعاء بأنَّ كتابَهُ (ليس كتاباً في قصصِ الخيال العِلْمي؛ إنَّه عِلْمٌ ... نحنُ آلاتٌ قادرةٌ علىٰ البقاء، روبوتاتٌ مبرمجةٌ بشكلٍ أعمىٰ للحفاظِ علىٰ مُكوِّناتٍ أنانيةٍ تُعرَف كجينات)[1]. ورغمَ أنَّ دوكينز أنكرَ ذلك بعضَ المرَّات، إلَّا أنَّه يُحذِّرُ في كتابِهِ من أخذِ كلامِهِ بصُورةٍ حرفية. وأضافَ بشكلٍ مثيرٍ بأنَّ (حُجَّةَ الكتاب أنَّنا، وكلّ الحيوانات الأُخرىٰ، مجرَّد آلات صُنِعَت بواسطةِ جيناتِنا).

إنْ كان ثمَّة صحَّة لهذا الكلام، فلا حاجةَ للاستمرارِ في النِّقاش، كما فعلَ دوكينز بالتَّبشيرِ بقولِهِ: (دعونا نتعلَّم الكرَمَ والإيثارَ لأنَّنا وُلِدْنا كأنانيِّين). لا بلاغة بمقدورها تحريكُ روبوتات مبرمجة. لكن في الحقِيقة، ليس فيما ذكر شيءٌ من الصَّحة. فالجيناتُ، كما نُشاهد، لا تجعَل ولا يمكن أنْ تجعل أعمالَنا حَتْميَّة. ولا هي قادرة علىٰ حسابِ واستيعابِ متطلَّبات التصرُّف بأنانيةٍ أو برحمةٍ مضحِّية.

اعتزلَ بيبي روث كرةَ البيسبول في عمرِ الأربعين. وأنا الآن لي ضِعْفُ عمُرِهِ، في الثَّمانين من عمري. ورغمَ أنَّني غيَّرتُ موقفي المتعلِّق بوجودِ إله، إلَّا أنَّني آملُ أنْ يكون دفاعي عن الإلحادِ ومناظراتي مع المُوحِّدين والآخرين قد أوضحا اهتمامي الدَّائم بالأسئلةِ اللَّاهوتية واستعدادي لمواصلةِ البحث عن إجاباتٍ مُتعدِّدة. ليقُلْ المُحلِّلون

(١) Richard Dawkins, The Selfish Gene (New York: Oxford University Press, ١٩٧٦), x.

والأطبَّاء النَّفْسيُّون ما يشاؤون، ولكن الحماسة التي في داخلي سوف تظلُّ كما كانت، تَسْعىٰ دوماً إلىٰ الحُجَج السَّليمة والاستنتاجاتِ الصَّادقة.

آملُ أنْ ألعبَ دوراً وأُؤدِّي مهمَّتي بالقَدْرِ نفسِهِ من الشَّغَفِ والمبدئية، التي أنا عليها دوماً، في القِسْمِ القادمِ من الكتاب، حيثُ سأعرِضُ لموقفي الحالي والأدلَّة التي قادتني للتمسُّكِ به.

* * *

القسم الثاني:

اكتشافي للمقدّس

الفصل الرابع:

حَجُّ العَقْل

PILGRIMAGE OF REASON

لنبدأ بحكايةٍ رمزية. تخيَّل أنَّ هاتفاً محمولاً مرتبطاً بقمرٍ صناعي، سَقَطَ علىٰ ساحلِ جزيرةٍ نائية، تَسْكُنُها قبيلة لم يكن لها أيَّ اتِّصالٍ مع الحضارةِ الحديثة. بدأ السُّكَّانُ الأصليُّونَ بالعبَثِ بالأزرارِ الموجودة علىٰ سَطْحِ الهاتف، فسمعوا أصواتاً مختلفةً عند الضَّغطِ علىٰ تَسَلْسُلٍ معيَّنٍ للأرقام[1]. افترضوا في البدايةِ أنَّ الهاتفَ المحمول هو من يُصْدِرُ هذه الأصوات. بعضُ السُّكَّان الأصليِّين الأذكياء، ولنَقُل عُلماءُ هذه القبيلة، أعادوا الضَّغْطَ علىٰ تَسَلْسُلِ الأرقامِ نفسِه. وسمعوا الصَّوتَ نفسَهُ. الاستنتاجُ بدا واضحاً بالنِّسبةِ لهم. فهذا المُرَكَّبُ المُكوَّنُ من بلُّوراتٍ ومعادن ومواد كيمائية يُصْدِرُ صوتاً يُشْبِهُ صوتَ الإنسان، وهذا يعني بوضوح أنَّ هذه الأصواتَ هي من خصائصِ الهاتف المحمول.

استَدْعىٰ حكيمُ القبيلةِ عُلماءَها لمناقشةِ الأمر. أخبرَهُم أنَّه قد فكَّرَ كثيراً فيما نقلوهُ إليه من أخبار، وتوصَّلَ إلىٰ النَّتيجةِ التالية: إنَّ الأصواتَ التي تَصْدُرُ من الجهازِ يجب أنْ تكونَ صادرةً من بَشَرٍ مثلُهُم، يعيشونَ في مكانٍ ما ويتمتَّعونَ بالوعي، لكنَّهم يتكلَّمونَ بلُغةٍ مختلفة. وبدلاً من افتراضِ أنَّ الأصواتَ صادرةٌ من سمَّاعةِ الهاتف المحمول، طالبَ الحكيمُ العُلماءَ ببَذْلِ الجهد من أجلِ استكشاف إمكانية أنَّهم ومن خلالِ شبكةِ اتِّصالاتٍ غامضة هم الآن علىٰ (اتِّصالٍ) مع أُناسٍ آخرينَ. وربَّما

---

(١) يقصد (فلو) أنَّهم اتَّصلوا دون قصد علىٰ إنسانٍ معيَّن، بدأ يتحدَّث معهم ويطلقُ أصواتاً. (المراجع).

من خلالِ متابعة هذا الأمر بدراساتٍ إضافية، قد يتمكَّنونَ من الوصولِ إلىٰ فهمٍ أكبر للعالَمِ الذي يتجاوز جزيرتَهُم. ولكن علماءُ القبيلةِ ضحكوا أمامَ حكيم القبيلة قائلين: (انْظُر، إذا كسَرْنا هذه الأداة فإنَّ الأصواتَ ستختفي. وهذا يعني بوضوح أنَّ هذه الأصواتَ ليست سوىٰ أصوات صادرة من خليطٍ من اللِّيثيوم وشريحة طباعة أرقام وصمَّامات ثنائية باعثة للضَّوء).

في هذه الحكايةِ الرَّمزية، رأينا كيف أنَّ النَّظريات المُسْبقة تُشكِّلُ الطَّريقةَ التي نرىٰ بها الدَّليل، بدلاً من أنْ ندَعَ الدَّليلَ يُشكِّلُ نظرياتَنا. عندها يمكنُ تجنُّب القفزة الكوبرنكية (نِسْبةً إلىٰ كوبرنيكوس Nicolaus Copernicus)[1]، من خلال الآلاف من أفلاكِ التدوير البَّطْلميَّة. (المُدافعونَ عن نظريةِ بَطْليموس القائلة بأنَّ الأرضَ هي مركزُ الكون، يقاومون نموذج كوبرنيكوس الشَّمسي، من خلالِ استخدام تصوُّر أفلاك التدوير، لتفسيرِ طريقة ملاحظة حركة الكواكب التي تتعارض مع نموذَجِهم).

وهنا، كما يبدو لي، تكمُنُ الخطورةُ، والشَّرُّ المُسْتشري، في الإلحادِ الجزمي. تأمَّل في كلامٍ من قبيل: (علينا أنْ لا نطْلُبَ تفسيراً للكيفيةِ التي وُجِدَ بها العالَمَ؛ إنَّه موجودٌ وكفىٰ)، أو (بما أنَّنا لا نستطيعُ القبولَ بمصدرٍ متعالٍ للحياة، فإنَّنا نختارُ الإيمانَ بالاستحالةِ: بأنَّ الحياةَ انبثقت فجأةً بطريقِ المصادفة من المادَّة)، أو أنَّ (القوانينَ الفيزيائية هي (قوانينُ اللَّاقوانين) التي ظهرت من النِّهايةِ الفارغة للنِّقاش). في البدايةِ قد تبدو هذه العبارات كحُجَجٍ عقلانيةٍ لها سُلْطة خاصَّة. لكن بالطَّبع، هذا ليس

---

(١) نيكولاس كوبرنيكوس أوَّل من صاغ نظرية مركزية الشمس، وكون الأرض جرماً يدور في فلكها، في كتابه (في ثورات الأجواء السماوية).

أكثر من أنْ تكون إشارة إلىٰ أنَّ هذه العبارات إمَّا عقلانية أو حُجَج(١).

الآن، كي نُقدِّم حُجَّة عقلانية بأنَّ كذا هو كذا، من الضَّروري أنْ نُقدِّمَ مُبرِّرات تدعَمُ ذلك. لكن لنفترض أنَّنا شَكَكْنا بكلام أحدِهِم لوجودِ ثغرةٍ في كلامِهِ، أو لنكُن أكثرَ تطرُّفاً ونقول: إنَّا شَكَكْنا بأنَّ كلَّ ما قالُوهُ لا قيمةَ له أصلاً، فمِنْ طُرُقِ فهم ما يقصد هؤلاء، هو محاولةُ البحث عن دليلٍ يُقدِّمونَهُ، إنْ كان ثمَّة دليلٍ، يدْعَم ما يدَّعون.

لأنَّ الكلامَ إنْ كان في الحقيقةِ عقلانياً وحُجَّةً، فلا بدَّ من تقديم مُبرِّرات تِقِفُ لصالحِهِ تُسْتقىٰ من العِلْم أو الفَلْسفة. وأيُّ شيءٍ يمكن أنْ يُحسَبَ داحضاً لهذا الكلام، أو يمكن أنْ يُقنِعَ المُتحدِّثَ ليسْحَبَ كلامَهَ ويتراجَعَ عنه ويعترفَ بأنَّه كان مخطئاً، يجبُ أنْ يُوضَعَ في الحُسْبان. لكن إنْ لم تكن هناك مُبرِّرات أو أدِلَّة مطروحة تدْعَمُ الكلام، فإنَّه ليس هناك ما يَدْعونا للقولِ بأنَّ هذا الكلامَ حُجَّةٌ عقلانية(٢).

عندما قالَ حكيمُ القبيلةِ للعُلماء بأنَّ عليهم أنْ يستكشفوا جميعَ أبعاد الدَّليل، فإنَّه كان يعني أنَّ الفَشَلَ في استكشافِ ما يُعتبرُ لأوَّلِ وهلةً معقولاً ومقبولاً يُعيقُ إمكانيةَ الظَّفر بفهمٍ أفضَلَ للعالَمِ الذي يتجاوزُ

(١) أي هذه العبارات إمَّا أنْ تكون عقلانيةً، لكنَّها ليست بحُجَج. أو تكون حُجَجاً، لكن ليست عقلانية. وحتَّىٰ تجتمع لها صفة العقلانية وكونها حُجَجاً، فلا بدَّ أنْ تستوفي شروطاً خاصَّة. (المراجع).

(٢) يقصد (فلو) أنَّ الحُجَّة حتَّىٰ تكون عقلانية لا بدَّ أنْ تكون مستندة إلىٰ مُبرِّرات موضوعية، ومعطيات، تدعم النتيجة التي تدَّعيها تلك الحُجَّة. ولا بدَّ أنْ يوضع في الحسبان، ليست فقط المعطيات الدَّاعمة، بل أيضاً المعطيات الدَّاحضة للحُجَّة. أمَّا إنْ كانت الحُجَّة تفتقدُ لُمبرِّراتٍ موضوعية، ومعطياتٍ تدعمُ النتيجة، فلا يمكن اعتبار هذه الحُجَّة عقلانية. (المراجع).

الجزيرةَ التي تَسْكُنها القبيلة.

الآن، غالباً ما يبدو للناسِ غير المُلْحدين كما لو لم يكن لديهِم دليلٌ يمكن تصوُّرهُ يكونُ مقبولاً عند أصحابِ التَّفكير العِلْمي الجَزْمي الإلحادي حتَّىٰ يكونَ سبباً كافياً للقول: (قد يكونُ هناك إلهٌ في نهايةِ المطاف). ولذا فأنا أسأَلُ زميلي السَّابق المُلْحد السُّؤالَ المَرْكزي الواضح: (ماذا تتوقَّع أنْ يحدُثَ أو ما الذي يجب أنْ يحدُثَ لكي يكونَ مُبرِّراً بحدِّهِ الأدنىٰ لأخذِ وجود عقل خارق في الحُسْبان؟)[1].

❊ ❊ ❊

---

(١) بعبارةٍ أُخرىٰ: السُّؤال الذي ينبغي أنْ يُوجَّه للمُلْحِد: ما المطلوبُ حتَّىٰ تأخُذَ فرضية وجود إله علىٰ محمَلِ الجدِّ؟ (المراجع).

وضْعُ الأوراق على الطَّاولة

(LAYING THE CARDS ON THE TABLE)

سأتْرُكُ الحكايـةَ الرَّمزيـةَ جانبـاً، فقـد حـان الوقـتُ كـي أُلقـي أوراقـي علىٰ الطَّاولـة، وأعـرِضُ أفكـاري والمُـبرِّرات التـي تَـدْعَمُ ذلـك. أنـا الآن أُؤمِنُ بـأنَّ الكـونَ قـد جـاء إلىٰ الوجـودِ بواسـطةِ ذكـاءٍ لا محـدود. أنـا أُؤمِـنُ بأنَّ قوانينَ الكونِ المُعقَّـدة تُبـيِّنُ مـا أسْـماهُ العلـماء (عَقْـلُ الله). أنـا أُؤمِـنُ بـأنَّ الحياةَ وإعادةَ الخَلْقِ أساسُها مصدْرٌ إلهي.

لمـاذا أُؤمِـنُ بـذلك، مـع الأخـذِ بالاعتبـار أنِّي دافَعْـتُ عـن الإلحـادِ لأكثـرَ مـن نصْـفِ قَـرْن؟ الجـوابُ المختصـر هـو هـذا: هـذه هـي صـورةُ العالَمِ، كما أراها، التي انبثقت مـن العِلْـمِ الحـديث. العِلْـمُ سـلَّطَ الضَّـوءَ عـلىٰ ثلاثةِ أبعادٍ للطَّبيعة تُشيرُ إلىٰ الإله:

الأوَّلُ هو حقيقةُ أنَّ الطَّبيعةَ تخضَعُ لقوانين.

الثاني هو بُعْـدُ الحيـاة، في الكائنـاتِ الذَّكيـة المُنظَّمـة والمسـوقة بغايـاتٍ، والتي نتجَت عن المادَّة.

الثالثُ هو الوجودُ الفعلي للطَّبيعة.

ولكن ليسَ العِلْـمُ فقـط هـو مـن قـادني إلىٰ ذلـك. أنـا اسـتفَدْتُ أيضـاً من الدِّراسةِ المُسْتحدثة للحُجَجِ الفَلْسفيةِ التقليدية.

إنَّ تَرْكـي للإلحـادِ لم يكـن بسـببِ أيِّ ظـاهرةٍ أو حُجَّـةٍ جديـدة.

فخـلال العقـدين الماضـيين، كـان إطـاري الفكـري ككُـلٍّ في حالـةِ تبـدُّل. وهـذا كـان نتيجـةَ تقييمـي المُتواصِـل لأدِلَّـة الطَّبيعـة. وعنـدما وصـلْتُ في النِّهايـةِ إلىٰ الإيـمانِ بوجـودِ إلـه، لم يكـن ذلـك تبـدُّلاً للنَّمـوذجِ الإرْشـادي (Paradigm Shift)، لأنَّ نمـوذجي الإرْشـادي مـا زالَ باقيـاً عـلىٰ حالِـهِ، وهـو كما قال أفلاطون في كتابِـهِ (الجمهوريـة) عـلىٰ لسـانِ سـقراط: (يجـبُ أنْ نتَّبِـعَ الدَّليل أينما قادَنا).

قـد تسـأل: كيـف أنَّنـي، كفيلسـوف، أتحـدَّثُ في موضـوعاتٍ عالجَهـا العُلماء[1]؟ إنَّ أفضلَ جوابٍ عـلىٰ هـذا السُّـؤال هـو بطَـرْحِ سـؤالٍ آخـر: هـل نحـنُ الآن منخرطـون في العِلْـم أم بالفَلْسـفة؟ عنـدما تـدرُس التَّفاعُـل الدَّاخلي المُتبادل بـين جِسْـمينِ مـادِّيَّيْن، ولنقُـل عـلىٰ سـبيلِ المثـال، اثنـين مـن الجُسَيْمات دون الذرِّية، فأنـتَ منخـرطٌ بـالعِلْم. وعنـدما تسـأل: كيـف ولمـاذا توجد هـذه الجُسَـيْمات - أو (أيّ) جِسْـم مـادِّي - فأنـتَ منخـرطٌ بالفَلْسـفة. وعنـدما تسـتنتجُ نتـائجَ فَلْسـفية مـن معطيـاتٍ عِلْميَّـةٍ، فأنـتَ تُفكِّـرُ كفيلسوف.

* * *

(١) من الواضح أنَّ (فلو) يتحدَّث عن العلماء في الحقول التجريبية. (المراجع).

التَّفكير كفيلسوف

(THINKING AS A PHILOSOPHER)

إذن دعونا نُطبِّق هذه النَّظْرة هنا. في عام (٢٠٠٤م) قُلْتُ: إنَّ أصْلَ الحياة لا يمكن تفسيرُهُ إذا انطلَقْتَ من المادَّةِ فقط. ردَّ المنتقدون بروحِ المنتصر قائلين بأنَّني لم أقرأ قطُّ مقالاً في مجلَّةٍ عِلْميَّةٍ ولا تابعْتُ التطوُّرات العِلْمية الحديثة المتعلِّقة بالتولُّدِ التلقائي (التولُّد الذَّاتي للحياةِ من كائناتٍ غير حيَّة). هُمْ بهذا النَّقْد لم يفهموا الهدف الرَّئيسي من كلامي. فاهتمامي لم يكن مُنْصبَّاً علىٰ هذه الحقيقةِ أو تلك في الكيمياء أو عِلْم الجينات، بل كان اهتمامي مُنْصبَّاً علىٰ السُّؤالِ الرَّئيسي عن معنىٰ أنْ يكون شيءٌ ما حيَّاً[(١)]، وما علاقةُ ذلك بالحقائقِ الكيميائية والجينية ككلٍّ؟ أنْ تُفكِّرَ علىٰ هذا المستوىٰ، فهذا يعني أنَّك تُفكِّر كفيلسوف. وحتَّىٰ لا أبدو متواضعاً أكثر من اللازم، يجب أنْ أقولَ: إنَّ هذا هو عمَلُ الفلاسفة وليس عمَلُ العُلماء كعُلماء. التخصُّصُ الدَّقيق للعُلماءِ لا يُعطيهم أيَّةَ ميزةٍ عند مناقشةِ هذا السُّؤال، كما أنَّ لاعبَ البيسبول ليس من شأنِهِ أنْ يُحدِّدَ أيَّ نوعٍ من معاجينِ الأسنان أفضل.

بالطَّبْع، للعُلماءِ وللفلاسفة، ولأيِّ شخصٍ الحُرِّية الكاملة في أنْ

---

(١) أي متىٰ يكون الشَّيءُ حيَّاً؟ بعبارةٍ أُخرىٰ: ما هي معايير التي علىٰ أساسها نحكم علىٰ كائنٍ ما بأنَّه حيٌّ أو غيرُ حيٍّ. (المراجع).

يقولَ ما يُريـد. وبالتأكيـد لـن يتَّفِـقَ جميـعُ العُلـماء معـي في تفسـيري الخـاصّ للحقـائقِ التـي يتوصَّـلُونَ إليهـا. لكـن اخـتلافُهُم معـي يجـب أنْ يقـومَ عـلىٰ قـدَميْنِ فَلْسـفيَّتين. وبعبـارةٍ أُخـرىٰ: إذا انخـرَطَ العُلـماءُ في تحليـلٍ فَلْسـفي، فلا سُلْطَتُهم ولا خِـبْرَتُهُم بوصْـفِهِم علـماء، ذاتُ صِـلْة. هـذا لا بـدَّ أنْ يكـون ذلــك واضــحاً. عنــدما يعرضــون رأيَهُــم في اقتصــاد العِلْــم، مثــل تقــديم ادِّعــاءات حــول عــدد الوظــائف التــي يُوفِّرُهــا العِلْــمُ والتكنولوجيــا، فــإنَّ علـيهم أنْ يُقـدِّموا تحليلَهُم في إطـارِ التَّحليـل الاقتصـادي. وكـذلك العُلـماء الذين يتحـدَّثونَ كفلاسـفة، علـيهم أنْ يطرحـوا رأيَهُـم في الإطـارِ الفَلْسـفي. وكـما قـالَ ألْـبِرْت آينشْـتين (Albert Einstein): (رجُـلُ العِلْـمِ هـو فيلسـوفٌ ضعيف)[١].

لحُسْـنِ الحـظِّ، الأمـرُ لـيس كـذلك دائـماً. فقـادةُ العِلْـم خـلال مئـات السِّنين الأخيرة، بالإضـافةِ إلىٰ بعـضِ العُلـماء المعـاصرين الأكثـر تـأثيراً، بنـوا رؤيـةً فَلْسـفيةً لكـونٍ عقـلانيٍّ انبثَـقَ مـن عقـلٍ إلهـي. وكـذلك الحـالُ معـي، فهذه هـي رُؤيتـي الخاصَّـة عـن العـالَم، التـي أَجِـدُها الآن قائمـةً عـلىٰ تفسـيرٍ فَلْسفيٍّ للعديـدِ مـن الظَّـواهرِ التـي واجَهَـا العُلـماءُ والنـاسُ العـاديُّونَ عـلىٰ حدٍّ سواء.

ثلاثةُ أبعادٍ مـن التَّحقيـقِ العِلْمـي كانـت عـلىٰ وجـهِ الخصـوص مهمَّـةً بالنِّسـبةِ لي، سأضَـعُها في الحُسْـبانِ كلَّـما تقـدَّمْتُ في هـذا الكتـاب في ضـوءِ الأدلَّة المتداولة اليوم:

أوَّلُ هـذه الأبعـاد هـو السُّـؤالُ الـذي حـيَّرَ ولا زالَ يُحـيِّرُ الكثـيرَ مـن

---

(١) Albert Einstein, Out of My Later Years (New York: Philosophical Library, ١٩٥٠), ٥٨.

العُلماءِ اللَّامعين، وهو من أينَ جاءت قوانينُ الطَّبيعة؟

والثاني هو السُّؤالُ الواضحُ للجميع: كيف جاءت الحياةُ كظواهر عضوية من اللَّاحياة؟

والثالثُ هو السُّؤالُ الذي يُوجِّهُهُ الفلاسفةُ لعُلماءِ الكون: كيف جاءَ الكونُ - بكُلِّ ما يحتويهِ من أشياء مادِّية - إلىٰ الوجود؟

* * *

عودةُ الحكمة

(A RECOVERY OF WISDOM)

بنـاءً عـلىٰ مـوقفي الجديـد مـن نقـاشِ الفَلْسـفة التقليديـة فـيما يتعلَّـق بوجودِ إله، فإنَّ أكثرَ مـا أقنعنـي في هـذا الحقـلِ هـو حُجَّـةُ الفيلسـوف ديفيـد كونـوي (David Conway)[1] المؤيِّـدة لوجـودِ إلـهٍ في كتابِـهِ (عـودةُ الحكمـة: مـن هنـا إلىٰ البحـثِ عـن الحكمـة The Recovery of Wisdom: From Here to Antiquity in Quest of Sophia). كونـوي فيلسـوفٌ بريطـانيٌ مميَّـزٌ في جامعـةِ ميدِلْسـيكس (Middlesex)، وهـو معـروفٌ بالخصـوص في مجـالَي الفَلْسـفة التَّقليدية والحديثة معاً.

الإلهُ الذي دافَعَ كونوي عـن وجـودِهِ، وأنـا كـذلك، هـو إلـهُ أُرسـطو، فقد كتَبَ كونوي قائلاً:

(خلاصـةُ القـول: إنَّ أُرسـطو قـد حـدَّدَ الصِّـفاتَ التاليـة للكـائنِ الذي يُفسِّـرُ وجودَ العـالَمِ بمعنـاهُ الواسـع: الثَّبـات (غـير متحـرِّك)، التَّجريـد (غـيرُ مـادِّي)، القُـدْرة عـلىٰ كـلِّ شيء، العِلْـمُ بكُـلِّ شيء، الوحدانيـة، غـيرُ قابـلٍ للتجزئـة (البسـاطة)، الخيرُ المُطْلَـق، ووجـوب الوجـود. هنـاك تشـابُهٌ عجيـبٌ بـين هـذا الصِّـفات وتلـك الصِّـفات التـي ذُكِـرَت للإلـهِ في التَّقليـدِ

---

(١) فيلسوف إنجليزي، وُلِدَ سنة (١٩٤٧م)، وما زال علىٰ قيد الحياة.

اليهودي/ المسيحي[١]. وهذا ما يُبرِّر تماماً قولَنا بأنَّ أُرسطو كان في ذهنِهِ الكائن المقدَّس نفسه كمُسبِّبٍ للعالَم، وهو الإلهُ نفسُهُ المعبودُ في كلا الدِّيانتين)[٢].

في كتابِهِ، حاولَ كونوي أنْ يُدافِعَ عما وصَفَهُ بـ (التصوُّر التقليدي للفَلْسفة). وهذا التصوُّر يرىٰ أنَّ تفسيرَ (وجود العالَمِ ينبَثِقُ من أنَّ الإلهَ كُلِّيُّ القُدْرةِ وكُلِّيُّ العِلْمِ لكي توجد ويستمرّ وجود الكائنات العاقلة)[٣]. خلَقَ الإلهُ الكونَ من أجلِ أنْ يخلُقَ الكائنات العاقلة. يعتقدُ كونوي، وأنا أُشارِكُهُ في ذلك، أنَّه من الممكن معرفة وجود وطبيعة هذا الإله الأُرسطي عن طريقِ المُمارسة (المِران علىٰ التأمُّل الذِّهني) دون الحاجة إلىٰ استدلال بشري.

لا بدَّ أنْ أُؤكِّدَ علىٰ أنَّ اكتشافي للأُلوهيَّةِ مبنيٌّ علىٰ أساسٍ طبيعيٍّ صِرْف، دون الرُّجوع إلىٰ أيَّةِ ظواهر تتجاوزُ الطَّبيعة (خارقة). لقد كان اكتشافي للإلهِ عبارةٌ عن ممارسةِ ما يُسمَّىٰ تقليدياً بـ (اللَّاهوت الطَّبيعي). وليس له صِلَة بأيِّ نوعٍ من أنواعِ الوحي الدِّيني. ولا أدَّعي أنَّه حصلت لي أيَّة تجربة شخصيَّة مع الإله، أو أيَّة تجربة يمكن اعتبارُها إعجازية أو تتجاوز الطَّبيعة. باختصار، اكتشافي للأُلوهيَّةِ كان عبارةً عن رحلةِ عَقْل وليست رحلة إيمان.

* * *

---

(١) وتوافر هذه الصِّفات في إله المسلمين أوضح. (المراجع).

(٢) David Conway, The Rediscovery of Wisdom (London: Macmillan, ٢٠٠٠), ٧٤.

(٣) Conway, The Rediscovery of Wisdom, ٢–٣.

الفصل الخامس:

مَنْ كَتَبَ قوانينَ الطَّبيعة؟

WHO WROTE LAWS OF NATURE

لعلَّ أكثر الحُجَج الدَّاعمة لوجودِ الإله شُهرةً وقبولاً من الناحيةِ الحَدْسية تلك التي تُسمَّىٰ بـ (حُجَّةِ التَّصميم Argument from design)[1]. وفقاً لهذه الحُجَّة، التَّصميمُ الواضحُ في الطَّبيعةِ يدُلُّ علىٰ وجودِ مُصمِّمٍ للكون. كثيراً ما أكَّدْتُ علىٰ أنَّها في الواقع حُجَّةٌ من النِّظام إلىٰ التَّصميم، لأنَّ هذه الحُجَّةَ مستمدَّةٌ من النِّظامِ المُشاهَد في هذا العالَم، ومن خلالِ هذا النِّظام نستدِلُّ علىٰ التَّصميم، ومن ثَمَّ علىٰ المُصمِّم. علىٰ الرَّغمِ من أنَّني كنْتُ منتقداً بحدَّةٍ الاحتجاجَ بالتَّصميم، إلَّا أنَّني منذُ ذلك الوقت بدأتُ أقتنعُ بأنَّه إذا ما تمَّ صياغة الحُجَّة بطريقةٍ صحيحةٍ فإنَّها ستنهضُ كحُجَّةٍ مقنعةٍ لإثباتِ وجودِ إله. التطوُّرات التي حدثَتْ في مجالينِ بالخصوص جعلَتْني أنتهي إلىٰ هذه النتيجة. المجالُ الأوَّلُ هو السُّؤالُ عن أصلِ قوانين الطبيعة والاستبصارات ذات الصِّلة للعُلماءِ المُحدَثين. المجالُ الثَّاني هو السُّؤالُ عن أصلِ الحياة والتَّكاثُر.

ماذا أعني بقوانينِ الطَّبيعة؟ باختصار، أعني بالقانون: الاطِّراد والتَّماثُل في الطَّبيعة. بعضُ أمثلة الكُتُب الدِّراسية قد تُوضِّحُ ما أقصد:

(قانونُ بويل ينُصُّ علىٰ أنَّ حَجْمَ عيِّنة غازية عند درجةِ حرارة ثابتة، يتناسَبُ عكسياً مع الضَّغطِ الواقع عليها).

(وفقاً لقانونِ نيوتن الأوَّل للحركة: يظلُّ الجِسْمُ في حالتِهِ الثابتة (إمَّا السُّكونُ التَّام أو التحرُّك في خطٍّ مستقيمٍ بسُرْعةٍ ثابتة) ما لم تُؤثِّر

---

(١) ويُقالُ لها في بعض الأحيان: (دليل النَّظْم) أو (دليل النِّظام). (المراجع).

عليه قوَّةٌ خارجيةٌ تُغيِّرُ من هذه الحالة).

(طبقاً لقانونِ الحفاظ علىٰ الطَّاقة: في أيِّ نظامٍ معزول، الطَّاقةُ لا تفْنىٰ ولا تُستحدَثُ من العدَمِ، ولكن يمكنُ تحويلُها من صورةٍ لأُخرىٰ).

النُّقطةُ المهمَّةُ ليس أنَّ هناكَ اطِّرادات في الطَّبيعة، ولكن المهمُّ أنَّ هذه الاطِّرادات جميعُها دقيقةٌ من الناحيةِ الرِّياضية، وهي كونيةٌ وشاملةٌ و(مترابطةٌ فيما بينها). آينشتين تحدَّثَ عن هذه القوانين بوصفِها (السَّببُ المُجسَّد). السُّؤالُ الذي ينبغي أنْ نطرَحَهُ هو كيف جاءت هذه القوانين كحِزْمةٍ واحدة؟ هذا هو بالتأكيد السُّؤالُ الذي طرحَهُ العُلماءُ من نيوتن إلىٰ آينشتين إلىٰ هيزنبرغ وأجابوا عنه. وجوابُهم كان هو عَقْلُ الإله.

الآن، هذا النَّوعُ من التَّفكير لم يقتصر علىٰ العُلماءِ القُدماء، أمثال إسحاق نيوتن (Newton) وجيمس ماكسويل (James Maxwell)، بل علىٰ العكسِ من ذلك، لقد امتدَّ ليَشْمَلَ العديدَ من العُلماءِ البارزين في العَصْرِ الحديث الذين اعتبروا أنَّ قوانينَ الطَّبيعة تُعبِّرُ عن أفكارٍ لعَقْلِ الإله. ختَمَ ستيفن هوكنج (Stephen Hawking) كتابَهُ (تاريخ موجز للزَّمان A Brief History of Time)[1] - وهو من أكثرِ الكُتُبِ مبيعاً - بالفقرةِ التالية:

(لو اكتَشْفنا نظريةً كاملة، فإنَّه ينبغي بمرورِ الوقت أنْ تكونَ قابلةً لأنْ يفهَمَها كلُّ فَرْدٍ بالمعنىٰ الواسع، وليس فقط مجرَّد علماء معدودين. وعندها فإنَّنا كُلُّنا، فلاسفة وعُلماء وحتَّىٰ أُناساً عاديِّين، ستتمكَّن من

---

(١) للكتاب ترجمة عربية، ترجمه د. مصطفىٰ إبراهيم فهمي/ دار الثقافة الجديدة/ ط ١/ ١٩٩٠م/ القاهرة. (المراجع).

المساهمةِ في مناقشةِ السُّؤال عن السَّبَبِ في وجودِنا نحنُ والكون؟ ولو وجَدْنا الإجابةَ عن ذلك، فسيكونُ ذلك الانتصار النِّهائي للعقلِ البشري، لأنَّنا وقتها سنتعرَّفُ علىٰ عَقْلِ الإله).

وفي الصَّفْحةِ التي تَسْبِقُ الفقرة السَّابقة تسائَلَ هوكنج (حتَّىٰ لو لم يكن هناك إلَّا نظريَّة مُوحَّدة واحدة ممكنة، فإنَّها تظلُّ مجرَّد مجموعةً من القوانينِ والمعادلات. ما الذي ينفُثُ النِّيرانَ داخل المعادلات ويجعل لها كَوْناً تُوصِّفُهُ؟)[1].

كان لدىٰ هوكنج المزيد ليقولَهُ في المقابلةِ التي تلَتْها[2]: (الانطباعُ الطَّاغي هو أنَّ هناك نظاماً. وكلَّما ازدادَ اكتشافُنا لهذا الكون، ازْدَدْنا قناعةً بأنَّ الكونَ محكومٌ بقوانين عقلانية. لكن يظلُّ السُّؤالُ قائماً: لماذا وُجِدَ العالَمُ؟ وإنْ أحبَبْتَ، فبمقدورِكَ أنْ تدافِع عن الله ليكونَ هو الجواب عن هذا السُّؤال)[3].

* * *

---

(١) Stephen Hawking, A Brief History of Time (New York: Bantam, ١٩٨٨), ١٧٥, ١٧٤.

(٢) Gregory Benford, “Leaping the Abyss: Stephen Hawking on Black Holes, Unified Field Theory and Marilyn Monroe,” Reason ٤,٠٢ (April ٢٠٠٢): ٢٩.

(٣) كان هذا هو موقف الفيزيائي هوكنج السَّابق، لكن بعدما نشر كتابه الأخير (التصميم العظيم The Grand Design) الذي حاول فيه تفسير نشأة الكون دون الحاجة لافتراض وجود إله، تغيَّر موقفه بنحوٍ واضح. ترجم كتابه الجديد أيمن أحمد عياد/ دار التنوير/ ٢٠١٣م/ بيروت. (المراجع).

من الذي كتَبَ كلَّ هذه الكُتُب؟

(A BRIEF HISTORY OF TIME)

قبلَ زمنٍ طويلٍ من هوكنج، استخدَمَ آينشتين اللُّغةَ ذاتَها، حيثُ كتَبَ: (أُريدُ أنْ أعرِفَ كيفَ خلَقَ الإلهُ العالَمَ... أُريدُ أنْ أعرِفَ أفكارَهُ، أمَّا الباقي فمجرَّد تفاصيل)(1). في كتابي (الإله والفَلْسفة)، كتبْتُ بأنَّنا لا نستفيدُ كثيراً من هذه الفقرات، لأنَّ آينشتين قال: إنَّه يُؤمِنُ بإلهِ باروخ سبينوزا (Baruch Spinoza)(2). ولأنَّ كلمة (الإله) و(الطبيعة) مترادفتان عند سبينوزا، لذا يمكنُ القولُ بلا تردُّد بأنَّ آينشتين في نظَرِ اليهود، والمسيحيِّين، والمسلمين كان مُلْحِداً، بل كان (الأبَ الرُّوحي لجميعِ المُلْحِدين)(3).

ولكن صدَرَ حديثاً كتابٌ بعنوان (آينشتين والدِّين Einstein and Religion) لماكس جامِر (Max Jammer) – وهو أحدُ أصدقاء آينشتين –

---

(1) Albert Einstein, quoted in Timothy Ferris, Coming of Age in the Milky Way (New York: Morrow, ١٩٨٨), ١٧٧.

(2) Antony Flew, God and Philosophy (New York: Dell, ١٩٦٦), ١٥.

(3) (فلو) يريد أنْ يقول: إنَّه في كتابه القديم (الإله والفلسفة)، عندما كان مُلْحداً، كان ينظر إلىٰ موقف اليهود والمسحيين والمسلمين تجاه آينشتين، علىٰ أنَّهم يرونه وفقاً لمنطلقاتهم، مُلْحداً. وفي الفقرات التالية سيُبيِّن (فلو) أنَّه أعاد النظر في ذلك. (المراجع).

يُقـدِّمُ صـورةً مختلفـةً تماماً عـن تـأثيرِ سـبينوزا علىٰ قناعـاتِ آينشـتين الشَّخصية. بيَّنَ جامِر أنَّ آينشتين كان يعرفُ القليلَ عن سبينوزا، وأنَّه لم يقرأ لسبينوزا سوىٰ كتابَ الأخلاق (Ethics)، وقد رفَضَ طلبات متكرِّرة للكتابةِ عن فَلْسفةِ سبينوزا. وفي ردِّهِ علىٰ أحدِ الطلبات، قال آينشتين: (إنَّه لا يملِكُ معرفةً متخصِّصةً ليكتُبَ مقالةً عِلْميَّةً عن سبينوزا). رغمَ أنَّ آينشتين يشترِكُ مع سبينوزا في الإيمانِ بالحَتْميَّة (Determinisim)، إلَّا أنَّ جامر يرىٰ أنَّه (من المُصْطنَع وغير المُسوَّغ) الافتراض بأنَّ أفكارَ سبينوزا أثَّرَت علىٰ فِكْرِ آينشتين[1]. لحَظَ جامر أيضاً أنَّ (آينشتين شعَرَ بأنَّه قريبٌ من سبينوزا، لأنَّهما يشتركانِ في حاجتيهما إلىٰ الانعزال، بالإضافةِ إلىٰ قدَرِهما بأنْ يتمَّ قراءتُهما ضمن التُّراث اليهودي، لكن في النِّهايةِ يَبْقيا غرباء عن التُّراثِ الدِّيني)[2].

ورغمَ أنَّ آينشتين أشارَ إلىٰ إيمانِ سبينوزا بوحدةِ الوجود، إلَّا أنَّه في الحقيقةِ عبَّرَ عن إنكارِهِ أنْ يكون مُلْحِداً أو مؤمناً بوحدةِ الوجود، فقد كتَبَ:

(أنا لَسْتُ مُلْحِداً، ولا يمكن أنْ أعتبرَ نَفْسي مؤمناً بوحدةِ الوجود. نحن في موقفِ طِفْلٍ صغيرٍ دخَلَ إلىٰ مكتبةٍ كبيرةٍ مملوءةٍ بكُتُبٍ بلُغاتٍ مختلفة. والطِّفلُ يعرِفُ أنَّه يجب أنْ يكون هناكَ شخصٌ ما كتَبَ هذه الكُتُب. ولكنَّه لا يعرف كيف؟ هو لا يفهَمُ اللُّغةَ التي كُتِبَت بها هذه الكُتُب. الطِّفلُ يظُنُّ بنحو خافت بأنَّ هذه الكُتُب مرتَّبةً بطريقةٍ غامضة، لكنَّه لا يعرف ما هي هذه الطَّريقة. وهذا، كما يبدو لي، هو اتِّجاهُ

---

(١) Max Jammer, Einstein and Religion (Princeton, NJ: Princeton University Press, ١٩٩٩), ٤٤.

(٢) Jammer, Einstein and Religion, ٤٥.

أذكىٰ شَخْصٍ تجاهَ الإله. نحنُ نرىٰ العالَمَ مُنظَّماً بطريقةٍ رائعة، ويتَّبع قوانينَ معيَّنة، لكنَّنا نفهمُ بنحوٍ خافتٍ فقط هذه القوانين. عقولُنا المحدودة تدرِكُ القوَّةَ الغامضةَ التي تُحرِّكُ هذه الكويكبات)[١].

في كتابِهِ (وهمُ الإله The God Delusion)، شاطَرَني ريتشارد دوكينز في موقفي القديم بأنَّ آينشتين كان مُلْحِداً. وبفعلِهِ ذلك، هو يتجاهل كلام آينشتين المشار إليه أعلاهُ بأنَّه لم يكن مُلْحِداً ولا مؤمناً بوحدةِ الوجود. وهذا مُحيِّر لأنَّ دوكينز استشهَدَ في إحدىٰ المرَّات بجامر، لكنَّه ترَكَ عدداً كبيراً من عباراتِ جامر وآينشتين الحاسمة في هذا الشَّأن. جامر لاحظَ، علىٰ سبيلِ المثال، أنَّ (آينشتين احتجَّ بنحو متواصل ضدَّ اعتبارِهِ مُلْحِداً. وقد أعلَنَ في محادثةٍ مع الأميرِ هيبرتس أمير لونشتين (Hubertus of Lowenstein) قائلاً: (ما يجعلُني أشعُرُ بالغضَبِ فعلاً هو أنَّ النَّاسَ الذين يقولونَ بأنَّ الإله لا وجودَ لَهُ يسْتشهِدُونَ بكلامي لتأييدِ آرائِهم). نفىٰ آينشتين اعتناقَهُ الإلحاد لأنَّه لم يجِد أنَّ إنكارَهُ للإلهِ الشَّخصي (Personal God) يعني أبداً إنكاراً لوجودِ إله)[٢].

آينشتين، بالتأكيد، لم يُؤمِن بالإلهِ الشَّخصي. لكنَّه قال:

(إنَّه سؤالٌ مختلفٌ عمَّا إذا كان الاعتقادُ بالإلهِ الشَّخصي لا بدَّ أنْ يكونَ محلَّ نقاش. فرويد دعَمَ هذا الرَّأي في آخِرِ مؤلَّفاتِه. بالنِّسبةِ لي لن أنخرِط أبداً في مهمَّةٍ كهذه. لأنَّ مثلَ هذا الاعتقاد يبدو لي أفضل من الافتقارِ لأيَّةِ نظرة متعالية للحياة، وأنا أتساءل بدهشةٍ عمَّا إذا كان بمقدورِ أحد أنْ ينجَحَ في تقديمِ وسائلَ عظيمة للبشرية تُلبِّي حاجاتهم

(١) Jammer, Einstein and Religion, ٤٥–٤٦.

(٢) Jammer, Einstein and Religion, ٤٨.

الميتافيزيقية)[١].

وكمُلخَّصٍ ينتهي جامر إلىٰ أنَّ آينشتين - كما هو حال موسىٰ بن ميمون (maimonides)[٢] وسبينوزا - يرفُضُ بشكلٍ قاطعٍ أيَّ نوعٍ من التَّجسيم في الفكرِ الدِّيني[٣]. ولكن علىٰ خلافِ سبينوزا، الذي رأىٰ أنَّ النَّتيجةَ المنطقية لإنكارِ الإلٰه الشَّخصي يجعل الإلٰه في هويَّةٍ مشتركةٍ مع الطَّبيعة، آينشتين أصرَّ علىٰ أنَّ اللهَ يكشِفُ عن ذاتِهِ (في قوانين الكون كرُوحٍ أعظم من تلك التي للإنسان، وعلىٰ المَرْءِ في مواجهةِ ذلك - بما يملِكُ من قوىٰ هزيلة - أنْ يشْعُرَ بالتَّواضع). آينشتين اتَّفَقَ مع سبينوزا في أنَّ من يعرِف الطَّبيعة يعرِفُ الإلٰه، لكن ليس لأنَّ الطَّبيعة هي الإلٰه، بل لأنَّ مواصلةَ العِلْم في دراسةِ الطَّبيعة تقودُ إلىٰ الدِّين[٤].

* * *

(١) Jammer, Einstein and Religion, ١٥٠. ٢١٨.

باستشهاده بكلمات آينشتين، يريد (فلو) أنْ يقول: إنَّ آينشتين، وإنْ لم يؤمن بالإلٰه الشَّخصي الذي يؤمن به التقليد اليهودي/ المسيحي (أي ذات لها صفات)، لكنَّه لم يرتضِ الإلحاد، بل كان يرىٰ أنَّ الإيمانَ بالإلٰه الشَّخصي الذي يمنح المرء نظرة متعالية للحياة أفضل من الإلحاد. لذا آمن آينشتين بإلٰهٍ مجرَّدٍ غير شخصي، يشبه الإلٰه الذي آمن به سبينوزا. (المراجع).

(٢) فيلسوف يهودي، وُلِدَ في قرطبة/ إسبانيا، وتوفِّي سنة (١٢٠٤م) في مصر، تأثَّر بالمسلمين، وكان له أثر بالغ في تطوير الفهم الديني اليهودي، من أهمّ مؤلَّفاته (دلالة الحائرين). (المراجع).

(٣) بمعنىٰ أنَّه يرفض أيَّ نحوٍ من أنحاء تشبيه الإلٰه بالبشر أو أيّ من المخلوقات. وهذا ما يؤكِّد عليه القرآن في قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ (الشورىٰ: ١١)، وقوله: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ ۝٤﴾ (الإخلاص: ٤). (المراجع).

(٤) Jammer, Einstein and Religion, ١٤٨.

عقلُ آينشتين المُتفوِّق

(EINSTEIN'S "SUPERIOR MIND")

آينشتين اعتقَدَ بوضوح بمَصْدَرٍ مُتعالٍ لعقلانيةِ العالَمِ، والذي يُسمِّيهِ (العقْلُ الفائق) أو (الرُّوحُ الفائقة)، (القوىٰ المنطقية الفائقة) و(القوَّةُ الغامضةُ التي تُحرِّكُ الكويكبات).

وهذا كان واضحاً في عددٍ من عباراتِهِ:

(لم أجِد علىٰ الإطلاق تعبيراً أفضَلَ من (مُتديِّن **religious**) لهذه الثِّقة بالطَّبيعةِ العقلانية للواقِعِ، وقُدْرتِها الخاصَّة علىٰ الوصولِ إلىٰ العقلِ البشري. في حين أنَّ هذه الثِّقة يفتقِرُ إليها العِلْمُ، حيثُ ينحطُّ إلىٰ إجراءٍ لا روحَ فيه. إنْ أرادَ الكهنةُ جعلُ هذا هو رأسُ مالِهِم فهذا شأنُهُم. فليس هناك علاجٌ لذلك[(1)]).

بالتأكيد إنَّها هي القناعةُ، القريبةُ من الشُّعورِ الدِّيني، لعقلانيةِ وذكاءِ هذا العالَمَ والتي تكمُنُ خلْفَ النَّشاط العِلْمي... هذا الاعتقادُ الرَّاسِخ، المرتبطُ بشعورٍ عميق، بأنَّ هناك عقلاً مُتفوِّقاً يكشِفُ عن ذاتِهِ في عالَمِ الخبرة، هو ما يُمثِّلُ تصوُّري عن الإله.

كُلُّ الذين أسهموا بنصيبٍ فيما تحقَّقَ من خطواتٍ ناجحةٍ في هذا

---

(١) Albert Einstein, Lettres a Maurice Solovine reproduits en facsimile et traduits en francais (Paris: Gauthier-Vilars, ١٩٥٦), ١٠٢–٣.

عبارة آينشتين هنا غير واضحة المعنىٰ تماماً، لكن يبدو أنَّه يقصد أنَّ رجال الدين قد يسيئوا الاستفادة من الثقة التي تثيرها عقلانية الطبيعة في العقل البشري. (المراجع).

المجـال (العِلْمـي)، قـد أحسُّـوا في قـرارةِ أنفُسِـهم إجـلالاً وتكبـيراً عميقـين تجاهَ عظمة العقل المتأصِّـل في الوجـود، والـذي لا يقـوىٰ الإنسـانُ عـلىٰ سَـبْرِ أغوارِهِ[١].

تديُّني يتضـمَّنُ تقـديراً خاضـعاً للـرُّوحِ المتفوِّقـة اللَّانهائيـة التـي تُظهِـرُ نفسَـها في أدقِّ التفاصـيل التـي نسـتطيعُ إدراكَهـا بعقـولٍ واهيـةٍ وضـعيفة. هذه القناعةُ العاطفيةُ العميقـةُ بوجـودِ القـوَّة المنطقيـة الفائقـة التـي تـتجلَّىٰ في الكونِ الذي لا يمكن الإحاطةُ به، هو الذي شكَّلَ فكرتي عن الإله)[٢].

* * *

---

(١) (Jammer, Einstein and Religion, ٩٣.) ألـبرت آينشـتين، أفكـار وآراء، ترجمـة د. رمسـيس شحاته: ٢٥١/ ١٩٨٦م/ الهيئة المصرية العامَّة للكتاب.

(٢) Albert Einstein, The Quotable Einstein, ed. Alice Calaprice (Princeton, NJ: Princeton University Press, ٢٠٠٥), ١٩٥–٦.

وهناك عبـارات لآينشـتين تُوضِّـح أكثـر وجهـة نظـره، حيـث يقـول: (إنَّ أجمَـلَ مـا نتمتَّـع بـه هو الناحية الغامضة من الحيـاة، إنَّـه الإحسـاس الصـافي العميـق الـذي يفـيضُ مـن نبـع الفـنِّ والعِلْـم... إنَّ مـن تبلَّـد شـعورُهُ وأصـبح لا يحِسُّ بالدَّهشـةِ أو العَجَـب، هـو ميِّـتٌ حقَّـاً انطفأَ نـورُ عينيـه... إنَّ الإحسـاسَ بـالغموضِ ممتزجـاً بـالخوفِ خَلَـقَ الدِّيانـةَ أيضـاً، فـالعِلْمُ بـأنَّ هنـاك حُجُبـاً لا يمكننـا تخطِّيهـا، والوقـوف عـلىٰ مظـاهرِ الانسـجام العميـق والجـمال البـارع الخـلَّاب الـذي لا تسـتوعبها عقولنـا، إلَّا في أبسـطِ صـورة مـن صـورهما، هـذه المعرفة وهذا الشُّعور هما جوهرُ التقوىٰ والزُّهد والعبادة الحقيقيان.

وبهذا المعنىٰ، وعلىٰ هـذا النَّحـو وحـده، أعـدُّ نفسـي واحـداً مـن أعمـقِ المتـديِّنين... يكفينـي أنْ أستمتعَ بهـذا الغمـوض الـذي يكتنـفُ أبديـة الحيـاة، وأنْ أحـسَّ وأعـي البنـاء الـذي يثـيرُ العَجَب، لكلِّ ما هو موجود، وأُجاهـدُ قـدرَ طـاقتي حتَّـىٰ أُلِـمَّ بقـبسٍ مهـما كـان ضـئيلاً مـن النـور أو الفكـر الـذي يـتجلَّىٰ في الطَّبيعـةِ جمعـاء). ألـبرت آينشـتين، أفكـار وآراء، ترجمـة د. رمسيس شحاته: ٢٢٠/ ١٩٨٦م/ الهيئة المصرية العامَّة للكتاب. (المراجع).

قفزات كوانْتُميَّة (جبَّارة) نحو الإله

(QUANTUM LEAPS TOWARD GOD)

آينشتين، وهو مكتشِفُ النظرية النِّسبية، ليس العالِم العظيم الوحيد الذي رأىٰ رَبْطاً بين قوانين الطَّبيعة وعقلِ الإله. رُوَّاد فيزياء الكوانتم، وهم عظماء آخرون من المكتشفين في الزَّمنِ الحديث، أمثال ماكس بلانك (Max Planck)، وِرْنِر هيزنبرغ (Werner Heisenberg)، إرْوِن شرودنجر (Erwin Schrödinger)، وبول ديراك (Dirac Paul)[1]، كلُّ هؤلاء صدرت عنهم عبارات متشابهة (بخصوص الرَّبط بين قوانين الطَّبيعة وعقلِ الإله)، سأُوردُ بعضاً ممَّا قالوه بعد قليل.

وِرْنِر هيزنبرغ (Werner Heisenberg)، وهو الذي اشتُهِرَ بسببِ مبدأ عدم اليقين وميكانيكا المصفوفات (Uncertainity Principle and Matrix Mechanics)، قال: (خلال مسيرة حياتي، اضطرِرْتُ بشكلٍ متكرِّر إلىٰ التأمُّل في العلاقةِ بين هذينِ الحقلين من الحقولِ الفكرية (الحقل العِلْمي والحقل الدِّيني)، لأنِّي لم أكن قادراً علىٰ الإطلاق علىٰ الشكِّ بذلك الواقع الذي يُشيرونَ إليه)[2].

---

(١) For the most part, these quotations are taken from Roy Abraham Varghese, The Wonder of the World (Fountain Hills, AZ: Tyr, ٢٠٠٣).

(٢) Werner Heisenberg, Across the Frontiers, trans. Peter Heath (San Francisco: Harper & Row, ١٩٧٤), ٢١٣.

وفي موضعٍ آخر يقول: (لقد سألني وولفجانج (بايولي) (Wolfgang Pauli))[1] علىٰ نحوٍ مفاجئ: هل تؤمنُ بالإلهِ الشخصي؟... فقُلْتُ له: هل لي أُعيدَ صياغة سؤالك؟ شخصياً أُفضِّلُ صياغةَ السُّؤال علىٰ النَّحوِ التالي: هل يُمكِنُكَ، أو يُمكِنُ لأيِّ شخصٍ آخر، أنْ يصِلَ إلىٰ النِّظامِ المركزي للأشياءِ والأحداث، التي وجودُها يبدو خارجَ إطار الشَّك، كوصولِكَ علىٰ نحوٍ مباشر إلىٰ روحِ (عقل soul) إنسان آخر؟[2] أنا أستخدِمُ لفظةَ (روح soul) بشكلٍ متعمِّدٍ حتَّىٰ لا يُساء فهمي. إذا وضعْتَ سُؤالَكَ علىٰ هذا النَّحو، فإنَّ جوابي سيكونُ نعم... إذا كانت القوَّةُ المغناطيسية هي التي وجَّهَت (وأرشدَت) هذه البوصلة، فمن سيكونُ مصدر ذلك سوىٰ النِّظام المركزي؟ إذا كان مُقرَّراً لنا أنْ ننقرِض، فإنَّ أُموراً فظيعة يمكن أنْ تحدُث للجِنْسِ البشري، أكثر من مخيَّمات الغاز أو القنبلة الذرّية)[3].

رائدٌ آخر من رُوَّاد الكوانتم، إرْوِن شرودنجر، الذي اكتشفَ الموجات الميكانيكية، يقول:

(الصُّورةُ العِلْميةُ للعالَمِ من حولي ناقصةٌ جدّاً. إنَّها تعطيني الكثيرَ

---

(١) (١٩٠٠ - ١٩٥٨م) فيزيائي نمساوي، من أبرز روّاد فيزياء الكوانتم، عُرِفَ واشتُهر بمبدأ بايولي.

(٢) يشير أنتوني فلو هنا إلىٰ المشكلة الفلسفية المعروفة بـ(مشكلة العقول الأُخرىٰ)، فكما أنَّنا نُدرِكَ أنَّ للآخرينَ عقولاً علىٰ نحوٍ مباشر، دون أنْ نحسَّ بتلك العقول، وإنَّما نتعرَّف علىٰ وجودِها من خلال رصد مؤشِّرات كثيرة، فكذلك الأمر بالنسبةِ إلىٰ وجود الإله، ندركُهُ علىٰ نحوٍ مباشرٍ كما ندرُكُ عقولَ الآخرين. (المراجع).

(٣) Werner Heisenberg, Physics and Beyond (San Francisco: Harper & Row, ١٩٧١), excerpted in Timothy Ferris, ed., The World Treasury of Physics, Astronomy and Mathematics (New York: Little, Brown, ١٩٩١), ٨٢٦.

من المعلومات الواقعية، وتضَعُ كلَّ خبراتنا في نظام رائع الاتِّساق، ولكن الصَّمت الرَّهيب الذي يلامسُ قلوبَنا، هو ما يهُمُّ حقّاً. إنَّها لا تستطيعُ أنْ تقولَ كلمةً واحدةً عن الإحساسِ باللَّونِ الأحمر والأزرق، عن المُرِّ والحلو، عن مشاعرِ البهجة والحُزْن. إنَّها لا تعرفُ شيئاً عن الجمالِ والقُبْح، عن الخيرِ والشَّرِّ، عن الإلهِ والخلود. تتظاهرُ العلوم بقُدْرتِها علىٰ الإجابةِ عن الأسئلةِ في هذه الأبعاد، ولكن الإجابات غالباً ما تكونُ سخيفةً جدّاً بحيث إنَّها تجعلنا نميلُ إلىٰ عدمِ أخذِها علىٰ محمَلِ الجدِّ.

العِلْمُ هو أيضاً متحفِّظٌ عندما يكونُ السُّؤالُ عن الوحدةِ العظيمة، التي ننتمي إلىٰ جُزءٍ منها. والاسمُ المشهورُ في زمانِنا لهذه الوحدة هو (الإله). في العادةِ، العِلْمُ يوصفُ بأنَّه إلحاديٌّ. بعدما قلناه، هذا لن يكون مفاجئاً. إذا كانت صورةُ العالَمِ لا تحتوىٰ حتَّىٰ علىٰ الجمالِ والبهجةِ والحُزْن، إذا اتَّفقنا علىٰ أنْ نقتطِعَ منها الشَّخصية (personality)، فكيف يمكن لهذه الصُّورة أنْ تحتوي علىٰ أعظم فكرة عندما تعرِضُ نفسَها لعقلِ الإنسان؟)[1][2].

ماكس بلانك، الذي عَرَضَ لأوَّلِ مرَّة فرضية الكوانتُم، يعتقدُ

(١) Erwin Schrödinger, My View of the World (Cambridge: Cambridge University Press, ١٩٦٤), ٩٣.

(٢) يقصد (شرودنجر) أنَّ الصورةَ التي تُقدِّمها العلوم الطبيعية عن العالَمِ قاصرةٌ جدّاً، ولا تكتمل إلَّا بالدِّين، لأنَّها لا تنطوي علىٰ الشُّعور الغامض بوجود إله وراء هذا الكون، بل لا تتحدَّث أبداً عن عالم الانفعالات الذاتية (البهجة والحزن)، وعالم الأخلاق (الخير والشرّ)، وعالم الجمال (الجمال والقبح)... هذه العوالم بأسرِها خارج إطار العِلْم. فإنْ كان الأمر كذلك، فكيف بمقدور العِلْم أنْ يُجيبَ عمَّا هو أكبر من ذلك؛ عمَّا إذا كان لهذا العالم خالقاً؟ (المراجع).

بطريقـةٍ لا لَـبْسَ فيهـا بـأنَّ العِلْـمَ يكمـلُ الـدِّين، وهـو يؤكِّـدُ عـلىٰ أنَّـه (لـن يكونَ هنـاك أيُّ تعـارُض بـين العِلْـم والـدِّين، لأنَّ كـلَّ واحـدٍ مـنهُما مُكمِّـلٌ للآخر). ويقولُ بـأنَّ (الـدِّينَ والعلـوم الطَّبيعيـة يُقـاتلانِ في المعركـةِ ذاتِهـا، في حـربٍ متواصـلةٍ دونَ هـوادة ضـدَّ مـذهب الشَّـكِّ (skepticism)[١] وضـدَّ الدُّوغمائيـة (dogmatism)[٢] وضـدَّ الكُفْـرِ والخرافـات... (وفي النِّهايـة) يُقاتلانِ من أجلِ الإله)[٣].

بول ديـراك، الـذي أكمَـلَ عمَـلَ هيـزنبيرغ وشرودِنْجـر بصـياغةٍ ثالثـةٍ لنظريـةِ الكـوانتُم، لاحـظَ أنَّ (الإلـه هـو ريـاضيٌّ بمرتبـةٍ عاليـةٍ جـدّاً، وهـو يستخدمُ الرِّياضيات المتقدِّمة في بناءِ الكون)[٤].

وقبـلَ أجيـال مـن هـؤلاءِ العلـماء، أكَّـدَ تشـارلز دارْوِن (Darwin Charles) علىٰ الفكرةِ ذاتِها بقولِهِ:

((العقـلُ يقـولُ لي): إنَّـه مـن الصَّـعبِ بدرجـةٍ كبـيرة، بـل مـن المستحيل، أنْ نُـدرِكَ هـذا الكـون الهائـل والرائـع، بـما في ذلـك الإنسـان مـع

---

(١) الشُّكوكية أو مذهب الشَّكِّ هو اتِّجاه فلسفي يقول بأنَّ المعرفة الحقيقية في حقل معيَّن هي معرفة غير محقَّقة أو مؤكَّدة.

(٢) الدُّوغمائية أو الجزمية، هي التعصب لفكرة معينة من قبل مجموعة دون قبول النقاش فيها، أو الإتيان بأيِّ دليل ينقضها لمناقشته، أو كما هي لدىٰ (الإغريق) الجمود الفكري. وهي التشدُّد في (الاعتقاد) الديني أو (المبدأ) الأيديولوجي، أو موضوع غير مفتوح للنقاش أو (للشَّكِّ). يعود أصل الكلمة إلىٰ اليونانية (δόγμα) والتي تعني (الرأي) أو (المعتقد الأوحد).

(٣) Max Planck, Where Is Science Going? trans. James Murphy (New York: Norton, ١٩٧٧), ١٦٨.

(٤) Paul A. M. Dirac, "The Evolution of the Physicist's Picture of Nature," Scientific American ٢٠٨, no. ٥ (May ١٩٦٣): ٥٣.

قابليَّتِهِ علىٰ النَّظَرِ إلىٰ الماضي البعيد، والذَّهاب بذهنِهِ إلىٰ المستقبلِ البعيد، ليقولَ بعد ذلك بأنَّ هذا الكون قد حدَثَ بصُدْفةٍ عمياء أو ضرورة. عندما أتأمَّلُ في ذلك، أجدُ نفسي مُضْطرّاً للتطلُّع إلىٰ السَّببِ الأوَّل الذي يمتلكُ عقلاً ذكياً يُشابِهُ بدرجةٍ ما الإنسان؛ عندها أستحِقُّ أنْ أُوصَفَ بالمُوحِّد)[1].

هذا القطارُ من الأفكارِ استمرَّ في المسيرِ في كتاباتِ مجموعةٍ من كبارِ الباحثين العِلْميِّين في وقتِنا الحاضر. وهؤلاء يتراوحون ما بين عُلماء من أمثالِ بول ديفيز (Paul Davies)، جون بارو (John Barrow)، جون بولكنغهور (John Polkinghorne)، فريمان دايسون (Freeman Dyson)، فرانسيس كولينز (Francis Collins)، أوين جنجريتش (Owen Gingerich)، وروجر بِنْروز (Roger Penrose)، إلىٰ فلاسفةِ العلوم من أمثال ريتشارد سوينْبيرن وجون ليسْلي (John Leslie).

ديفيز وبارو، علىٰ وجهِ الخصوص قاما بتطويرِ أفكار آينشتين، هيزنبيرغ، وغيرِهم من العُلماء بخصوصِ العلاقة بين عقلانيةِ العالَمِ وعقلِ الإله. كلاهُما حصل علىٰ جائزةِ تمبلتون علىٰ هذا الاكتشاف. وقد صحَّحت أعمالهُم الكثيرَ من التصوُّراتِ الخاطئة الشَّائعة، كما سلَّطت الضَّوءَ علىٰ الموضوعاتِ التي نُناقِشُها هنا.

* * *

(١) Charles Darwin, The Autobiography of Charles Darwin ١٨٠٩-١٨٨٢, ed. Nora Barlow (London: Collins, ١٩٥٨), ٩٢–٣.

قوانينُ مَنْ؟

(WHOSE LAWS ?)

في كلمتِهِ في حفلِ جائزة تمبلتون، أشارَ بول ديفيز إلىٰ نُقطةٍ، وهي (أنَّ العِلْمَ الطَّبيعي يمكن أنْ يتقدَّمَ فقط إذا امتلَكَ العُلماءُ نظرةً كونيةً لاهوتيةً بنحوٍ أساسي). لا أحد يسأل من أينَ جاءت قوانينُ الفيزياء، ولكن (حتَّىٰ أكثر العُلماء إلحاداً يُقِرُّ كفعلٍ إيمانيٍّ بوجودِ نظامٍ في الطَّبيعةِ قائم علىٰ القوانين، وهذا النِّظامُ في جانبٍ منه علىٰ الأقلِّ قابلٌ للإدراكِ من قِبَلِنا). وقد رفضَ ديفيز اثنتين من نقاطِ سوء الفهم الشَّائعة. يقولُ ديفيز بأنَّ (الفكرةَ القائلةَ بأنَّ نظرية كلِّ شيء ستُظهِر أنَّ هذا العالَمَ هو العالَمُ المتِّسقُ منطقياً الوحيد هي (فكرةٌ خاطئةٌ برهانياً)، لأنَّه لا يوجدُ أيُّ دليلٍ منطقيٍّ علىٰ أنَّ العالَمَ ضروريٌّ من الناحيةِ المنطقية، وفي الحقيقةِ من الممكن تخيُّل وجود عالَمٍ بديل متَّسق منطقياً. ثانياً يقولُ: (من الهراءِ بكُلِّ ما للكلمةِ من معنىٰ) افتراض أنَّ قوانينَ الفيزياء هي قوانينُنا نحنُ وليست قوانين الطَّبيعة. سوف لن يُؤمن عُلماءُ الفيزياء بأنَّ قانونَ نيوتن للجاذبية هو خَلْقٌ ثقافي. فديفيز يُصِرُّ علىٰ أنَّ قوانينَ الطَّبيعة (موجودةٌ واقعياً)، وعمَلُ العُلماء هو اكتشافُها وليس اختراعَها)[1].

---

(١) يبدو لي أنَّ القوم وقعوا بين إفراطٍ وتفريط، بين قائلٍ بأنَّ قوانينَ الطبيعة هي مجرَّد خَلْق ذهني، خرائط ونماذج عقلية، لا وجودَ لها في عالَمِ الواقع، وقائلٍ بأنَّ قوانينَ الطبيعة هي

يلفِتُ ديفيز الانتباهَ إلىٰ حقيقةِ أنَّ قوانينَ الطَّبيعة التي تحكُمُ الظَّواهِرَ لم يتِمُّ استخلاصُها من خلالِ الملاحظة المباشرة، وإنَّما تمَّ استخلاصُها من التَّجارُبِ والحساباتِ الرِّياضية. القوانينُ كُتِبَت بشَفرةِ الكون بحيث إنَّ علىٰ العلماءِ التَّنقيب لفكِّ (رسالة الطَّبيعة، رسالة الإله - قُلْ ما شِئْت - لكن ليست رسالتنا نحن).

السُّؤالُ المُلِحُّ - كما يقول ديفيز - ينقسِمُ إلىٰ ثلاثةِ أقسام:

- من أين جاءت قوانينُ الفيزياء؟
- لماذا لدينا هذه القوانين وليس مجموعة أُخرىٰ من القوانين؟
- كيف لنا أنْ نمتلِكَ مجموعةَ قوانين تُحوِّل غازات ساكنة إلىٰ حياةٍ ووعي وذكاء؟

هذه القوانين (تبدو بديعة ومحكمة - كما يقولُ بعضُ المُعلِّقين - ومنها نشأت الحياة والوعي). ويخلُصُ إلىٰ أنَّ هذه (الطَّبيعة المبدعة للوجودِ الفيزيائي هي بالنِّسبةِ لي أروع بكثير من أنْ يتمَّ التعاطي معها علىٰ أنَّها مجرَّد (مُعطىٰ)، وهي تشيرُ إلىٰ معنىٰ أعمق للوجود). وكلماتٌ من قبيل (الغاية) و(التَّصميم) - كما يقول ديفيز - تلتقطُ بنحوٍ غير كاملٍ ما عليه الكون. (لكن لا بدَّ أنَّها تحكي عن شيءٍ ما، ولا أشُكُّ في ذلك مطلقاً)[1].

مستخلصةٌ من الواقع، وليس خَلْقاً ذهنياً وخرائطَ عقلية. والصَّحيح - كما يبدو - أنَّ قوانينَ الطَّبيعة هي اعتباراتٌ ذهنيةٌ منتزعةٌ من مناشِئَ واقعية، فلا هي اعتباراتٌ ذهنيةٌ صِرْفة، ولا هي حاكيةٌ عن الواقعِ بنحوٍ تفصيلي، بل الذِّهنُ مُصمِّمٌ علىٰ أنْ ينتزِعَ من عالَمِ الواقع مفاهيمَ وعلاقات يقيمُ علىٰ أساسِها معادلات يفهمُ من خلالِها الواقع بنحوٍ مُجمَل، ثمَّ تتكامل معرفتُهُ من الإجمال إلىٰ التفصيل بالتدريج. (المراجع).

(١) Paul Davies, Templeton Prize Address, May ١٩٩٥, http://aca. mq.edu.au/ PaulDavies/

في كلمتِـهِ في حَفْـلِ تمبلتـون، لحـظَ جـون بـارو بـأنَّ التَّعقيـدَ غـير المتناهي والبُنْية الرَّائعـة للكـونِ محكومـةٌ بقـوانين قليلـة متماثلـة وواضـحة. في الحقيقة، (هنـاك معـادلاتٌ رياضـية، مصـبوبةٌ بحـبرٍ عـلىٰ ورق، تُخبرُنـا كيـف يسْلُكُ هذا الكـون بـأسرِهِ). عـلىٰ غـرارِ ديفيـز، رفـضَ بـارو فكـرةَ أنَّ نظـامَ الكون تمَّ فرضُهُ من عقولِنـا. وعـلاوةً عـلىٰ ذلـك، فـإنَّ (الانتخـابَ الطَّبيعـي لا يتطلَّبُ فهـمَ الجُسـيمات الأوليـة (**quarks**) والثُّقـوب السَّـوداء التـي تعمَـلُ من أجلِ بقائِنا علىٰ قيدِ الحياة وتكاثُرِنا).

يُلاحـظُ بـارو أنَّ هنـاكَ في تـاريخِ العلـوم الطَّبيعيـة نظريـاتٌ جديـدةٌ تُوسِّـعُ أو تُعيـدُ صياغةَ نظريـاتٍ قديمـة. عـلىٰ الـرَّغمِ مـن أنَّ نظريـةَ نيـوتن للميكانيكـا والجاذبيـة قـد تـمَّ تجاوزهـا بنظريـةِ آينشـتين وسـيعقُبُها نظريـة أُخـرىٰ في المسـتقبل، لكـن بعـد ألـف سـنة مـن الآن سـيظلُّ المهندسـون يعتمدون علىٰ نظرياتِ نيـوتن. وبالمثـل - كـما يقـول بـارو - فـإنَّ التصـوُّرات الدِّينيـة عـن الكـون تسـتخدمُ التَّشـبيهات والأمثـال لمسـاعدةِ الأذهـان في اسـتيعابِ الأُمـور الحاسـمة. (هـي ليسـت الحقيقـة الكاملـة، ولكـن هـذا لا يوقِفُها عن أنْ تكونَ جُزْءاً من الحقيقة)[1].

* * *

prize_address.htm. See also Davies's "Where Do the Laws of Physics Come From?" (٢٠٠٦), http://www. ctnsstars.org/conferences/papers/Wheredothelawsofphysicscomefrom.doc.

(١) John Barrow, Templeton Prize Address, March ١٥, ٢٠٠٦, http://www.templetonprize.org/ barrow_statement.html.

صانع القوانين الإلهي
(THE DIVINE LAWMAKER)

قِلَّةٌ من الفلاسفةِ كتبوا أيضاً عن المَصْدرِ الإلهي لقوانينِ الطَّبيعة. في كتابِهِ (صانعُ القانون الإلهي: محاضراتٌ في الاستقراء، قوانين الطَّبيعة، وجود الإله)، ادَّعىٰ فيلسوفُ أكسفورد جون فوستر (John Foster) وجود اطِّرادات (regularities) في الطَّبيعة[1]، مهما كان وَصْفُكَ لها، يظلُّ أفضل تفسيرٍ لها هو العقلُ الإلهي. إذا كُنْتَ تقبل حقيقة أنَّ هناكَ قوانين، فلا بدَّ أنْ يكونَ هناك من يفرض هذا الاطِّراد في الكون. من هو الفاعل (أو الفاعلين) الذي قامَ بذلك؟ يرىٰ فوستر أنَّ الخَيارَ التوحيدي هو الخَيارُ الوحيد الجِدِّي كمصدر لهذا الاطِّراد، ولذلك (فإنَّ هناك ما يُسوِّغ الاستنتاج بنحوٍ عقلاني بأنَّ الإلهَ - إلهَ الوحدانية - هو الذي خلَقَ القوانين من خلالِ فرضِهِ الاطِّرادات علىٰ الكونِ كاطِّرادات). حتَّىٰ لو كُنْتَ تُنكِر وجودَ قوانين، فإنَّ (هناك ما يُؤيِّد تفسير الاطِّرادات من خلالِ اللُّجوء إلىٰ فِعْلِ الإله)[2].

---

(١) المقصود بـ (الاطِّرادات) هي الحوادث التي تقع بنحو مُتكرِّر ومنتظم، مثل شروق الشمس كلّ يوم ثمّ غروبها، أو سقوط الأجسام علىٰ الأرض كلّما رميتَها بفعلِ الجاذبية (المراجع).

(٢) John Foster, The Divine Lawmaker: Lectures on Induction, Laws of Nature and the Existence of God (Oxford: Clarendon, ٢٠٠٤), ١٦٠.

في ردِّهِ علىٰ نَقْدِ دوكينز لحُجَّتِهِ في التَّصميم، قدَّمَ سوينبيرن رُؤيةً مشابهة:

(ما هو قانونُ الطَّبيعة؟ (هذه مسألة لم يتعرَّض لها أيّاً من نُقَّادي). أنْ تقولَ بأنَّ هناك قانوناً طبيعياً بأنَّ كلَّ الأجسام تسلُكُ بنحوٍ معيَّن (علىٰ سبيلِ المثال: تنجذِبُ إلىٰ بعضِها البعض وفقاً لمعادلةٍ معيَّنة)، هو بالنِّسبةِ لي كأنَّكَ تقول: إنَّ كلَّ جِسْمٍ في الطَّبيعة الضَّرورية يتصرَّف بهذه الطَّريقة (علىٰ سبيلِ المثال: أنْ يجذِبَ كلَّ جِسْمٍ بتلك الطَّريقة). ولعلَّهُ أكثر سهولةً أنْ تفترِضَ أنَّ هذا التناغُمَ نشأَ من فعلِ كيانٍ واحدٍ تسبَّب في جعلِ الأجسام تسلُكُ بهذه الطريقة، بدلاً من افتراض أنَّ كلَّ الأجسام تسلُكُ بطريقةٍ معيَّنةٍ بحُكْمِ حقيقةٍ عمياء نهائية)[1].

الحُجَّةُ المركزيةُ لسوينْبيرن هو أنَّ الإلهَ الشَّخصي مع صفاتِهِ التَّقليدية يُقدِّمُ لنا أفضلَ تفسيرٍ لعمَلِ قوانين الطَّبيعة.

ريتشارد دوكينز رفضَ هذه الحُجَّة علىٰ أساس أنَّ الإلهَ هو حلٌّ معقَّدٌ جدّاً لتفسيرِ الكون وقوانينِهِ. هذا الكلام صدمني باعتبارِهِ شيئاً غريباً أنْ تقولَ ذلكَ عن تصوُّرِ كائنٍ روحيٍّ علىٰ كلِّ شيءٍ قدير. ما هو المُعقَّدُ في فكرةِ إلهٍ كاملِ القدرة وكاملِ المعرفة؟! وهي الفكرةُ التي لسُهولتِها تمَّ استيعابُها من قِبَلِ أتْباع الأديان الثلاثة العظيمة: اليهودية والمسيحية والإسلام؟ وقد عَلَّقَ بلانتينْغا مؤخَّراً علىٰ كلامِ دوكينز، بالإشارةِ إلىٰ أنَّه وفقاً لتعريفِ دوكينز الخاصّ، الإله بسيطٌ - ليس مُعقَّد (مركَّب) - لأنَّه روحٌ، وليس جسماً مادِّياً، وبالتالي ليس له أجزاء.

---

(١) Richard Swinburne, “Design Defended,” Think (Spring ٢٠٠٤): ١٤.

بالعودةِ إلىٰ مثالِ الهاتف الفضائي الذي طرحتُهُ في الفَصْلِ السابق، نجد أنَّ قوانينَ الطَّبيعة تُمثِّلُ مشكلةً للمُلْحدين لأنَّ صوتَ العقلانية يُسْمَعُ من خلالِ آليَّات المادَّة (mechanisms of matter). كتَبَ بول ديفيز: (العلْومُ الطَّبيعية تقومُ علىٰ فرضيَّةِ أنَّ الكونَ عقلانيٌّ ومنطقيٌّ تماماً علىٰ كافَّةِ المستويات). ديفيز هو أكثرُ مُفسِّري العِلْم الحديث تأثيراً في العَصْرِ الرَّاهن، كتَبَ قائلاً: (يزْعُمُ المُلْحدون أنَّ قوانينَ الطَّبيعة توجدُ دون منطق، وأنَّ الكونَ مُنافٍ للعقل. أنا كعالِمٍ، أجدُ صعوبةً في قبولِ ذلك. يجبُ أنْ يكونَ هناك أساسٌ عقلانيٌّ غير متغيِّر يقومُ عليه هذا الكون المُنظَّم والمنطقي)[1].

هؤلاء العُلماء الذين يُشيرونَ إلىٰ عَقْلِ الإله لا يُقدِّمون مجرَّد سلسلة من الحُجَج أو عمليَّة استدلال منطقية، بل بالأحرىٰ هُمْ يُقدِّمونَ رُؤيةً للواقع تنبثقُ من قلْبِ تصوُّرات العِلْم الحديث وتفرِضُ نفسَها علىٰ العقْلِ الرَّشيد. وهي الرُّؤيةُ التي أجِدُها شخصيَّاً أنَّها مقنعة وغير قابلة للدَّحض.

* * *

(١) Paul Davies, "What Happened Before the Big Bang?" in God for the ٢١st Century, ed. Russell Stannard (Philadelphia: Templeton Foundation Press, ٢٠٠٠),

الفصل السادس:

هل عَرَفَ الكونُ أنَّنا قادمون؟

DID THE UNIVERS
KNOW WE WERE COMING?

تخيَّل أنَّكَ تدخُلُ إلىٰ غُرفتِكَ في الفندق الذي ستسكُنُ فيه في رحلتِكَ المقبلة: ووجَدْتَ أنَّ جهازَ التَّسجيل الموجود بجانبِ السَّرير يعزِفُ المعزوفةَ الموسيقية التي تُحِبُّها. ووجَدْتَ أنَّ اللَّوحةَ المُعلَّقة أعلىٰ السَّرير مطابقةً للَّوحةِ الموجودة أعلىٰ المدفأة في بيتِكَ. والغرفةُ ينبعثُ منها رائحةَ العِطْر الذي تُفضِّلُهُ. قُمْتَ بهزِّ رأسِكَ مُتعجِّباً وألقيْتَ حقائبَكَ علىٰ الأرض.

بعد ذلك انتبهتَ فجأةً، فاتَّجهْتَ إلىٰ الثلَّاجةِ الصَّغيرة الموجودة في الغرفة، وفَتَحْتَ بابَها، وحدَّقْتَ في محتوياتِها. ووجَدْتَ مشروبَكَ المُفضَّل، وقطعةَ الحلوىٰ والكعكةَ التي تُحِبُّها، بل وجَدْتَ أيضاً قنِّينة من نوعِ الماء الذي تُفضِّلُهُ.

بعد ذلك، أدرْتَ ظهرَكَ للثلَّاجة، ونظرْتَ إلىٰ المِنْضدةِ الموجودة في الغرفة. ووجَدْتَ عليها الكتابَ الجديد لمُؤلِّفِكَ المُفضَّل. وعندما ألقيْتَ نظرةً في الحمَّام، حيثُ تصطفُّ علىٰ الرَّفِّ موادَّ الاعتناء بالبَشْرة، وجَدْتَ أنَّ كُلًّا منها من النوعِ الذي تستخدِمُهُ في العادة. وعندما قُمْتَ بتشغيلِ التلفزيون، وجدْتَ القناةَ التلفزيونية التي تُفضِّلُها.

مع كلِّ شيءٍ تُشاهِدُهُ في الغرفة، تجِدُ نفسَكَ أقلّ ميلاً إلىٰ التفكيرِ بأنَّ كلَّ ما حدَثَ كان من بابِ الصُّدْفة، أليسَ كذلك؟ وقد تتساءل: كيف استطاعَ مديرُ الفندق أنْ يعرِفُ كلَّ هذه الأُمور التفصيلية عنك. وقد تتعجَّبُ من هذا الإعدادِ الدَّقيق. حتَّىٰ أنَّكَ قد تعيدُ النَّظَرَ مجدَّداً

وتتساءل: كم سيُكلِّفُكَ هذا الإعداد كلّه من مبالغ مالية. لكنَّك بالتأكيد سوف تميلُ إلىٰ الاعتقادِ بأنَّ شخصاً ما كان يعلَمُ بقُدُومِك.

* * *

كوننا الدَّقيق

(OUR FINELY TUNED UNIVERSE)

سيناريو هذه العطلة خارقٌ، وهو يوازي حُجَّةَ التوافق الدَّقيق (Fine-tuning Argument). الشُّهرة المعاصرة لهذه الحُجَّة تُسلِّطُ الضَّوءَ علىٰ بُعْدٍ جديدٍ لقوانينِ الطَّبيعة. كتَبَ عالمُ الفيزياء فريمن دايسون (Freeman Dyson) قائلاً (كلَّما قُمْتُ بفحصِ هذا الكون ودرسْتُ تفاصيلَ تكوينِهِ، أجِدُ دليلاً إضافياً علىٰ أنَّ الكونَ بمعنىٰ ما كان يعلَمُ بأنَّنا قادمون)[1]. وبعبارةٍ أُخرىٰ: يبدو أنَّ قوانينَ الطَّبيعة صُمِّمت بنحوٍ يُحرِّكُ العالَمَ باتِّجاهِ نشأة حياة. هذا هو المبدأُ الأنثروبي، الذي أصبحَ مشهوراً بفَضْلِ مفكِّرينَ من أمثال مارتن ريز (Martin Rees)، جون بارو (John Barrow)، وجون ليسْلي (John Leslie).

دعنا نأخُذ أبْسَط قوانين الفيزياء كمثالٍ علىٰ ذلك. لقد تمَّ حسابُ أنَّه لو تغيَّرَ حتَّىٰ لو واحد فقط من الثوابتِ الأساسية - علىٰ سبيلِ المثال سرعة الضَّوء أو كتلة الإلكترون - بدرجةٍ مختلفةٍ قليلاً، فإنَّه لن يكون هناك كوكبٌ قادرٌ علىٰ توفيرِ البيئة المناسبة لحياةِ الإنسان.

---

(١) Freeman J. Dyson, Disturbing the Universe (New York: Harper & Row, ١٩٧٩), Also cited in John Barrow and Frank Tipler, The Anthropic Cosmological Principle (Oxford: Clarendon, ١٩٨٨), ٣١٨.

لقد تمَّ تفسيرُ هـذا التوافـق الـدَّقيق بطـريقين. بعـضُ العُلـماء قـالَ بـأنَّ هذا التوافقَ الـدَّقيق دالٌّ علىٰ التَّصـميمِ الإلهـي؛ كثـيرونَ آخـرون خمَّنـوا بـأنَّ كونَنا هو كونٌ من ضـمنِ أكـوانٌ أُخـرىٰ - (أكـوانٌ متعـدِّدة) - مـع فـارق أنَّ كونَنا هُيِّئَ لكـي يُـوفِّرَ الشُّـروط اللازمـة للحيـاة. عمليـاً لا يـدَّعي أيُّ عـالمٍ معروفٍ اليوم أنَّ التوافـقَ الـدَّقيق كـان بنحـوٍ صِرْف نتيجـةً لعوامـلِ الصُّـدفة في كونٍ واحد.

في كتابِهِ (العقـول اللَّانهائيـة)، يجـادِلُ جـون ليسْـلي - وهـو مـن أعـلام مُنظِّـري المبـدأ الأنثـروبي - بـأنَّ (التوافـقَ الـدَّقيق فُسِّـرَ بشـكلٍ أفضـل بواسـطةِ القـول بوجـودِ تصـميمٍ إلهـي. يقـولُ ليسـلي: إنَّـه متعجِّـبٌ، لا مـن حُجَجٍ مُحدَّدة لصالحِ حـالاتٍ مـن التوافـقِ الـدَّقيق، بـل مـن حقيقـةِ أنَّ هـذه الحُجَـجَ موجـودةٌ علىٰ نحـوٍ وافـر (= يزيـدُ علىٰ القَـدْرِ المطلـوب لنشـأةِ الحيــاة). (إنْ كــان ثمَّــة أُمــور في الطَّبيعــة تحــدُثُ بطريقــةٍ تُثـيرُ الــذُّهولَ والإعجاب، فإنَّ هـذه الأُمـور سـتُرىٰ بنحـوٍ أفضـل كأدلَّـةٍ لصـالحِ الاعتقـاد بإله)[1]. وقدَّم ليسلي أمثلةً علىٰ هذه الأُمور:

١ - مبدأُ النِّسْـبيَّة الخاصَّـة: يُؤكِّـدُ علىٰ أنَّ لـبعضِ القـوىٰ، مثـل القـوَّة الإلكترومغناطيسـية، تـأثيراً غـير متغـيِّر، بغـضِّ النَّظَـر عـمَّا لـو كانـت تفعـل فعلَهـا عنـد زاويـا قائمـة مـع اتِّجـاهِ حركـة النظـام. وهـذا يَسْـمَحُ لشـفرةِ الجينـات بـأنْ تعمَـل، وللكواكـبِ بـأنْ تبقـىٰ مترابطـةً (متماسـكةً) عنـد الدَّوران[2].

---

(١) John Leslie, Infi nite Minds (Oxford: Clarendon, ٢٠٠١), ٢١٣.

(٢) غالبـاً يُسـتَخدم تعبـير (rit angle) للزوايـا القائمـة (٩٠ درجـة)، حيـث يكـون اتِّجـاه المجـال المغناطيسـي متعامد مع المجال الكهربائي، وكلاهمـا عمـودي علىٰ اتِّجاه الحركـة بشـكل عـامّ.

٢ - قوانينُ الكمِّ: تمنَعُ الإلكترونات من الحركةِ في مسارٍ لولبيٍّ للاندماجِ مع نواةِ الذرَّة (= لتسقُط في نواةِ الذرَّة)[١].

٣ - للإلكترومغناطيسية قوَّة واحدة: وهذا يجعلُ العديد من العملياتِ الهامة ممكنة؛ فمثلاً يسمَحُ للنُّجومِ بأنْ تُضيءَ بمعدَّلٍ ثابت (أو بشكلٍ منتظمٍ) لمليارات السِّنين. وهو ما يجعل تكوُّن الكربون في النُّجوم ممكناً، وهذا بدورِهِ يضمن عدم استبدال اللَّبْتونات[٢] بالجُسيماتِ الذرِّية (quarks)، ويترتَّب عليه استحالة تشكُّل الذرَّات. وهذا ما يُحتِّم علىٰ البروتونات أنْ لا تتحلَّل سريعاً ولا تصطدم مع بعضِها البعض بقوَّة، وهو ما قد يُؤدِّي إلىٰ أنْ تصبح الكيمياء مستحيلة. كيف يمكن لقوَّةٍ واحدةٍ أنْ تُلبِّي احتياجات كثيرة ومختلفة، في حين يبدو أنَّنا بحاجةٍ لقوىٰ عديدة لكلِّ واحدةٍ من هذه العمليات[٣]؟

* * *

والحالة المذكورة حالة خاصَّة، لا يُشترَط فيها تعامدهما مع اتِّجاه الحركة. (المراجع).

(١) حيث إنَّ شحنة الإلكترون سالبة، والنواة فيها البروتونات موجبة. وهذا دفع العلماء قبل عدَّة قرون عند صدور نظريات تُفسِّر محتويات الذرَّة بأنْ يتساءلوا عن سبب عدم حركة الإلكترون في مسارٍ لولبي ليلتصق بالنواةِ الموجبة بسبب التجاذُب بينهما! واتَّضح فيما بعد بالتجارب أنَّ الإلكترون يدور في مسارٍ معنيٍّ حول النواة، وأنَّ القوىٰ المؤثِّرة عليه (الجذب، الطرد المركزي...) متعادلة، فيبقىٰ في مساره، ممَّا يضمن استقرار الذرَّة. (المراجع).

(٢) اللبتون هو جسيم أوَّلي ومكوِّن أساسي للمادَّة. أشهر اللبتونات المعروفة هو الإلكترون والذي يحكم عمليات الكيمياء كلّها لأنَّه موجود في أغلفة الذرّات وترتبط به الخصائص الكيميائية كلّها. وتوجد فئتان أساسيتان للبتونات: المشحونة منها (وتُعرَف أيضا بلبتونات شبيه - الإلكترون)، ومحايدة (المشهورة باسم نيترينو).

(٣) Leslie, Infi nite Minds, ٢٠٣-٥.

العبورُ إلى الكونِ المُتعدِّد
(ACROSS THE MULTIVERSE)

نظريةُ الأكـوان المتعـدِّدة تقـع في النُّقطـةِ المقابلـة لفكـرةِ الصُّـنْع الإلهـي (مع ذلك سوف أحاولُ التَّـدليل عـلىٰ أنَّ وجـودَ الأكـوان المتعـدِّدة لـن يُلْغـي السُّـؤال عـن المَصْـدرِ الإلهـي). عـالِمُ الكونيـات مـارتن ريـس (Martin Rees) هو أحدُ أكبر مؤيِّدي فكرة الأكوان المتعدِّدة. لاحظَ ريس أنَّ:

(أيَّ كونٍ مُهيَّـأ للحيـاةِ - وهـو مـا يمكـن أنْ نُسـمِّيهِ (الكـون الحيـوي Biophilic universe) - يجـب أنْ يـتمَّ (تعديلُـهُ) عـلىٰ نحـوٍ معـيَّنٍ. تـوفُّرُ الشُّـروط الأساسـية لحيـاةٍ أيِّ نـوع نعرِفُـهُ مرهـونٌ بـأُمورٍ - كـالنُّجومُ الموجـودة منـذُ القِـدَم، والـذرَّات المسـتقرَّة مثـل الكربـون والكربـون والسِّليكون التي يمكـن أنْ تجتمـعَ في مركَّـبٍ معقَّـدٍ مـن الجزئيـات... الـخ - تتـأثَّر بشـكلٍ دقيـقٍ بـالقوانينِ الفيزيائيـة، وحجـم ومُعـدَّل توسُّـع الكـون ومحتوياتِهِ)[1].

يقـولُ ريـس: إنَّ ذلـك يمكـن تفسـيرُهُ مـن خـلالِ فرضـيَّة وجـود (أكوان) كثيرة، مـع قـوانين وثوابـت فيزيائيـة مختلفـة، وكونُنـا كجُـزْءٍ ينتمـي إلىٰ مجموعـةِ أكـوان، حـدَثَ نتيجـةً لظُهـورِ تعقيـدٍ (complexity) ووعـي

(١) Martin J. Rees, “Numerical Coincidences and ‘Tuning’ in Cosmology,” Astrophysics and Space Science ٢٨٥ (٢٠٠٣): ٣٧٦.

(consciousness). وإذا كان هذا هو الحال، فإنّ التوافق الدّقيق لن يكونَ مَصْدرَ تعجُّبٍ.

ذكرَ ريس أكثرَ الاختلافات تأثيراً في فكرةِ الأكوان المُتعدِّدة. في فكرةِ (التمدُّد الأبدي)، قدَّمَ علماءُ الكون أندريه لنده (Andrei Linde) وأليكس فيلنكن (Alex Vilenkin)، الفكرةَ القائلةَ بأنَّ الأكوانَ المُتعدِّدة نشأت عن انفجاراتٍ عظيمةٍ لكُلٍّ من هذه الأكوان مع اختلافٍ في البُعْدِ الزّماني والمكاني من الكونِ الذي نعيشُ فيه. أُطروحةُ الثُّقب الأسود لكُلٍّ من آلان غوث (Alan Guth)، ديفيد هاريسون (David Harrison)، ولي سمولين (Lee Smolin) ترىٰ أنَّ الأكوانَ نتجت عن ثُقوبٍ سوداء (Black Holes) علىٰ صورةِ مجالاتٍ زمكانية غير متواصلة (mutually inaccessible). وأخيراً، افترَض كلٌّ من ليزا راندال (Lisa Randall) ورامان ساندرم (Raman Sundrum) أنَّ هناك أكواناً في أبعادٍ مكانيةٍ مختلفةٍ قد تتفاعل أو لا تتفاعل مع بعضِها البعض بفعلِ الجاذبية. أشارَ ريس إلىٰ أنَّ فكرةَ الأكوان المُتعدِّدة (تخمينيَّةٌ بنحوٍ كبير)، وهي تتطلَّبُ وجود نظرية تصِفُ باتِّساقٍ فيزياءَ الكثافات العالية (ultrahigh densities)، وتكوين البُنىٰ (configuration of structures) وِفْقَ أبعادٍ إضافية، وهكذا دواليك. وقد لاحظَ ريس أنَّ واحدةً من هذه الأفكار فقط يمكن أنْ تكونَ صحيحة. بل في الحقيقة، أضاف: (يمكن ألّا يكون أيٌّ منها كذلك: فهناك نظرياتٌ بديلةٌ تقودُ إلىٰ أنَّ هناك كوناً واحداً)[1].

* * *

(١) Rees, "Numerical Coincidences and 'Tuning' in Cosmology," ٣٨٥.

نظرية البندقية متعدِّدة الاتِّجاهات

(A BLUNDERBUSS THEORY)

رفـضَ كـلٌّ مـن بـول ديفيـز (Paul Davies) وريتشـارد سـوينْبيرن (Richard Swinburne) فكـرةَ الأكـوان المتعـدِّدة. ديفيـز، وهـو عـالِمٌ فيزيـائيٌّ وعـالِمُ الكونيـات، كتَـبَ: (مـن الصَّـحيحِ أنَّ في الكـونِ اللَّامتنـاهي، كـلُّ شيءٍ يمكـن أنْ يحـدُثَ فسـوفَ يحـدُثُ)[١]، ولكـن هـذا لـيس تفسـيراً عـلىٰ الإطـلاق. إنْ كُنَّـا في مقـامِ محاولـة فهـم لماذا يُعتَـبرُ الكـونُ صـديقاً لصـالحِ نشـأةِ وبقـاءِ الحيـاة، فلـن يفيـدنا أنْ يُقـالَ: إنَّ جميـعَ الأكـوان الممكنـة هـي موجـودةٌ. نظريـةُ الأكـوان المتعـدِّدة (مثـلُ البندقيـة المتعـدِّدة الجوانـب، فهـي تُفسِّـرُ كلَّ شيءٍ ولا تُفسِّـرُ شـيئاً)، ويعنـي ديفيـز بـذلك أنَّها ادِّعـاءٌ لا معنـىٰ له. إذا قُلْنا أنَّ العالَمَ وكلَّ ما فيـه جـاءَ إلىٰ الوجـودِ قبـلَ خمـس دقـائق - بـما في ذلـكَ ذكريـات سـنواتٍ عديـدة عِشْـناها وأدلَّـة عـلىٰ أحـداثٍ وقعـت منـذُ آلافِ السِّنين - فإنَّ ادِّعاءَنـا غـيرُ قابـلٍ للـدَّحض. فهـو يُفسِّـرُ كـلَّ شيءٍ ولا يُفسِّرُ شيئاً في وقتٍ واحد[٢].

---

(١) يعني طالما فرضنا أنَّ ثَمَّـة كونـاً غـير متنـاهٍ، فكـلُّ حادثـةٍ ممكنـة، لا بـدَّ أنْ تـأتي لحظـةً تحـدُثُ فيها تلك الحادثة، طالَ الزَّمان أو قَصُر. (المراجع).

(٢) يشـير (ديفيـز) هنـا إلىٰ مشـكلة الـذاكرة المعروفـة في الفلسـفة، التـي لخَّصـها برترانـد رسـل بقولـه: (لا توجـد اسـتحالة منطقيـة في افـتراض نشـأة العـالَمَ منـذ خمـس دقـائق مضـت مـع وجود رهط هائل من ذكريات لماضٍ لم يقع). (المراجع).

التَّفسيرُ العِلْمـي الصَّـحيح، كـما يقـولُ ديفيـز، يشـبهُ رصاصـةً واحـدةً محدَّدةَ الاتِّجاه. فكـرةُ الأكـوان المتعـدِّدة تسـتبدلُ كونـاً واقعيـاً منـتظماً عقلانيـاً بمركَّبٍ لا متناهٍ مـن أكـوانٍ وتجعَـلُ عمليـة (التَّفسـير) بأسرِهـا لا معنـىٰ لهـا. سوينْبيرن كـان قويَّـاً في ازدرائِـهِ لتفسـيرِ الأكـوان المتعـدِّدة، (إنَّـه مـن الجنـونِ افتراض وجـود مليـارات الأكـوان (غـير مرتبطـة سـببياً) كمصـادرةٍ لتفسـيرِ معالِمِ كونٍ واحد، وذلـك عنـدما يفـي افـتراضُ وجـودِ كـائنٍ واحـدٍ (الإلـه) بأداءِ المهمَّة)[1].

ثلاثةُ أُمورٍ يمكن أنْ تُقالَ فيما يتعلَّق بحُجَّةِ التوافقِ الدَّقيق:

الأوَّل: ثَمَّـة حقيقـة صَـلْبة تُؤكِّـدُ بأنَّنـا نعـيشُ في كـونٍ فيـه قـوانين محدَّدة وثوابت (فيزيائية)، وأنَّ الحياةَ فيـه لم تكـن ممكنـةً فيـما لـو كانـت بعـض هذه القوانين والثوابت مختلفة.

الثـاني: حقيقـة أنَّ القـوانينَ والثوابـتَ الموجـودة تسـمحُ ببقـاءِ الحيـاة، لا تُجيـبُ عـن السُّـؤالِ حـولَ أصـلِ الحيـاة. هـذا سـؤالٌ مختلـفٌ تمامـاً، كـما سـوف أُحـاول أنْ أُبـيِّن؛ أنَّ هـذه الشُّـروطَ ضروريـةٌ لنشـأةِ الحيـاة، لكنَّهـا ليست كافية.

الثالـث: حقيقـة أنَّ مـن الممكـنِ منطقيـاً أنْ تكـونَ هنـاك أكـوانٌ متعدِّدةٌ مـع قوانينِهـا الخاصَّـة بطبيعتِهـا، لا يعنـي أنَّ هـذه الأكـوانَ موجـودةٌ فعلاً. فحالياً لا يوجـدُ دليـلٌ يـدعَمُ فكـرةَ الأكـوان المتعـدِّدة. وسـتظلُّ فكـرةً تخمينية.

ما هو مهمٌّ جـدَّاً هنـا هـو أنَّ فرضـيةَ وجـود أكـوان متعـدِّدة لا تُفسِّـرُ

---

(١) Paul Davies, "Universes Galore: Where Will It All End?" http://aca.mq.edu.au/PaulDavies/publications/chapters/Universesgalore.pdf.

أصلَ وجود قوانين الطَّبيعة. يعتبرُ مارتن ريس (Martin Rees) أنَّ فكرةَ الأكوان المتعدِّدة التي لها قوانينها الخاصَّة بها تطرحُ سؤالاً حول القوانين الكُلِّية التي تحكُمُ كلَّ الأكوان، النظريةُ الشَّاملةُ التي تشبهُ قائد فِرْقة العَزْف الموسيقية. (القوانينُ الكُلِّية التي تحكُمُ الأكوانَ المتعدِّدة ربَّما تسمحُ بوجودِ تفاوتٍ بين الأكوان، فبعضُ ما نعتبرُهُ (قوانين طبيعية) قد تكونُ - وفقاً لوجهةِ النظر هذه - قوانين محلِّية متناغمة مع القوانينِ الكُلَّية، ولكن القوانين المحلِّية وفقاً لهذه النظرية ليست ثابتة)[1].

سؤالُنا عن كيفيةِ تحكُّم القوانين بالأكوانِ المُتعدِّدة يُماثلُ سؤالَنا عن أصلِ قوانين الطَّبيعة بشكلٍ عامٍّ. كتَبَ بول ديفيز يقول: إنَّ (أنصارَ نظرية الأكوان المُتعدِّدة عادةً ما يكونون غامضين حول كيفية اختيار قيم المُتغيِّرات (parameter values) في هذا المجمع الكوني. إذا كان هناك (قانون للقوانين) يُحدِّدُ قِيَمَ المُتغيِّرات، فإنَّ ذلك يعني أنَّنا نحيلُ كلَّ كونٍ إلىٰ الكونِ الآخر، وعندها نكونُ نقلنا المشكلةَ مرتبةً إلىٰ الأعلىٰ، لماذا؟ أوَّلاً لأنَّنا بحاجةٍ إلىٰ تفسيرٍ من أين جاءَت هذه القوانين)[2].

يقولُ البعضُ: (إنَّ القوانينَ حدثت عَرَضاً كنتيجةٍ للطَّريقةِ التي بَرَدَ فيها الكونُ بعد الانفجارِ العظيم. لكن كما أشارَ ديفيز، فإنَّ هذه الحوادثَ يمكنُ اعتبارُها ظهوراً ثانوياً لقوانينَ عميقة تحكُمُ مجمعَ الأكوان. مرَّةً أخرىٰ، حتَّىٰ تطوُّر قوانين الطَّبيعة والتغيُّرات علىٰ الثوابتِ تتبَعُ قوانينَ معيَّنة، ونعودُ مرَّةً أُخرىٰ إلىٰ السُّؤالِ عن كيفيةِ حدوث هذه القوانين العميقة. مهما أرْجَعْنا إلىٰ الوراءِ خصائصَ نشأة الكون بكيفيةٍ

(١) Rees, “Numerical Coincidences and ‘Tuning’ in Cosmology,” ٣٨٦.

(٢) Davies, “Universes Galore: Where Will It All End?”

معيَّنة، فإنَّ هذه النَّشأةَ لا بدَّ أنْ تتَّبعَ قوانين قبْلِيَّة محدَّدة)[١].

سواءٌ أكان هناكَ أكوانٌ متعدِّدة أو لا، فإنَّنا لا بدَّ أنْ نعودَ إلىٰ السُّؤال: من أينَ جاءت هذه القوانين؟ والتَّفسيرُ الوحيدُ المقنع هنا هو العقلُ الإلهي.

* * *

(١) Martin Rees, “Exploring Our Universe and Others,” in The Frontiers of Space (New York: Scientifi c American, ٢٠٠٠), ٨٧.

الفصل السابع:

كيف حدثت الحياة؟

HOW DID LIFE GO LIVE?

عنـدما عرَضَـت وسـائلُ الإعـلام لأوَّلِ مـرَّةٍ خـبَرَ التغـيُّر في رُؤيتـي الكونيـة، تـمَّ الاستشـهاد بكلامـي بـأنَّ أبحـاثَ علـماء الأحيـاء في الحمـضِ النووي (DNA) أظهـرت، عـن طريـقِ التَّعقيـد غـير القابـل للتَّصـديق تقريبـاً للترتيبـاتِ اللازمـة لإنتـاجِ حيـاةٍ، أنَّ الـذَّكاءَ لا بـدَّ أنْ يكـونَ وراءَ هـذه العمليـة. كتَبْـتُ في السَّـابقِ أنَّـه كـان هنـاك مجـالٌ لتقـديمِ حُجَّـةٍ جديـدةٍ في التَّصـميم لتفسـيرِ النُّشـوء الأوَّل للحيـاةِ مـن مـادَّةٍ غـير حيَّـة، خصوصـاً إذا كانت المادَّةُ الحيَّةُ الأُولىٰ قد امتلكـت القُـدْرةَ عـلىٰ إعـادةِ إنتـاجِ نفسِـها جينيَّـاً. وقُلْتُ: إنَّه لا يوجدُ تفسيرٌ طبيعيٌّ شافٍ لظاهرةٍ من هذا القبيل.

هذه التَّصـريحاتُ أثارت غضبـاً مـن النُّقَّـادِ الـذين ادَّعـوا أنَّنـي لم أكـن علىٰ درايـةٍ بأحـدَثِ الاكتشـافات في مجـالِ التولُّـد التلقـائي (Abiogenesis)[1]. ريتشارد دوكينـز ادَّعـىٰ أنَّنـي لجـأتُ إلىٰ (إلـهِ الفجـوات God of the gaps)[2].

---

(١) عملية طبيعية من الحياة الناشئة من مواد غير حيَّة مثل مركَّب عضوي بسيط.

(٢) مصـطلح يقصـد بـه المُلْحـدون الجُـدُد أنَّ المـؤمنين بالإلـه يلجـأون عـادةً لافـتراضِ وجـود الإله كلَّما عجزوا عـن تفسـير الظـواهر الطبيعيـة. فكلَّـما أعـوزهم تفسـير ظـاهرة مـن ظـواهر الطبيعـة، لأنَّ العِلْـمَ لم يظفـر بعـدُ عـلىٰ تفسـيرٍ لهـا، لجـأوا لافـتراضِ أنَّ الإلـه هـو وراء هـذه الظاهرة. لذا فهـذه الحالـة – في نظـر المُلْحـدين الجُـدُد – تبعـث عـلىٰ الكسـل العقـلي، وتُطفـئ شعلة البحث عن تفسـير علمـي للظـواهر الطبيعيـة. لـذا يـرىٰ هـؤلاء أنَّـه كلَّـما تقـدَّم العِلْـم ونجـح في تقـديم تفاسـير للظـواهر الطبيعيـة، تقلَّصـت الحاجـة لافـتراض وجـود إلـه، لأنَّ الفجوات سوف تقلُّ بالتدريج.

ونحن نـرىٰ أنَّ هـذا الـوهمَ خـاطئٌ للغايـة. فالإلـه الـذي نـؤمن بـه هـو وراء هـذه الظـواهر الطبيعيـة، والإيـمان بـه لا يُلْغـي دورَ الأسـباب والعِلَـل الفاعليـة للظـواهر الطبيعيـة، ولا

في مقدِّمتي الجديدة لطبعةِ عام (٢٠٠٥م) من كتابِ (الإله والفَلْسفة) قُلْتُ: (إنَّني شخصياً مسرورٌ لأنَّ أصدقائي من علماءِ الأحياء أكَّدوا لي أنَّ علماءَ الأحياء البكتيرية باتوا قادرين حالياً علىٰ تقديمِ نظرياتٍ في التطوُّرِ بخصوصِ المادَّة الحيَّة الأُولىٰ، وأنَّ العديدَ من هذه النظريات تتوافقُ مع جميعِ الدَّلائل العِلْمية المؤكَّدة)[١]. لكن يجب أنْ أُضيفَ إلىٰ ذلك أنَّ الأعمالَ الحديثة التي رأيتُها، والتي تعكسُ وجهةَ نظر علماء الفيزياء في عُمْرِ الكون، تُعطي وقتاً قصيراً لهذه النَّظريات في مجالِ الأحياء البكتيرية لوقوعِ ما يدَّعون[٢].

هناك اعتبارٌ أكثَرَ أهمِّية يتمثَّلُ في التحدِّي الفَلْسفي الذي يواجهُ دراسات أصل الحياة. فمعظمُ دراسات أصل الحياة التي يقومُ بها العلماءُ، نادراً ما تأخُذُ في الاعتبار البُعْد الفَلْسفي لمكتشفاتِهم.

في المقابلِ، فإنَّ الفلاسفةَ لم يقولوا سوىٰ القليل عن الطَّبيعةِ وأصلِ الحياة. السُّؤالُ الفَلْسفي الذي لم تتمّ الإجابة عنه في دراساتِ

يُطفئ شعلة البحث العِلْمي، بل علىٰ العكس، فلطالما حثَّت النُّصوص الدِّينية علىٰ النظر والتفكُّر والبحث والسير في الأرض، باعتبار أنَّ الكون بكلِّ ما يزخر به من ظواهر إنَّما هو تجلٍّ لأفعالِ الله، فكلَّما تقدَّم العِلْم، انكشفَ جانبٌ من عظمةِ ودقَّة فعل الله تعالىٰ. (المراجع).

(١) Freeman J. Dyson, Disturbing the Universe (New York: Harper & Row, ١٩٧٩), ٢٥٠. Also cited in John Barrow and Frank Tipler, The Anthropic Cosmological Principle (Oxford: Clarendon, ١٩٨٨), ٣١٨.

(٢) يقصد (فلو) أنَّ التطوُّر حتَّىٰ يحصل لهذه المادَّة، وفقاً لهذه النظريات في عِلْم الأحياء، ابتداءً من مادَّةٍ صمَّاء، مروراً بمادَّةٍ حيَّةٍ أُولىٰ بسيطة، ثمَّ مادَّة حيَّة مُعقَّدة، وانتهاءً بمادَّةٍ بالغة التعقيد تنطوي علىٰ وعي (كما نجدُ في الإنسان)، تتطلَّبُ زمناً أطول بكثير من الزَّمنِ الذي يُقدِّمُهُ علماءُ الفيزياء الكونية لعُمْرِ الكون. (المراجع).

أصل الحياة هو هذا: كيف يمكن لكونٍ ذي مادَّةٍ لا عقلَ لها أنْ تُنْتِجَ كائناتٍ لها غاياتٌ حقيقيَّة (Intrinsic ends)، ولها قابلياتٌ علىٰ التكاثُرِ الذَّاتي، ومُشفَّرة كيميائياً coded chemistry)؟

هنا نحنُ لا نتعاطىٰ مع عِلْمِ الأحياء (biology)، وإنَّما نتحدَّث عن مشكلةٍ من مقولةٍ مختلفةٍ تماماً.

* * *

الكائنُ العُضْوي الهادف[1]

(THE PURPOSE-DRIVEN ORGANISM)

دعونا ننظُرُ أوّلاً في طبيعةِ الحياة من وجهةِ نظرٍ فَلْسفية. المادَّةُ الحيَّة تمتلكُ هدفاً موروثاً أو نظاماً مُحدَّدَ الغاية وليس موجوداً علىٰ الإطلاقِ في المادَّةِ التي جاءت منها. في واحدةٍ من الأعمالِ الفَلْسفية القليلة التي كُتِبَت حولَ الحياة، قدَّمَ ريتشارد كاميرون (Richard Cameron) تحليلاً مفيداً عن وجهةِ (directedness) الكائنات الحيَّة.

أيُّ شيءٍ حيٍّ، كما يقولُ كاميرون، هو غائيٌّ (teleological)، بمعنىٰ أنَّه يملكُ نهايات، أهداف، أو غايات[2]. كَتَبَ كاميرون: (علماءُ الأحياء المعاصرون، وفلاسفةُ عِلْم الأحياء، والعاملونَ في مجالِ (الحياة

(١) الترجمة الحرفية لهذا العنوان هي ما يلي: (الكائن العضوي الذي يُساق نحوَ غاية). (المراجع).

(٢) يريد (فلو) هنا أنْ يستعين بما يُعرَف بـ (الحُجَّة الغائية)، التي يُعبَّر عنها في أدبياتنا الفَلْسفية بدليلِ (العناية) أو (التدبير) أو (الهداية)، الذي يتحدَّث عن وجودِ قوَّة تكوينية تسوقُ الكائنات الحيَّة إلىٰ كمالها. بعبارةٍ أُخرىٰ: ثَمَّة علاقة خفيَّة بين الشَّيءِ ومستقبلِهِ، أي الغاية التي يتَّجه إليها؛ كالعلاقة بين الطَّيرِ وبناء العُشِّ، فثَمَّة قوَّة تسوقُ الطَّير إلىٰ بناءِ العُشِّ، بعد خروجهِ من البيضةِ مباشرة، حتَّىٰ لو فُصِلَ عن أبويه، وقبلَ أنْ يتعلَّمَ منهما شيئاً. وقد يُعبَّر عن هذه القوَّة بـ (الهداية التكوينية). فالفأرة تفرُّ من الهرَّة، ولا تفرُّ من الشَّاة. والنملُ والنحلُ يهتدي بنحوٍ تكويني إلىٰ تشكيلِ مجتمعٍ وبناءِ مساكن، والطفلُ يهتدي إلىٰ ثدي أُمِّهِ ويرتضع منه في بدءِ ولادتِهِ... الخ. (المراجع).

الاصطناعية)، لم يأتوا حتَّىٰ الآن ببيانٍ مقنعٍ يُحدِّدُ متىٰ يكون الكائنُ حيَّاً، وقد دافعْتُ عن فكرةِ أنَّ أُرسطو يمكن أنْ يُساعدَنا في ملءِ هذا الفراغ... فأُرسطو لم يدَّعِ أنَّ الحياةَ والغائية متلازمانِ بالصُّدفةِ هكذا بسهولة، وإنَّما عرَّفَ الحياةَ بحُدُودٍ (ألفاظٍ) غائية، مؤكِّداً علىٰ أنَّ الغائيةَ هي أمرٌ أساسيٌّ لحياةِ الأشياء الحيَّة)[1].

أصلُ التكاثُر الذَّاتي هو المشكلةُ الرِّئيسيةُ الثانية. الفيلسوفُ المُتميِّز جون هالدين (John Haldane) لاحَظَ أنَّ نظريات أصل الحياة (لا تُقدِّمُ تفسيراً كافياً، طالما أنَّها تفترضُ مسبقاً وجودَ التكاثُر الذَّاتي في مرحلةٍ مبكِّرة، ولم يتبيَّن أنَّ هذا التكاثُر يمكن أنْ يتمَّ من خلالِ الوسائل الطَّبيعية من أصلٍ ماديٍّ)[2].

ديفيد كونواي يُلخِّصُ هذينِ المأزقينِ الفَلْسفيَّينِ في ردِّهِ علىٰ ادِّعاءِ دافيد هيوم، بأنَّ نظامَ الحفاظ علىٰ الحياةِ في الكون لم يُصمَّم من قِبَلِ أيِّ شكلٍ من أشكالِ الذَّكاء. التحدِّي الأوَّل هو في تقديمِ تفسيرٍ ماديٍّ (للانبثاقِ الأوَّل للمادَّةِ الحيَّة من مادَّةٍ غير حيَّة. كونُ المادَّة حيَّة يعني أنَّ لها نظاماً غائياً، وهو غيرُ مُتحقِّقٍ فيما هو قبلَها). أمَّا التحدِّي الثاني فهو تقديمُ تفسيرٍ ماديٍّ (لانبثاقِ الحياة من أشكالٍ أوَّليةٍ مُتقدِّمة، كانت غير قادرة علىٰ التكاثُر ذاتياً، وإنتاج كائنات حيَّة قادرة علىٰ التكاثُر. من دون

(١) Richard Cameron, "Aristotle on the Animate: Problems and Prospects," Bios: Epistemological and Philosophical Foundation of Life Sciences, Rome, February ٢٣–٢٤, ٢٠٠٦.

(٢) John Haldane, "Preface to the Second Edition," in Atheism and Theism (Great Debates in Philosophy), J. J. C. Smart and John Haldane (Oxford: Blackwell, ٢٠٠٣), ٢٢٤.

وجود مثل هذه القدرة، ما كـان مـن الممكـن لهـذه الأنـواع المختلفـة أنْ تنبثِـقَ من خلالِ طفرةٍ عشـوائيةٍ وانتقـاءٍ طبيعـي. وفقـاً لـذلك، فـإنَّ هـذه الآليـة لا يمكنُ الاحتجاجُ بهـا في أيِّ تفسـيرٍ لكيفيـةِ (تطـوُّر) صـور حيـاة تتـوفَّر فيهـا هـذه القـدرة مـن أشـياءٍ تفتقـرُ لـذلك). ويخلُـصُ كونـواي إلىٰ أنَّ الظَّـواهرَ البيولوجيـة هـذه (تُزوِّدُنـا بسـببٍ يـدفعُنا للشَّـكِّ في إمكانيـةِ انبثـاق صـور للحياةِ من أساسٍ ماديٍّ محض، دون اللُّجوء إلىٰ التَّصميم)[1].

* * *

---

(١) David Conway, The Rediscovery of Wisdom (London: Macmillan, ٢٠٠٠), ١٢٥,٢٢٠

تحدٍّ تصوُّريٌّ عميق

(A DEEP CONCEPTUAL CHALLENGE)

ثَمَّةَ بُعْدٍ فَلْسفيٌّ ثالثٍ لأصلِ الحياة يتعلَّقُ بأصْلِ تشفير (coding) ومعالجة المعلومات، الذي هو أمرٌ أساسيٌّ لجميعِ أشكال الحياة. أفضلُ وصفٍ لذلكَ قُدِّمَ من قِبَلِ عالِمِ الرِّياضيات ديفيد بيرلينسكي (David Berlinski)، الذي يُشيرُ إلىٰ أنَّ هناكَ قصَّةً دراميةً غنيةً تُحيطُ بفهمِنا الحالي للخلية.

الرِّسالةُ الوراثية في الحمضِ النووي (DNA) تتكرَّرُ في النُّسَخِ المتماثلة، ثمَّ يتمُّ نسخَها من الحمضِ النووي (DNA) إلىٰ الحمضِ النووي الرَّيبوزي (RNA)[1]. وبعد هذا تتمُّ ترجمةُ الرِّسالةِ ونقلُها من الحمضِ

(١) عبارة عن (بوليمر مضي نووي) مؤلَّف من ارتباط تكافئي لمجموعة من (النيكليوتيدات). الحمض النووي الريبوزي هو واحد من ثلاثة جزيئات ضخمة بيولوجية تُعتبر أساسيَّة لكلِّ أشكال الحياة (مع الحمض النووي الريبوزي منقوص الأوكسجين والبروتينات). ثَمَّة اعتقاد أساسي مُتَّصل بالبيولوجيا الجزيئية يفيد بأنَّ تدفّق المعلومات الوراثية في الخليَّة يتكوَّن من الـ (دي إن إيه DNA) الذي يصنع الـ (آر إن إيه RNA) والذي بدوره يصنع (البروتينات). البروتينات هي حصان العمل في الخليَّة، حيث تلعب دوراً رئيسياً في الخليَّة كإنزيمات، كمكوِّنات هيكلية، أو في إشارات الخليَّة، علىٰ سبيل المثال لا الحصر. يلعب الـ (دي إن إيه) دوراً أساسيّاً كمخطّط في الخليَّة، حيث يحمل كلَّ المعلومات الوراثيَّة اللازمة لنموِّ الخليَّة، للحصول علىٰ الموادِّ الغذائية والتكاثر. هنا يكمن دور الـ (آر إن إيه) في (الخليَّة) عندما تحتاج إنتاج بروتين

النـووي الرَّيبـوزي (RNA) إلىٰ الأحمـاضِ الأمينيـة، وأخـيراً يـتمُّ تجميـعُ الأحمـاض الأمينيـة إلىٰ بروتينـات. يـتمُّ التَّنسـيقُ بـين البُنْيتـينِ المختلفتـينِ الأساسـيَّتينِ لإدارةِ المعلومـات والنَّشـاط الكيميـائي في الخليـةِ عـن طريـقِ شفرةٍ وراثيةٍ عالمية.

الطَّبيعـةُ الرَّائعـةُ لهـذه الظـاهرة تصـبحُ واضـحةً عنـدما نُسـلِّطُ الضَّـوءَ علىٰ كلمةِ (شفرة).

يقـولُ بيرلينسـكي: (الشَّـفرة في حـدِّ ذاتِهـا مألوفـةٌ بحـدٍّ كـافٍ، فهـي عبـارةٌ عـن مُخطَّـطٍ اعتبـاطيٍّ (arbitrary) أو نظـامٍ للـرَّبطِ بـين اثنـينِ مـن الموضـوعاتِ المنفصـلة. لنأخُـذ مثـالاً مألوفـاً، شـفرةُ مـورس (Morse code)[1] عـلىٰ سـبيلِ المثـال تُنسِّـقُ النُّقـاطَ والشَّـرْطاتَ مـع الأحـرُفِ الأبجديـة. وعنـدما نسـتخدمُ كلمـةَ (اعتبـاطي)، فإنَّنـا نريـدُ بـذلك التَّفريـقَ بـين الشَّـفرةِ والـرَّبطِ الفيزيـائي الصِّـرْف بـين موضـوعين. وعنـدما نقـولُ: إنَّ الشَّـفرةَ تتضـمَّنُ مُخطَّطـاً، فإنَّنـا نريـدُ أنْ نُؤكِّـدَ عـلىٰ مفهـومِ الشَّـفرة بلُغـةٍ

معـيّن، حيـث إنَّـه يقـوم بتفعيـل (جـين) البروتـين (جـزء مـن الــ(دي إن إيـه) يُشـفِّر ويرمـز لـذلك البروتـين)، وإنتـاج نسـخ متعـدِّدة منه علىٰ شـكل (حمـض نـووي ريبـوزي رسـول). تلـك النسـخ تُسـتخدم لترجمـة (الشـفرة الجينيـة) مـن أجـل صـنع البروتـين عـن طريـق (الرايبوسومات). ويسـتطيع الــ(آر إن إيـه) أن يزيـد مـن كمّيـة بـروتين معـيَّن يمكـن صـنعه في مرحلة واحدة من جين معـيَّن، كـما أنَّـه يُشـكِّل نقطـة تحكـم مهمَّـة مـن أجـل تنظـيم وقـت وكمّية إنتاج بروتين مُحدَّد.

(١) شـفرة مـورس هـي (شـفرة) حرفيـة مـن أجـل إرسـال المعلومـات (التلغرافيـة)، باسـتخدام تتابعـات قياسـية مـن عنـاصر طويلـة وقصـيرة تُعـبِّر عـن الحـروف والأرقـام والعلامـات والحـروف الخاصَّـة الموجـودة في الرسـالة. العنـاصر الطويلـة والقصـيرة مـن الممكـن أن يـتمَّ تكوينهـا عـن طريـق صـوت أو علامـات أو فـتح وغلـق المفـاتيح وهمـا مشـهوران عـلىٰ أنَّهـما نقاط وعلامات مائلة.

رياضية. وعندما نُشيرُ إلىٰ أنَّ الرُّموزَ تعكسُ الارتباطَ علىٰ نحوٍ ما، فإنَّنا نُعيدُ تصوُّر الشَّفرة إلىٰ استخداماتِها البشرية).

ما سبَقَ يقودُنا بدورِهِ إلىٰ السُّؤالِ الكبير: (هل يمكنُ أنْ نُفسِّرِ أصل نظام التَّشفير الكيميائي بطريقةٍ لا تجعلُنا بحاجةٍ إلىٰ اللُّجوءِ إلىٰ تفسيرِ هذه الشَّفرات واللُّغات وأنظمة التواصل، علىٰ أساسِ الكلمات الرَّائجة في عالَمِ المادَّة؟)(١). كارل وويس (Carl Woese)، وهو أحدُ رُوَّاد دراسات أصل الحياة، يُلفِتُ الانتباهَ إلىٰ الطَّبيعةِ الفَلْسفيةِ الغامضة لهذه الظَّاهرة. فقد كتَبَ في مجلَّةِ (RNA) قائلاً: (الحقائقُ التَّشفيرية والميكانيكية والتطوُّرية لهذه المشكلة أصبحت مسائلَ منفصلة. فكرةُ تعبير الجين (gene expression)، علىٰ غرارِ فكرة تكرار الجين (gene replication)، التي كانت قائمةً علىٰ مبدأٍ فيزيائيٍّ، لم تَعُد صحيحة). ليس فقط لأنَّه لا وجودَ لمبدأ فيزيائي، بل لأنَّ وجودَ الشَّفرةِ بذاتِهِ هو لُغزٌ. (قواعدُ التَّشفير معروفةٌ، لكنَّها لا تُوفِّر أيَّةَ إشارةٍ لماذا توجدُ الشَّفرةُ ولماذا توجدُ آليةُ التَّشفير علىٰ النَّحوِ التي هي عليه). يعترفُ وويس بأنَّنا لا نعرفُ أيَّ شيءٍ عن جذورِ هذا النِّظام. (جذورُ الترجمة، قبلَ أنْ تُصبحَ آليةً صحيحةً لفكِّ الشَّفرة، صارت الآن جُزْءاً من الماضي، ولا أُريد أنْ أدخُلَ في تخميناتٍ عن عمليةِ صعود نجمِها، كما لا أُريدُ أنْ أدخُلَ في تخميناتٍ حول جذور نظام الشَّحن (TRNA) أو الشَّفرة الجينية (Q)(٢).

بول ديفيز سلَّطَ الضَّوءَ علىٰ المشكلةِ نفسِها. فقد لاحظَ أنَّ معظمَ نظريات النُّشوء الحيوي ركَّزَت علىٰ كيمياءِ الحياة (chemistry of life)،

(١) David Berlinski, "On the Origins of Life," Commentary (February ٢٠٠٦): ٢٥, ٣٠–٣١.

(٢) Carl Woese, "Translation: In Retrospect and Prospect," RNA (٢٠٠١): ١٠٦١, ١٠٥٦, ١٠٦٤.

ولكـن (الحيـاةُ هـي أكـبرُ مـن مجـرَّدِ مركَّـبٍ للتَّفـاعلاتِ الكيميائيـة. فالخليـةُ هي أيضـاً مكـانٌ لنظـامِ تخـزين ومعالجـة وتكـرار المعلومـات. نحـنُ بحاجـةٍ لشَرْحِ أصل هـذه المعلومـات، والطريقـة التـي تـتمُّ بهـا معالجـة المعلومـات). لـذا هـو يُؤكِّـدُ عـلىٰ حقيقـةِ أنَّ (الجـينَ لـيس سـوىٰ مجموعـة مـن التَّعلـيماتِ التَّشـفيرية، مـع وصـفةٍ دقيقـةٍ لتصـنيعِ البروتينـات). الأهـمُّ مـن ذلـك، أنَّ هــذه التَّعلــيمات الوراثيــة ليســت مــن نــوعِ المعلومــات التــي تجــدُها في الــديناميكا الحراريــة والميكانيكــا الإحصــائية؛ وإنَّــما هــي تُشــكِّلُ معلومــات دلاليــة (semantic information). بعبــارةٍ أُخــرىٰ: لــديها معنــىٰ مُحــدَّد. هــذه التَّعلـيمات يمكـن أنْ تكـون فعَّالـةً فقـط في بيئـةٍ جُزيئيـةٍ قـادرة عـلىٰ تأويـلِ المعنـىٰ بالشَّـفرةِ الوراثيـة. عنـدها يـبرُزُ السُّـؤالُ الأصـلي إلىٰ الواجهـة، وهـو (مشكلة كيـف يمكـن للمعلومـاتِ ذات المعنـىٰ أو الدَّلالـة أنْ تنبثِـقَ بصـورةٍ فوريةٍ من مجموعةٍ من الجُزيئـات غـير العاقلـة الخاضـعة لقـوىٰ عميـاء فاقـدة للهدف، تُمثِّلُ تحدِّياً تصوُّرياً عميقاً)[١].

* * *

(١) Paul Davies, “The Origin of Life II: How Did It Begin?” http://aca. mq.edu.au/ PaulDavies/ publications/papers/OriginsOfLife_II.pdf.

الرُّؤية من خلالِ زُجاجٍ مُعتِم
(THROUGH A GLASS DARKLY)

إنَّـه مـن الصَّـحيحِ أنَّ لـدىٰ علـماء الأحيـاء البكتيريـة نظريـات تطـوُّر تُفسِّـر نشأةَ المـادَّة الأُولىٰ، لكـنَّهم يتعـاملون مـع مقولـةٍ مختلفـةٍ مـن المشـكلة. إنَّهم يتعاملونَ مـع التَّفاعُـل الـدَّاخلي للمـوادِّ الكيميائيـة، في حـين أنَّ أسـئلتَنا هي عـن الكيفيـةِ التـي يكـون بهـا شيءٌ مـا مَسُـوقاً نحـوَ غايـةٍ نهائيـة؟ كيـف يمكن للمادَّةِ أنْ تُدارَ بواسطةِ آليـةٍ رمزيـة؟ لكـن حتَّـىٰ عـلىٰ المسـتوىٰ الخـاصّ بهم، فإنَّ علماءَ الأحياء البكتيرية مـا زالـوا بعيـدينَ جـدًّاً عـن الظَّفـرِ بجـوابٍ مُحـدَّدٍ عـن هـذه الأسـئلة. هـذا الموضـوعُ تـمَّ تسـليطُ الضَّـوءِ عليـه بواسـطةِ اثنين من أعلامِ الباحثين في أصلِ الحياة.

أنـدي نـول (Andy Knoll)، وهـو أُسـتاذُ عِلْـم الأحيـاء في جامعـةِ هارفارد ومؤلِّـفُ كتـاب (الحيـاةُ عـلىٰ كوكـبٍ ناشـئ: أوَّلُ ثلاثـة مليـار سـنة مـن الحيـاة Life on a Young Planet: The First Three Billion Years of Life)، يقول:

(إذا حاولنـا تلخـيصَ مـا نعرِفُـهُ عـن التـاريخِ العميـقِ للحيـاةِ عـلىٰ الأرض، عـن أصـلِها، عـن مراحِلِهـا المُتعـدِّدة التـي هيَّـأتْ فُرَصـاً لنشـأةِ الأحياء التي نراها حولَنا اليـوم، فأعتقـدُ أنَّ علينـا الاعـترافَ بأنَّنـا ننظُـرُ هنـا مـن خـلالِ زُجـاجٍ مُعـتِم. نحـنُ لا نعـرفُ كيـف بـدأت الحيـاةُ عـلىٰ هـذا

الكوكب، ولا نعرفُ متىٰ بدأت الحياةُ علىٰ وجهِ الدِّقَّة، ولا نعرفُ ما هي الظُّروف التي بدأت فيها)[١].

أنتونيو لازكانو (Antonio Lazcano)، رئيسُ الجمعيةِ الدُّولية لدراسةِ أصل الحياة، كتَبَ في أحدِ التقارير قائلاً: (هناك خاصّيةٌ للحياةِ تبقىٰ مؤكَّدة: الحياةُ ما كان لها أنْ تتطوَّرَ من دونِ آليةٍ جينية، آلية يمكنُ من خلالها تخزين ونقل معلوماتها الذرِّية التي يمكن أنْ تتغيَّر بمرورِ الوقت... بنحوٍ دقيقٍ، من غيرِ الواضح كيف تطوَّرت الآلية الجينية الأُولىٰ). ويُكمِل قائلاً: (في الحقيقةِ لن نكونَ قادرينَ علىٰ معرفةِ مسار أصل الحياة بنحوٍ دقيق علىٰ الإطلاق)[٢].

أمَّا بالنِّسبةِ لأصلِ التكاثُر، فإنَّ جون مادوكس (John Maddox)، وهو المُحرِّرُ الفخري لمجلَّةِ (الطَّبيعة Nature) كتَبَ قائلاً: (السُّؤالُ الرَّئيسي هو متىٰ (ثمَّ كيف) تطوَّرَ التكاثُر الجِنْسي بذاتِهِ؟ علىٰ الرَّغمِ من مرورِ عقود من التخمين، ما زلنا لا نعرِف)[٣].

وأخيراً، يُشيرُ العالِمُ جيرالد شرويدر (Gerald Schroeder) إلىٰ أنَّ وجودَ الظُّروف التي كانت لصالحِ نشأة الحياة ما زالت لا تُفسِّر كيف نشأَ أصْلُ الحياة بذاتِهِ. الحياةُ كانت قادرةً علىٰ الاستمرارِ علىٰ الكوكبِ فقط بسببِ توفُّر الظُّروف المناسبة علىٰ كوكبنا. لكن لا يوجدُ قانونٌ في الطَّبيعةِ يأمُرُ المادَّةِ بإنتاجِ كائناتٍ مُوجَّهة نحو غايةٍ (end-directed)، وقابلة للتكاثُر.

---

(١) Andy Knoll, PBS Nova interview, May ٣, ٢٠٠٤.

(٢) Antonio Lazcano, "The Origins of Life," Natural History (February ٢٠٠٦).

(٣) John Maddox, What Remains to Be Discovered (New York: Touchstone, ١٩٩٨), ٢٥٢.

إذن كيف نُفسِّرُ أصلَ الحياة؟ الحائزُ علىٰ جائزةِ نوبل في عِلْمِ الوظائف، جورج والد (George Wald)، شاعَ أنَّه قالَ مجادلاً: (لقد اخترْنا أنْ نُصدِّقَ المستحيل: أنَّ الحياةَ نشأت فجأةً عن طريقِ الصُّدْفة). وفي سنواتٍ لاحقة، خَلَصَ جورج والد إلىٰ أنَّ العقلَ الأزلي، الذي سمَّاهُ مصفوفة الواقعية الفيزيائية (matrix of physical reality) التي يتكوَّن منها الكون، هو الذي وهبَ الحياة:

(كيفَ ذلكَ وهناك احتمالاتٌ أُخرىٰ، إنَّنا في كونٍ يمتلكُ خصائصَ مميَّزة غريبة هي التي وهبَت الحياة؟ يجبُ عليَّ أنْ أعترفَ أنَّه بدا لي في الآونةِ الأخيرة أنَّ كلا السُّؤالينِ من وادٍ واحد. هذا علىٰ فَرْضِ أنَّ العقلَ، وبدلاً من أنْ يكونَ قد تطوَّرَ من خلالِ الحياة، كان موجوداً علىٰ الدَّوام علىٰ شكلِ مصفوفةٍ (matrix) تُمثِّلُ مصدرَ الواقعية الفيزيائية، بحيث أنَّ مُكوِّنات الواقعية الفيزيائية هي مُكوِّنات عقلية. إنَّه العقل الذي احتوىٰ الكون الفيزيائي، وهو الذي وهبَ الحياة، وفي النِّهايةِ من خلالِهِ تطوَّرت المخلوقاتُ التي تعرِفُ وتصْنَع: العِلْمَ والفنَّ والتكنولوجيا)[١].

هذه هي أيضاً الخلاصةُ التي أنتهي إليها. إنَّ التَّفسيرَ المَرْضيَّ الوحيد لأصلِ حياةٍ كهذه، (مُوجَّهةَ الغاية، قابلةً للتكاثُر) كما نرىٰ علىٰ الأرضِ، هو العقلُ الذَّكيُّ اللَّامتناهي.

* * *

(١) George Wald, “Life and Mind in the Universe,” in Cosmos, Bios, Theos, ed. Henry Margenau and Roy Abraham Varghese (La Salle, IL: Open Court, ١٩٩٢), ٢١٨.

الفصل الثامن:

هل جاءَ شيءٌ ما من لا شيء؟

DID SOMETHING COME FROM NOTHING?

في أحدِ المشاهد الأخيرة من فيلْم (صوتُ الموسيقىٰ The Sound of Music)، أخيراً اعترَفَتْ ماريَّا (الذي لعبَتْ دورُها جولي أندرو) وكابتن فون تراب (الذي لعَبَ دورُهُ كريستوفر بلومر)، اعترفَ كلٌّ منهما بحُبِّهِ للآخر. كلٌّ منهما كان متفاجئاً بحُبِّ الآخر له، وتساءَلا معاً كيف حَدَثَ هذا الحُبُّ. لكن كان يبدُو أنَّهما علىٰ ثقةٍ أنَّ الحبَّ جاءَ من مكانٍ ما. وأخذا يُغنِّيان:

(ليس هناك شيءٌ يأتي من لا شيء، لا شيءٌ يمكنُهُ ذلكَ أبداً)[1].

ولكن هل هذا صحيح؟ أم أنَّ من الممكنِ أنْ يأتيَ شيءٌ ما من لا شيء؟ وكيف يمكن أنْ يُؤثِّرَ هذا السُّؤال علىٰ فهمِنا للكيفيةِ التي جاءَ بها الكونُ للوجود؟

هذا هو موضوعُ البحث العلمي الملتزم في مجالِ الكونيات، وكذلك فيما يَخُصُّ الحُجَّة الكونية في الفَلْسفة[2]. في كتابِ (فرضية الإلحاد)، عرَّفْتُ الحُجَّةَ الكونيةَ بأنَّها تلك التي تبدأُ من الادِّعاءِ بأنَّ الكونَ موجودٌ. وأقصُدُ بالكونِ، كائنٌ أو كائناتٌ تسبَّبَ بوجودِها موجودٌ آخر (أو ذاكَ الذي يمكن أنْ يكونَ سبباً لوجودِ بقيَّة الكائنات).

* * *

---

(١) "Something Good," music and lyrics by Richard Rodgers, ١٩٦٥.

(٢) مرَّ في تعليقٍ سابق، أنَّ هذه الحُجَّة تناظر في أدبياتنا الفلسفية دليل الحدوث، ودليل الحركة، ودليل الإمكان. (المراجع).

الكون النِّهائي[1]

(THE ULTIMATE UNIVERSE)

في كتـابِ (فرضـية الإلحـاد) والكتابـاتِ الإلحاديـة الأُخـرىٰ، جادلْـتُ بـأنَّ علينـا أنْ نأخُـذَ الكـونَ نفسَـهُ وأكثـرَ قوانينِـهِ الأساسـية بـذاتِها بوصـفِها أُموراً نهائيـة. كـلُّ نظـام تفسـيرٍ يجـب أنْ يبـدأَ مـن نقطـةٍ مـا، ونقطـةُ البدايـةِ هذه لا يمكـنُ تفسـيرُها مـن خـلالِ النظـام. لـذلك، لا محالـة، كـلُّ الأنظمـة التي تكونُ من هذا القبيل، تشـتملُ علىٰ بعـضِ الأُمـور النِّهائيـة علىٰ الأقـلِّ، التـي لا يمكـنُ تفسـيرُها في حـدِّ ذاتِهـا. هـذه النتيجـةُ تـأتي مـن الطَّبيعـةِ الأساسيةِ للتَّفسيرات المتعلِّقـة بالسُّـؤال: لمـاذا يوجـدُ شيءٌ مـا في الواقـعِ علىٰ الحالةِ التي هو عليها؟

لنفترض، علىٰ سبيلِ المثـال، أنَّنـا لاحَظْنـا أنَّ الطِّـلاءَ الأبـيضَ الجديـد الموجود فـوق الموقِـد أصبـحَ لونُـهُ بُنِّيـاً مُتَّسِـخاً. وبعـد أنْ بحَثْنـا، اكتشـفنا أنَّ

---

(١) (النِّهـائي) هنـا يـوازي مـا نُعـبِّر عنـه في عِلْـم المنطـق بــ (الـذَّاتي)، فكـما أنَّ الـذَّاتي لا يُعلَّـل، كـذلك هــو النِّهــائي، فهــو الأمــرُ الأســاسيُّ والأوَّلي، الــذي لا يمكــن ردُّهُ إلىٰ شيءٍ آخــر. فمثلاً لـو سـألتُكَ: لمـاذا الجـدارُ أبـيض؟ فقـد تقـول: لأنَّـه مصبوغٌ بصُـبْغٍ أبـيض. لكـن لـو سـألتُكَ: لمـاذا البيـاضُ أبـيضٌ؟ فقـد تقـول: لأنَّـه أبـيض، فصـفةُ البيـاض بالنسـبةِ للَّـون الأبيض ذاتية، والذَّاتي لا يُعلَّل. وقُـلْ الأمـرَ نفسَـهُ فـيما لـو سـألتُكَ: لمـاذا السُّـكَّر حلـوٌ؟ لمـاذا اللَّيمـون حـامضٌ؟ لمـاذا المِلْـحُ مـالحٌ؟ لمـاذا الإنسـانُ نـاطقٌ؟ لمـاذا الفـرسُ صـاهلٌ؟ لمـاذا الحـمارُ نـاهقٌ... الـخ. هـذه كلُّهـا صـفات ذاتيـة، ونهائيـة، لا يمكـن إرجاعُهـا لشـيءٍ آخـر، أي لا يمكن تفسيرُها وتعليلُها علىٰ ضوءِ شيءٍ آخر. (المراجع).

هذا ما يحدُثُ دائماً في هذا النوعِ من المواقِدِ مع هذا النوعِ من الطَّلاء. وتقدَّمنا خطوةً ثانيةً في معرفةِ السَّبب، فعلِمْنا أنَّ هذه الظَّاهرةَ لا بدَّ أنْ تُفسَّرَ عن طريقِ اطِّراداتٍ أوسعَ وأعمقَ لتركيبٍ كيميائي، فحين يتفاعلُ الكبريتُ المتصاعدُ من لهَبِ الموقِد مع شيءٍ ما في الطَّلاء، فإنَّه يعملُ علىٰ تكوينِ مركَّبٍ كيميائي، وأنَّ هذا هو السَّببُ في تغيُّرِ لونِ الطَّلاء. وبعد البحثِ أكثر، اكتشفنا وجودَ قذارةٍ في مطبخِنا، كواحدةٍ من النَّتائجِ التي لا تُعَدُّ ولا تُحصىٰ المترتِّبة علىٰ نظريةِ الذرِّيةِ – الجُزيئيةِ (atomic-molecular theory) لبُنْيةِ المادَّة. هذا هو الحالُ في عمليةِ التَّفسير، لا بدَّ أنْ تفترضَ بعضَ الأشياء كحقائِقَ ذاتيَّة، وهذا هو حالُ الأشياء.

في مناظراتي مع المعتقدينَ بوجودِ إله، شاهَدْتُ كيف أنَّهم يصلونَ إلىٰ هذه المرحلةِ التي لا مفرَّ منها. مهما فكَّرَ المُوحِّدونَ، في تفسيرِ شيءٍ ما، من خلالِ إرجاعِهِ إلىٰ وجودِ وطبيعةِ الإله، فلا يُمكِنُهُم تفادي أخذ تلك الحقيقة بوصفِها نهائية وتتجاوز التَّفسير[١]. ولا يُمكِنُني رؤية كيف يمكن لشيءٍ ما أنْ يُعرَفَ ضِمْنَ كونِنا، أو يُحدَس بنحوٍ معقول، بوصفِهِ يُشيرُ إلىٰ واقعيةٍ ما متعالية، تقبَعُ خَلْفَ أو فوقَ أو تتجاوز ذلك الشَّيء. إذن لماذا لا نأخُذُ الكون ومعظَمَ معالمِهِ الأساسية بوصفِها حقيقة نهائية[٢].

---

(١) أي لا يمكن للمؤمنين بالإله إنكار أنَّ هناك أُموراً ذاتية للأشياء، لا يمكن الاستمرار في التراجُع في تفسيرِها إلىٰ ما لا نهاية، بل لا بدَّ من التوقُّفِ عند نقطة معيَّنة، وهي نقطة كون تلك الصِّفة ذاتية لذلك الشَّيء. (المراجع).

(٢) بعبارةٍ أُخرىٰ: يريد (فلو) هنا القول بأنَّه عندما كان مُلْحداً كان يثيرُ تساؤلاً أمام المؤمنين بالإله، مفادُهُ أنَّ الكونَ إنْ كان يُمثِّلُ منظومةً ذاتية، والأشياء فيه تنطوي علىٰ صفاتٍ ذاتية، فلماذا لا نقول: إنَّ الذَّاتي لا يُعلَّل، وهذا يكفينا مؤونة الإيمان بإله؟ أي

الآن، معظَمُ نقاشاتي التي عرضْتُ لها فيما سبق كانت مستقلَّةً عن التطوُّرات الحادثة في مجالِ الكونيات. في الحقيقةِ، اثنين من كُتُبي الرَّئيسية المُضادَّة للَّاهوت كتبْتُهُما قبلَ وقتٍ طويلٍ من ظهورِ نظرية الانفجار الكوني الكبير، أو قبلَ عرْض حُجَّة التوافُق الدَّقيق (fine-tuning argument) المنبثقة من الثوابتِ الفيزيائية (physical constants). لكن مع بدايةِ الثَّمانينات من القَرْنِ الماضي، بدأتُ بإعادةِ النَّظَر في كلا الفكرتين[1]. وقد اعترفْتُ آنذاك بأنَّ علىٰ المُلْحدينَ أنْ يشعُرُوا بالإحباطِ من الإحصاءاتِ الكونيةِ الحديثة، حيثُ بدا أنَّ علماءَ الكونيات يُقدِّمونَ الدَّليلَ العِلْمي علىٰ ما كافَحَ القدِّيس توما الأكويني لإثباتِهِ مع صعوبةِ إثباتِهِ فَلْسفياً، أعني أنَّ للكونِ بداية.

* * *

دون أنْ نُعلِّل الكونَ بإله، وهكذا ننتهي من الأمر! وهذا الموقف إنْ كان مفهوماً من الناحيةِ الفلسفية للوهلةِ الأُولىٰ، فإنَّ التطوُّرات العِلْمية في مجالِ الفيزياء الكونية، دفعتْهُ لإعادةِ النظر في هذا الموقف. (المراجع).

(١) الفكرة الأُولىٰ: هل للكونِ بداية؟ حيث أكَّدت نظريةُ الانفجار الكوني الكبير أنَّ للكونِ بداية، وهذا يفسَحُ المجال للتَّساؤل عن سببِ ذاتية منظومة الكون، أو سبب ذاتية بعض الصفات للأشياء، الأمر الذي يُعيدُ الإلهَ إلىٰ الواجهةِ من جديد، بوصفهِ هو السَّبَب الأوَّل.

والفكرة الثانية: التوافُق الدَّقيق في الكون هل هو دالٌّ علىٰ وجودِ إله أم أنَّه يُعبِّر عن قوانين وصفات ذاتية في الكونِ والأشياء؟ حيث أكَّدَت الثوابت الفيزيائية علىٰ وجودِ توافُقٍ ونَظْم دقيقٍ مذهل، لا يكفي فيه القول بأنَّ منظومةَ الكون ذاتية، وصفاتَ الأشياء فيه ذاتية، بل هذا التوافُق والنَّظْم بحدِّ ذاتهِ بحاجةٍ إلىٰ تفسير. (المراجع).

في البداية

(IN THE BEGINNING)

عندما تعرَّفْتُ كمُلْحدٍ على نظريةِ الانفجار الكبير، بدا لي أنَّها أحدثَتْ فارقاً كبيراً، لأنَّها تقولُ بأنَّ للكونِ بداية، وأوَّلُ جُملةٍ في سِفرِ التكوين[١]: (فِي الْبَدْءِ خَلَقَ اللهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ)، كانت مرتبطةً بحَدَثٍ في الكون.

طالما أنَّ الكونَ يمكن أنْ لا يكون بلا نهاية فحَسْب، بل بلا بداية أيضاً، فيبقى من السَّهلِ أنْ ترى وجودَهُ (ومعظمَ معالِمِهِ الرَّئيسية) كحقائِقَ ذاتية[٢]. وإذا لم يكن هناك أيُّ سببٍ يدعو للاعتقادِ بأنَّ للكونِ بداية، فإنَّه لا حاجةَ لافتراضِ وجودِ شيءٍ ما خلَقَ كلَّ شيءٍ كمُصادرة.

ولكن نظريةُ الانفجار الكبير غيَّرَت كلَّ شيء. فإذا كان للكونِ بداية، فإنَّه يصبحُ من المشروعِ تماماً، بل لا مفرَّ من إثارةِ السُّؤال عن الذي أنتَجَ هذه البداية. وهذا ما يُغيِّرُ الوضعَ بشكلٍ كامل.

---

(١) من الكتاب المُقدَّس، في العهد القديم. وسفر التكوين هو السفر الأوَّل منه. (المراجع).

(٢) يقصد (فلو) أنَّنا لو تصوَّرنا أنَّ الكون لا بداية له، ولا نهاية له، فيصبح من السَّهلِ تصوُّر أنَّه - بما يتضمَّن من أحداثٍ وقوانين - يُمثِّل منظومة ذاتية، ليست بحاجة لُمسبِّبٍ أوَّل. لكن عندما تُثبِتُ الفيزياء الكونية أنَّ للكونِ بداية، فهنا يتغيَّر الأمرُ برُمَّتهِ. (المراجع).

وفي نفسِ الوقتِ، توقَّعتُ أنَّ الملحدينَ سوف يرونَ أنَّ فكرةَ الانفجار الكبير تتطلَّبُ تفسيراً فيزيائياً، وهو ما قد لا يكونُ مُتاحاً للبشر. ولكن أعترفُ أيضاً بأنَّ المعتقدينَ بالإلهِ يمكن أنْ يُرحِّبوا، بنحوٍ مُوازٍ معقول، بفكرةِ الانفجار الكبير باعتبارِها تميلُ لتأكيدِ اعتقادِهِم المُسْبق بأنَّ الكونَ في (البدءِ) كان قد خُلِقَ بواسطةِ الإله.

يبدو أنَّ علماءَ الكونيات المعاصرين مرتبكون كما هو حالُ المُلْحدين، في إمكانيةِ أنْ تتضمَّنَ اكتشافاتُهُم نتائجَ لاهوتية. وكنتيجةٍ لذلك، ابتكروا طُرُقاً للهُروبِ تُحافِظُ على الوضعِ اللَّاإيماني القائم. هذه الطُّرُق تضمَّنَت فكرةَ الأكوان المُتعدِّدة، أي العدد الهائل من الأكوان الذي نشأَ من أحداثٍ مُتقلِّبة من الفراغِ اللانهائي، أو ما يُسمَّىٰ بـ (الكون المكتفي بذاتِهِ) حَسْبَ تعبير ستيفن هوكِنج.

❋ ❋ ❋

إلى أنْ تحين البداية
(UNTIL A BEGINNING COMES ALONG)

كما ذكرتُ سابقاً، لم أجِد فكرةَ الأكوان المُتعدِّدة مفيدةً. وقُلْتُ أيضاً أنَّ التعاطي مع فرضيةِ الأكوان المُتعدِّدة كمُصادرةٍ هو بحَقٍّ بديلٌ بائس. إذا كان وجودُ كونٍ واحدٍ يحتاجُ إلىٰ تفسير، فإنَّ وجودَ أكوانٍ يحتاجُ إلىٰ تفسيرٍ أكبرَ بكثير، وعندها يتضاعفُ حجمُ المشكلةِ بمقدارِ عدد الأكوان الكُلِّي. هذا الوضعُ يبدو مثلُ طفلٍ صغيرٍ لا يُصدِّق مُعلِّمُهُ ادِّعاءَهُ بأنَّ الكلبَ أكلَ كُرَّاسةَ واجبِهِ المَدْرسي، فيستبدلُ ذلك بالادِّعاءِ بأنَّ مجموعةً من الكلابِ أكلت كُرَّاسةَ واجبِهِ.

ستيفن هوكِنج أخذَ اتِّجاهاً آخر في كتابِهِ (تاريخٌ موجزٌ للزَّمان). فقد كتَبَ هوكِنج قائلاً: (إنْ كان للكونِ بدايةٌ، فبإمكاننا أنْ نفترضَ أنَّ له خالقاً. ولكن إنْ كان الكونُ في الواقعِ مكتفياً بذاتِهِ ولا حدودَ له، فلن يكون له بداية ولا نهاية، فهو موجودٌ وانتهىٰ الأمر. إذن هل بقيَ مكانٌ للخالِق؟)[1].

في عرضي للكتاب بعدما تمَّ نشرُهُ، أشرتُ إلىٰ أنَّ الاقتراحَ المُتضمَّن في نهايةِ السُّؤال لن يساعد إلَّا في اللُّجوءِ إلىٰ غيرِ الإلهي. وتناسُقاً مع هذه الخاتمة، قُلْتُ: الذين ليسوا من علماءِ الفيزياء النظرية،

---

(١) Stephen Hawking, A Brief History of Time (New York: Bantam, ١٩٨٨), ١٧٤.

سيكونونَ مجبرينَ علىٰ أنْ يـرُدُّوا مثل بعض الشَّخصيات في مُسَلْسل برودواي (مُسَلْسل فكاهي): (إنْ لم يكن الانفجارُ الكبير هو البداية، فإنَّه سيظلُّ كذلك علىٰ الأقلِّ حتَّىٰ تظهرَ بدايةٌ أُخرىٰ). بدا علىٰ هوكِنج علىٰ الأقلِّ شيءٌ من التعاطفِ مع هذا الرَّدِّ، حيثُ قال: (إنَّ تمدُّدَ الكونِ لا يمنعُ من وجودِ خالِق، لكن سوف يزيدُ فقط من الوقتِ اللازمِ لإنجازِ عملِهِ)[(١)].

كتَبَ هوكِنج أيضاً قائلاً: (يمكنُ للمرءِ أنْ يقولَ: إنَّ الزَّمانَ له بداية عند الانفجار الكبير، بمعنىٰ أنَّ الأزمنةَ السَّابقة عليه هي ببساطةٍ ممَّا لا يمكن أنْ يُعرَّف)[(٢)].

استنتجتُ من هذا النقاش أنَّه حتَّىٰ لو اتَّفقنا علىٰ أنَّ الكونَ بدأَ مع الانفجارِ الكبير، فإنَّ الفيزياءَ يجبُ أنْ تظلَّ رغمَ ذلك لاأدرية بشكل قاطع، فمن المستحيلِ من الناحيةِ الفيزيائية اكتشافُ من الذي سبَّبَ الانفجارَ الكبير.

من المؤكَّدِ أنَّ الإيحاءَ بكونٍ مُتغيِّرٍ باستمرار في مقابل كونٍ ثابتٍ خامل إلىٰ الأبد يُحدِثُ فارقاً في المناقشة. لكن المغزىٰ من القصَّةِ في نهايةِ المطاف هو أنَّ المواضيعَ المطروحة هي مواضيعُ فَلْسفية وليست عِلْمية. وهذا ما يُعيدُنا إلىٰ الحُجَّةِ الكونية.

* * *

---

(١) Antony Flew, "Stephen Hawking and the Mind of God" (١٩٩٦), http://www.infidels.org/library/modern/antony_fl ew/hawking.html.

(٢) Hawking, A Brief History of Time, ٩.

شيءٌ ما أكبر من أنْ يُفسِّره العلْم

(SOMETHING TOO BIG FOR SCIENCE TO EXPLAIN)

الناقدُ الفَلْسفي الأساسي للحُجَّةِ الكونية علىٰ وجودِ الإله كان هو ديفيد هيوم. وعلىٰ الرَّغمِ من أنَّني اتَّفقتُ مع حُجَجِ هيوم في كُتُبي السَّابقة، إلَّا أنَّني بدأتُ في التَّعبيرِ عن شُكوكي حولَ منهجِهِ. علىٰ سبيلِ المثال، كُنْتُ قد أشرْتُ في مقالٍ، في كتابٍ تذكاريٍّ للفيلسوف تيرينس بينلهم (Terence Penelhum)، أنَّ بعضَ الفرضيَّات المُسْبقة في تفكيرِ هيوم أسفرت عن أخطاءٍ قاتلة. هذه الأخطاء تشمَلُ أُطروحتَهُ في أنَّ ما نُسمِّيهِ (أسباباً) ليس سوىٰ نوع من (تداعي المعاني) أو الافتقار لمثلِ هذا التداعي. قُلْتُ: إنَّ أصلَ - أو علىٰ الأقلِّ التحقُّق من صلاحيةِ - تصوّراتنا السَّببية، والأُسسَ التي يُفترَضُ أنْ تُبْنىٰ عليها معارفُنا السَّببية، تستندُ إلىٰ وفرةٍ وتكرارِ النَّشاط التَّجريبي لمخلوقاتٍ مكوَّنةٍ من لحمٍ ودم، تعمَلُ في عالَمِ العقل - المستقلّ (mind-independent world) (كتجربة محاولة سحب ودفع أشياء، والنَّجاح في سحبٍ أو دفعِ بعضها وعدم النجاح مع بعضها الآخر، وتجربة التَّساؤل (ماذا سيحدُث لو؟)، وماذا عن التَّجريب؟ وبالتالي الاكتشاف من خلالِ التجربة (ماذا يحدُثُ عندما؟)). إنَّنا كفاعلين نتعرَّفُ ونُطبِّقُ ونُصحِّحُ فكرةَ السَّبَب والمُسبَّب ونُحدِّدُ ماذا نعني بالضَّروري والمستحيل. توصَّلْتُ في النِّهايةِ إلىٰ أنَّ

محاولـةَ هيـوم الخياليـة لـن تُـوفِّرَ لنـا بوصـلةً لتحديـدِ معنـىٰ (السَّـبب) و(قوانين الطَّبيعة))[١].

ولكـن في كتـابِ ديفيـد كونـواي (إعـادةُ اكتشـاف الحكمـة)، وطبعـة عـام (٢٠٠٤م) مـن كتـابِ ريتشـارد سـوينْبرن (وجـودُ الإلـه)، وجـدْتُ ردوداً شـافيةً عـلىٰ نقـدِ هيـوم (وكانـت) للحُجَّـةِ الكونيـة. تنـاولَ كونـواي بشكلٍ منهجيٍّ كلَّ اعتراضات هيـوم. عـلىٰ سـبيلِ المثـال: اعتقـدَ هيـوم أنَّـه لا يوجـدُ سـببٌ لوجـودِ أيِّ سِلْسـلةٍ مـن الكائنـاتِ المادِّيـة وراءَ مجمـوع كـلِّ عضـوٍ مـن أعضـاءِ هـذه السِّلْسـلة. إذا كانـت هنـاك سِلْسـلة لا بدايـةَ لهـا لكائناتٍ غير ضرورية الوجود، فإنَّ ذلك يُعَدُّ سبباً كافياً للكونِ ككُلٍّ[٢].

رفضَ كونـواي هـذا الاعـتراض عـلىٰ أسـاسِ أنَّ (التَّفسـيرات السَّـببية لأجـزاءِ أيِّ كُـلٍّ مـن هـذا القبيـل بلُغـةِ الأجـزاء الأُخـرىٰ، لا يمكـن أنْ تُضـيفَ شـيئاً إلىٰ تفسـيرٍ سـببيٍّ للكُـلِّ، إذا كانـت المفـرداتُ المـذكورة

---

(١) Antony Flew, "The Legitimation of Factual Necessity," in Faith, Scepticism and Personal Identity, ed. J. J. MacIntosh and H. A. Meynell (Alberta: University of Calgary Press, ١٩٩٤), ١١١–١٧.

(٢) هيوم استـهدفَ التَّشـكيك بأصـل وجـود سِلْسـلة سـببية في حـوادثِ الكـون، لأنَّ مـا يقـع في الكون من حـوادث إنَّـما هـو – في نظـرهِ – حـوادث متعاقبـة يـلي بعضُـها بعضـاً، دون الحاجـة لافـتراضِ روابـط سـببية فـيما بينهـا، وإنَّـما الـذهن هـو الـذي يُسـقِط مفهـومَ السـببية عـلىٰ الخـارج، لمـا يحـدُثُ فيـه مـن تـداعٍ للمعـاني. ولـو افترضـنا جـدلاً وجـود سِلْسـلة، فـإنَّ افتراضَ أنْ لا بدايةَ لها (أي أنَّ الكونَ لا بدايةَ له)، هو سببٌ كافٍ للكونِ ككُلٍّ.

(فلـو) بـدورهِ رَفَـضَ هنـا مفهـوم هيـوم في السـببية، كـما انتقـد فكـرة التسلسـل. وقـد تنـاول الفلاسـفة المسـلمون التسلسـل منـذ قـرون، وأثبتـوا بطلانـه بعشـرة أدلَّـة، كـما مـرَّ في تعليـقٍ سابق. (المراجع).

كأسبابٍ هي مفرداتٌ يحتاجُ وجودُها بحدِّ ذاتِهِ إلىٰ تفسيرٍ سببي)[١]. لذا، علىٰ سبيلِ المثال: افترض أنَّ هناك فيروسَ كمبيوتر قادراً علىٰ تكرارِ نفسِهِ في أجهزةِ كمبيوتر متَّصلة بشبكة. حقيقة أنَّ ملايين الكمبيوترات المرتبطة بالشَّبكةِ قد أُصيبت بالفيروس، لا يُفسِّرُ بذاتِهِ وجودَ الفيروس الذي يُكرِّرُ نفسَهُ.

وفيما يتعلَّق بحُجَّةِ هيوم الشَّبيهة، كتَبَ سوينْبيرن: (السِّلْسلةُ اللَّانهائية للكُلِّ لن تُقدِّمَ لنا تفسيراً علىٰ الإطلاق[٢]، لأنَّه لن يكون هناك أسبابٌ من أعضاءِ السِّلْسلة تقعُ خارجَ هذه السِّلْسلة. وفي هذه الحالة، سيكونُ وجودُ الكونِ علىٰ مرِّ الزَّمن اللَّانهائي حقيقةً ذاتيةً مُتعذِّرةَ التَّفسير. سيكونُ هناك تفسيرٌ (بلُغةِ القوانين) للسُّؤال: لماذا يستمرُّ موجودٌ ما بالوجود؟ ولكن ما سيتعذَّر تفسيرُهُ هو استمرارُ وجودِهِ في الزَّمانِ اللَّامتناهي[٣]. وجودُ الكون المادِّي المُعقَّد عبرَ زمنٍ متناهٍ أو لا متناهٍ (أكبرُ بكثير) من قدرةِ العِلْمِ علىٰ التَّفسير)[٤].

* * *

---

(١) David Conway, The Rediscovery of Wisdom (London: Macmillan, ٢٠٠٠), ١١١–١٢.

(٢) أي إنَّ افتراض اللَّانهائية في السِّلْسلةِ لا يُقدِّم تفسيراً. (المراجع).

(٣) أي افتراض اللَّانهائية سيُبقي العِلْم عاجزاً عن تفسيرِ أصل وجود أيِّ موجود. ما سيتمكَّن العِلْمُ من تفسيرِهِ إنَّما هو آلية استمرار الكائنات في الوجود. علىٰ هذا الأساس، سواءٌ افترضنا اللَّانهائية في بدايةِ سلسلة حوادث الكون، أو افترضنا أنَّ للكونِ بداية، ففي الحالتين، سيظلُّ تفسير أصل وجود الكون ووجود الكائنات فيه يقع خارج نطاق العِلْم، ويتجاوز قدرتَهُ علىٰ التفسير. (المراجع).

(٤) Richard Swinburne, The Existence of God (Oxford: Clarendon, ٢٠٠٤), ١٤٢.

الحاجة إلى عاملٍ إبداعي
(THE NEED FOR A CREATIVE FACTOR)

عنـدما تـتِمُّ مواجهـةُ نقـد هيـوم، يصـبحُ مـن الممكـنِ تطبيـقُ الحُجَّـةِ الكونية في سياقِ عِلْـم الكونيـات المعـاصر. يجـادلُ سـوينْبيرن بأنَّنـا يمكـنُ أنْ نُفسِّـرَ الحـالات الرَّاهنـة (state of affairs) فقـط عـلىٰ ضـوءِ حـالاتٍ راهنـةٍ أُخرىٰ. القـوانينُ بحـدِّ ذاتِهـا لـيس بمقـدورِها تفسـيرُ هـذه الحـالات. كتَـبَ سـوينْبيرن يقـول: (نحـنُ بحاجـةٍ إلىٰ حـالاتٍ راهنـةٍ، بالإضـافةِ إلىٰ قـوانين، لتفسـيرِ الأشـياء)، (إذا لم يكـن لـدينا ذلـك في بدايـةِ الكـون، لأنَّـه لم تكـن هناك حـالاتٌ قبـلَ ذلـك، فإنَّـه لا يُمكِنُنـا تفسـيرُ بدايـة الكـون)[1]. إذا كـان هناك قانونٌ معقولٌ لتفسيرِ بداية الكـون، فـلا بـدَّ أنْ يقـولَ لنـا شـيئاً مـا، مـن قبيـل: (الفـراغُ المكـاني يقـودُ بالضَّـرورةِ إلىٰ نشـأةِ الطَّاقـة - المـادَّة). وهنـا (الفراغُ المكاني) ليس عـدماً، وإنَّـما (مُفـردةٌ قابلـةٌ للتَّعريـف)، شيءٌ مـا وُجِـدَ هناك فعلاً. هذا الاعتمادُ عـلىٰ القـوانين للحصـولِ عـلىٰ كـونٍ بـدأً مـن (فـراغٍ مكـانيٍّ) يطـرَحُ أيضـاً سـؤالاً: كيـف أنَّ المـادَّةَ - الطَّاقـة (matter-energy) نتجت في الزَّمنِ الصِّفْري (t٠)، بدلاً من زمنٍ آخر.

فيلسـوفُ العلْـم جـون ليسـلي (John Leslie) أظهـرَ أنَّ أيَّـاً مـن

---

(١) Richard Swinburne, "The Limits of Explanation," in Explanation and Its Limits, ed. Dudley Knowles (Cambridge: Cambridge University Press, ١٩٩٠), ١٧٨–٧٩.

التكهُّنات الكونية المألوفة اليوم لا ينفي احتمالَ وجودِ خالِق. وقد تكهَّنَ عددٌ من علماءِ الكون بأنَّ الكونَ نشأَ من (العدم). في عام (١٩٧٣م)، وضَعَ إدوارد تريون (Edward Tryon) نظريةً مفادُها أنَّ الكونَ كان يتذبْذَب في فراغ في مكانٍ أكبر. وجادَلَ ليسلي بأنَّ الطَّاقةَ الكُلِّيةَ للكونِ كانت صِفْراً، لأنَّ الجاذبيةَ التي تُمسِكُ طاقةَ الكون ظهرَت ككميةٍ سَلْبيةٍ في معادلاتِ الفيزياء. باستخدامِ منهجٍ آخر، تكهَّنَ كلٌّ من جيم هارتل (Jim Hartle)، ستيفن هوكِنج (Stephen Hawking)، وأليكس فيلكن (Alex Vilenkin) بأنَّ الكونَ الكمِّي - المتذبذب (quantum-fluctuated) جاءَ إلىٰ الوجودِ (من العدم). (العدمُ) عبارةٌ عن حالاتٍ خاصَّةٍ من الرَّغوةِ الزَّمكانيةِ الفوضوية مع ارتفاعٍ خياليٍّ في كثافةِ الطَّاقة[1]. تكهَّنَ آخرٌ (من هوكِنج) بأنَّ: (الزَّمانَ يصبحُ أكثرَ فأكثرَ مشابهاً للمكانِ في اللَّحظاتِ الأُولىٰ من الانفجارِ الكبير).

ليسْلي لا يعتقدُ أنَّ هذه التكهُّنات ذاتُ صلةٍ بالموضوع، ويقول: (بغضِّ النَّظر عن كيفيةِ وصْفِكَ للكون - باعتبارِهِ موجوداً منذُ الأزل، أو باعتبارِهِ قد انتظَمَ من نقطةٍ خارجَ الزَّمانِ والمكان أو غير ذلك في مكانٍ دونَ زمان، أو أنَّه بدأ بشكلٍ كمِّيٍّ ضبابيٍّ حيثُ لم تكن هناك نقطةُ بدايةٍ محدَّدة، أو أنَّه نشأَ بطاقةٍ كُلِّيةٍ صِفْرية - فإنَّ النَّاسَ الذين يرون أنَّ المشكلةَ هي في الحدوثِ التامِّ (لشيءٍ ما بدلاً من لا شيء)، سوف

---

(١) من الواضح أنَّ (العدمَ) بالمفهوم الفيزيائي ليس هو (العدم) بالمفهومِ الفَلْسفي. فالعدم بالمفهوم الفَلْسفي لا يمكن أنْ يكون رغوة زمكانية، لأنَّ الرغوة الزمكانية شيءٌ موجودٌ، وإنْ كان فوضوياً لم يتشكَّل بعد. أمَّا العدم فهو عدمٌ وكفىٰ، ولا يمكن الإخبار عنه بالحَمْلِ الشَّائع الصِّناعي، كما تقرَّرَ في فَلْسفة المنطق. (المراجع).

يكونونَ أقلَّ ميلاً إلىٰ الموافقةِ علىٰ أنَّ المشكلةَ قد حُلَّت)[١].

إذا كانت لديكَ معادلـة تحسِـبُ بدقَّـةٍ احـتمالَ نشـوءِ شيءٍ مـن الفـراغ، فإنَّـه سـوف يظـلُّ عليـك أنْ تسـألَ: لمـاذا تنطبـقُ هـذه المعادلـة؟ في الحقيقـةِ، لاحظَ هوكنج الحاجةَ لإدخالِ عاملٍ إبداعيٍّ لإشعالِ فتيل المعادلات[٢].

في مقابلةٍ بعد وقـتٍ قصـيرٍ مـن نَشْـرِ كتابِـهِ (تـاريخٌ مـوجزٌ للزَّمـان)، أقرَّ هوكِنج بأنَّ نموذجَـهُ[٣] لم ينطـوِ عـلىٰ أيِّ تـأثيرٍ عـلىٰ مسـألةِ وجـود الإلـه. عندما نقـولُ بـأنَّ قـوانينَ الفيزيـاء حـدَّدَتْ كيـف بـدأ الكـون، فكأنَّنـا نقـولُ فقـط: إنَّ الإلـهَ لم يخـتَر (أنْ يسـلُكَ الكـونُ بصـورةٍ اعتباطيـة (مزاجيـة) لا يُمكِنُنا فهمُها. ولا تقولُ شـيئاً عـن أنَّ الإلـهَ موجـودٌ أو غـيرُ موجـود – فقـط تقولُ: إنَّه ليس اعتباطياً (مزاجياً))[٤].

* * *

---

(١) Richard Swinburne, “The Limits of Explanation,” in Explanation and Its Limits, ed. Dudley Knowles (Cambridge: Cambridge University Press, ١٩٩٠), ١٧٨–٧٩.

(٢) بمعنىٰ أنَّ المعـادلات والقـوانين بوصـفها مجـرَّدة، لا تكفـي بحـدِّ ذاتِهـا لنشـأة الكـون، بـل لا بـدَّ مـن عامـلٍ إبـداعيٍّ (خـالِق) يُشـعِل فتيـلَ الانفجـار الكبـير، لينطلـق الكـونُ في حركتـهِ، وتتجلَّىٰ فيه تطبيقات المعادلات والقوانين. (المراجع).

(٣) أي النَّموذج الفيزيائي الذي اقترحَهُ في مجال الزَّمان. (المراجع).

(٤) John Leslie, Infi nite Minds (Oxford: Clarendon, ٢٠٠١), ١٩٤–٩٥.

حُجَّةٌ استقرائيةٌ جيِّدة

(A GOOD C-INDUCTIVE ARGUMENT)

المحاولـةُ القديمـةُ لتفسـيرِ الكـون عـن طريـقِ الإشـارة إلىٰ سِلْسـلةٍ لا متناهيـة مـن الأسـباب، قـد تـمَّ إعـادة صـياغتها بلُغـةِ عِلْـم الكونيـات الحـديث. لكـن ليسْـلي وَجَـدَ أنَّ هـذا غـيرُ مُـرْضٍ. لاحـظَ ليسْـلي أنَّ بعـضَ الناس يـدَّعونَ بـأنَّ وجـودَ الكـونِ في أيِّ لحظـةٍ معطـاةٍ، يمكـنُ تفسـيرُهُ عـلىٰ أساسِ حقيقة أنَّه قد وُجِـدَ في لحظـةٍ سـابقةٍ وهلُـمَّ جـرَّاً إلىٰ مـا لا نهايـة. لـذا، هناك علماء فيزيـاء يعتقـدونَ بـأنَّ الكـونَ قـد وُجِـدَ عـبرَ زمـنٍ لا نهـائي، إمَّـا من خلالِ سلسـلةٍ لا نهائيـةٍ مـن الانفجـاراتِ والانسـحاقات، أو كجُـزْءٍ مـن واقـعِ التمـدُّد الأبـدي الـذي أوجَـدَ انفجـارات كونيـة كبـيرة. في حـين أنَّ آخـرينَ يقولـون: إنَّ الكـونَ قـد وُجِـدَ مـن مـاضٍ محـدودٍ بطريقـةِ حسـابٍ معيَّنة، لكن وُجِدَ عبرَ زمنٍ لا متناهٍ بطريقةِ حسابٍ أُخرىٰ.

ردَّاً عـلىٰ هـذه الآراء، أكَّـدَ ليسْـلي عـلىٰ أنَّ (وجـودَ سلسـلةٍ لا متناهيـة من الأحداثِ الماضـية لا يمكـنُ عـدُّهُ تفسـيراً ذاتيـاً (أي يُفسِّـر ذاتَـهُ بذاتِـهِ) حينما يتمُّ تفسيرُ كلِّ حادثة مـن خـلال تلـك التـي تَسْـبِقُها). إذا كانـت هنـاك سلسلةٌ لا متناهية مـن كُتُـبِ الهندسـة تـمَّ استنسـاخُها ممَّـا سـبَقَها مـن كُتُـب، فـنحنُ بـذلك نظـلُّ بحاجـةٍ إلىٰ إجابـةٍ مقنعـةٍ لمـاذا الكُتُـبُ موجـودةٌ عـلىٰ النَّحـوِ الـذي هـي عليـه؟ (مـثلاً كونُهـا كُتُـب هندسـة)، أو لمـاذا الكُتُـبُ

موجـودةٌ بالأسـاس؟ فالسِّلْسـلةُ بأكملِهـا تحتـاجُ إلىٰ تفسـير. وأضـافَ ليسْـلي قائلاً: (فكِّر في آلـةِ زمـنٍ تُسـافِرُ إلىٰ المـاضي حيـثُ لم يوجـد أحـدٌ صـمَّمَها أو صنعَها. إشكالُ وجود حلْقة زمانيـة مُفسَّــرة ذاتيـاً! حتَّـىٰ لـو كـان السَّـفرُ في الزَّمانِ له معنىٰ، فهذا بالتأكيدِ لن يكونَ له معنىٰ)[1].

يُلخِّـصُ ريتشـارد سـوينْبيرن (Richard Swinburne) عرْضَـهُ للحُجَّـةِ الكونيـةِ بـالقول: (هنـاك فرصـةٌ جدِّيـةٌ بـأنَّ الإلـهَ إذا كـان موجـوداً، فإنَّـه سيخلُقُ تعقيدَ الكونِ ومحدوديتِهِ. إنَّـه مـن غـيرِ المُـرجَّح أنْ يكـونَ الكـونُ قـد وُجِدَ بلا سبب، لكن في المقابلِ مـن المُـرجَّح جـدّاً أنَّ الإلـهَ وُجِـدَ بـلا سـبب. ولذلك فإنَّ حُجَّةَ وجـود الكـون سـوف تُحيـلُ إلىٰ وجـودِ الإلـه بنـوعٍ جديـدٍ مـن أنـواعِ الاسـتقراء)[2]. في نقـاشٍ جـرىٰ حـديثاً مـع سـوينْبيرن، لاحظْـتُ أنَّ شرْحَـهُ للحُجَّـةِ الكونيـةِ يبـدو صـحيحاً بطريقـةٍ أساسـية. بعـضُ معـالمِ الحُجَّـة بحاجـةٍ إلىٰ تعـديل، لكـن الكـونُ بـأمسِّ الحاجـةِ إلىٰ تفسـير. حُجَّـةُ ريتشـارد سـوينْبيرن الكونيـة تُـوفِّرُ تفسـيراً واعِـداً، ولعلَّـهُ في النِّهايـةِ أصـحُّ التَّفسيرات.

* * *

---

(١) Leslie, Infi nite Minds, ١٩٣–٩٤.

(٢) Swinburne, The Existence of God, ١٥٢.

الفصل التاسع:

إيجادُ مساحةٍ للإله

FINDING SPACE FOR GOD

إنَّــه عمــلُ شكســبير. في المَشْــهدِ الأوَّل مــن مســـرحيةِ ماكْبِــثْ (Macbeth)، إحـدىٰ أشـهر مسـرحيات شكسـبير، يواجـهُ ماكبـث وبـانكو (Banquo)، وهمــا اثنــان مــن الجنــرالات في الجــيشِ الملكــي، ثلاثــاً مــن السَّاحرات. السَّـاحراتُ يتحـدَّثنَ إلـيهما ثـمَّ يختفـين. يقـولُ بـانكو: (الأرضُ لهـا فقاعـات، كـما للـماءِ فقاعـات، وهـذه هـي مـن تلـك الفقاعـات، أيـن اختفين؟).

يـرُدُّ ماكبـث: (في الهـواءِ، مـا بـدا لـك أنَّـه جَسَـدٌ تبخَّـرَ كـالهواءِ في الرِّيح).

إنَّــه مســـرحٌ ترفيهـيٌّ وأدبٌ جميـل. ولكـن رغـمَ أنَّ فكـرةَ الشَّـخص الذي يختفي (كالهواءِ في الـرِّيح) نـادراً مـا تُشـكِّلُ مشـكلةً لمشـاهدي المســرح والأدب، إلَّا أنَّهـا في السَّـابقِ مثَّلـت عقبـةً حقيقيـةً للفلاسـفةِ في سـعيهم إلىٰ (اتِّباعِ الدَّليل أينما قادَهُم).

* * *

لا يوجد أحدٌ هناك

(THERE'S NO ONE THERE)

في كتـابي (الإلـه والفَلْسـفة)، وفي منشـوراتٍ لاحقـةٍ لـه، جادلْـتُ بـأنَّ تصوُّرَ الإله غيرُ متماسكٍ، لأنَّـه يفـترضُ مسـبقاً فكـرةَ أنَّ الإلـهَ روحٌ معنويـةٌ حاضرةٌ في كـلِّ مكـانٍ وزمـان. ووجهـةُ نظـري كانـت مبـاشرة. (الشَّـخصُ) كما نفهمَهُ بـالمعنىٰ المعتـاد والاسـتعمال الجـاري، هـو مخلـوقٌ مكـوَّنٌ مـن لحـمٍ ودم[1]. وفي هــذا المجـال، تعبـير (شـخصٌ بـلا جسـد) يبـدو بـلا معنـىٰ، كقافيةِ الأبيات المنسوبة إلىٰ هفز ميرنز (Hughes Mearns):

وأنا أسيرُ فوقَ الدَّرَج..

قابلْتُ شخصاً لم يكن هناك..

---

(١) يتحدَّث (فلو) هنـا عـن تصـوُّر (الإلـه الشخصـي)، فـاللهُ وفقـاً للأديـانِ السَّـماوية هـو ذاتٌ لهـا صـفاتٌ معيَّنـة، فهـو يتحـدَّث عـن نفسِـهِ ويقـول: ﴿إِنِّي أَنَـا اللهُ ...﴾ [القصـص: ٣٠]، ويَنْسِب لنفسِهِ صفات مطلقـة معيَّنـة، كـالعِلْم والقـدرة والحياة، بـل وصـفات يبـدو للوهلـة الأُولىٰ أنَّهـا تتشـابه مـع صـفات البشـر، كالغضـبِ والحُـبِّ والرَّحمـة...، وهـذا هـو المقصـودُ بـ(الإله الشَّخصي).

والسُّؤالُ الذي يُطرَح هنـا: هـل يمكـن تصـوُّر وتعريـف موجـود لا جَسَـدَ لـه؟ لأنَّ الـذِّهنَ قـد اعتـادَ عـلىٰ تصـوُّر موجـودات محسوسـة تتَّصـف بصـفاتٍ معيَّنـة، ولم يعتـد عـلىٰ تصـوُّر موجود مجرَّد لا جَسَـدَ لـه يتَّصـف بصـفاتٍ كماليـةٍ مطلقـة. وإذا كـان اللهُ مجـرَّداً لا جَسَـدَ لـه، وحاضراً في كـلِّ مكـانٍ وزمـان، إذن كيـف تـتجلّىٰ إرادتُـهُ وتسـري في هـذا الكـون؟ هـذا مـا يتحدَّث عنه (فلو). (المراجع).

ولم يكن هناكَ اليوم أيضاً..

آهٍ كم أتمنَّىٰ أنْ يذهبَ بعيداً..

أنْ تقولَ بأنَّ هناك (شخصاً بلا جسد) يشبهُ كثيراً قولك: (هناك شخصٌ ما ليس موجوداً هناك). إذا أردْنا أنْ نتحدَّثَ عن (شخصٍ بلا جَسَد)، فسنكونُ بحاجةٍ إلىٰ تقديمِ وسائل مناسبة لتعريفِ كلمة (شخص) بطريقةٍ ما جديدة.

الفلاسفةُ المتأخِّرون من أمثال بيتر ستراوسُن (Peter Strawson) وبيدي راندِل (Bede Rundle)، استمرُّوا في تطويرِ هذا النَّقد. وفي الآونةِ الأخيرة، وجدْنا نسخةً من هذه الحُجَّةِ في أعمالِ جون غاسْكِن (John Gaskin)، أُستاذُ الفَلْسفة والزَّميل في كلِّيةِ الثالوث بدَبْلِن. فقد كَتَبَ غاسْكِن: (غيابُ جَسَدٍ ما ليس مُبرِّراً واقعياً للشَّكِّ فيما إذا كان الشَّخصُ موجوداً (لا شخصَ هناك)! بل هو أيضاً مُبرِّرٌ للشَّكِّ فيما إذا كان مثلُ هذا الكيان الذي لا جسَدَ له يمكنُ أنْ يكونَ فاعلاً)[١].

هذا النَّقدُ رغمَ صعوبتِهِ، تمَّ الرَّدُّ عليه من قِبَلِ المُوحِّدين. وقد شهدَت الثَّمانينات والتِّسعينات صحوةً للتوحيدِ في أوساطِ الفلاسفة التَّحليليين. قامَ العديدُ من هؤلاءِ المُفكِّرين بدراساتٍ مُطوَّلةٍ عن الصِّفاتِ التَّقليدية التي تُعزىٰ للإلهِ مثلُ الخلود. وقد تصدَّىٰ اثنان من هؤلاءِ المُفكِّرين، وهما توماس تريسي (Thomas Tracy) وبرايان ليفتو (Brian Leftow) للرَّدِّ بطريقةٍ منهجيةٍ دفاعاً عن تماسُكِ فكرة (روح معنوية حاضرة في كلِّ مكانٍ وزمان). ففي حين تناولَ تريسي السُّؤال

---

(١) John Gaskin, "Gods, Ghosts and Curious Persons," unpublished paper.

عن كيفيـةِ تعريـفِ فاعـلٍ لا جَسَـدَ لـه، حـاولَ ليفتـو أنْ يُبـيِّنَ لمـاذا يجـبُ أنْ يكـون الإلـهُ خـارجَ المكـانِ والزَّمـان، وكيـف يمكـن أنْ يتصـرَّفَ الكـائنُ الذي لا جَسَدَ له في الكون.

* * *

كمالُ الفاعِل

(THE PERFECTION OF AGENCY)

في كتابِـهِ (الإلـهُ والفعـلُ والتجسُّـد) و(الإلـهُ الفاعِـل)، أجـابَ تريسـي باستفاضـةٍ عـن سـؤالي: كيـف يمكـن أنْ يكـونَ هنـاك شـخصٌ بـلا جسَـدٍ، وكيـف يمكـنُ تعريـفُ شـخصٍ كهـذا. اعتـبرَ تريسـي أنَّ الأشخاصَ (سواءٌ من نمـطِ البشـر أو الإلـه) هـمُ الفـاعلونَ الـذي يفعلـونَ عـن قَصْـد (= إرادةٍ تستهدفُ غايـةً معيَّنـة). وهـو يـرىٰ شـخصَ الإنسـان كفاعلٍ عضويٍّ، كجسَدٍ قـادرٍ عـلىٰ الفعـلِ القَصْـدي. لكـن عـلىٰ الـرَّغمِ مـن أنَّ كـلَّ الفـاعلين المتجسِّـدين (مثـل أشـخاص البشـر) يجـب أنْ يكونـوا وحـدات نفسـيَّة (سـيكولوجية)، لكـن لا يجـب أنْ يكـونَ كـلُّ الفـاعلين متجسِّدين.

لا توجـدُ حُجَّـةٌ ضـدَّ الثُّنائيـة[1] تُبـيِّنُ أنَّ الجسَـدَ هـو شرطٌ ضروريٌّ

---

(١) مصطلح (الثنائيـة) يُعـبِّر عـن الاتِّجاه الفَلْسفي الـذي يؤكِّـد عـلىٰ ثنائيـةِ الإنسـان بوصـفِهِ جسـداً وروحـاً، أو جسـماً ونفسـاً، أو بـدناً وعقـلاً... عـبِّر بـما شـئت. ويقـع عـلىٰ رأسِ القـائلين بالثنائيـة الفيلسـوفُ الفرنسـي رينيـه ديكـارت. ويقـفُ في النقطـة المقابلـة المـادِّيون المتطرِّفـون، الـذين يرفضـون الاعـتراف بـأيِّ جانـبٍ معنـويٍّ يتجـاوز جسـد الإنسـان ودماغِهِ. هذا الموضوع هـو مـن أهـمِّ مواضيع (فَلْسـفة الـذِّهن). و(فلـو) هنـا يريـد أنْ يقـول بأنَّـه لا توجـد حُجَّـة قاطعـة تنفـي وجـود شيء يتجـاوز الجسـد، وبالتـالي تـدحض الثنائيـة، حتىٰ يُقال: إنَّ الشخصَ إنْ لم يكن جسـداً، فـلا وجـودَ لـه كفاعـل، حتَّـىٰ ينطبـق هـذا القـول في النهايةِ عـلىٰ الإلـه وننفـي وجـودَهُ، لأنَّ المعيـارَ بـاتَ هـو الفعـلُ القَصْـدي، ولـيس وجـود

لكينونـةِ الفاعـل، طالمـا أنَّ شرْطَ كينونـة الفاعـل هـو أنْ يكـونَ قـادراً عـلىٰ الفعلِ القَصْدي. تريسـي يـرىٰ أنَّ الإلـهَ فاعـلٌ وكـلُّ أفعالِـهِ قَصْـدية. عنـدما تتحـدَّثُ عـن الإلـه ككـائنٍ شخصـي، فأنـتَ تتحـدَّثُ عنـه بوصـفِهِ فـاعلاً عن قَصْد. قـدرةُ الإلـه عـلىٰ الفعـلِ مُتميِّـزة، والأفعـالُ التـي تُعـزىٰ إلىٰ الإلـهِ لا يمكـنُ مـن حيـثُ المبـدأ أنْ تُنْسَـبَ لفـاعلينَ آخـرين. عـلىٰ سـبيلِ المثـال: الإله عَبْرَ فعلِهِ القصـدي، هـو الفاعـلُ الـذي يمـنَحُ الوجـودَ لكُـلِّ الكائنـاتِ الأُخرىٰ.

لاحـظَ تريســي أنَّ الإلـهَ يمكـنُ تعريفُـهُ عَـبْرَ الـنَّمط الفريـد لطريقـةِ فعلِهِ. (إذا تصوَّرنا الإلـهَ باعتبـارِهِ الفاعـل الكامـل، فسـوف نـرىٰ هـذا الإلـه كفاعـلٍ خـلَّاقٍ لذاتـهِ[1]، تتبـدَّىٰ حياتُـهُ كوحـدةٍ كاملـةٍ مـن القَصْـد، وهـو خـالقُ كـلِّ شيءٍ وعـلىٰ كـلِّ شيءٍ قـدير). أنْ نقـولَ: إنَّ الإلـهَ يُحِـبُّ، فكأنَّنـا نقولُ: إنَّ حُبَّ الإلـهِ يظهَـرُ بطريقـةٍ تكوينيـةٍ في أفعالِـهِ، وهـذه الأفعـالُ تُمثِّـلُ هويَّتَهُ كفاعـل. الإلـهُ فاعـلٌ، لكـن نمـطُ حياتِـهِ وقدرتِـهِ عـلىٰ الفعـلِ تختلـفُ بشكلٍ أساسيٍّ عنَّـا. بـما أنَّ نطـاقَ ومحتـوىٰ فعـل الإلـه مُميَّـز، كـذلكَ سـيكونُ الحـالُ في خاصـيَّةِ حُبِّـهِ وأناتِـهِ وحكمتِـهِ)[2]. هــذا الفهـمُ للأفعـالِ الإلهيـة

جسَد مادِّي للفاعل. (المراجع).

(١) أقـول: تعـابير مـن قبيـل: (خـلَّاقٌ لذاتـهِ) أو (خـالِقٌ لذاتـهِ) أو (مبـدعٌ لذاتـهِ) أو (موجـد لذاتـهِ) في وصـفِ الله، هـي متهافتـةٌ ولا تسـتقيم. لأنَّ الإلـه لـيس مخلوقـاً أو مبتـدعاً ولـو لذاتـهِ. نعـم هـو خـلاَّقٌ بذاتـهِ، خـالقٌ بذاتـهِ، مبـدعٌ بذاتـهِ، موجـودٌ بذاتـهِ. لكـن التزامـاً بالترجمة الحرفية التزمنا بما هو مذكورٌ أعلاه في المتن. (المراجع).

(٢) Thomas F. Tracy, God, Action and Embodiment (Grand Rapids, MI: Eerdmans, ١٩٨٤), ١٤٧, ١٥٣. See also The God Who Acts, ed. Thomas F. Tracy (University Park: Pennsylvania State University Press, ١٩٩٤).

يمكنُ أنْ يُساعِدَ في إعطاءِ محتوىٰ لوصفِنا للإلهِ بأنَّه مُحِبٌّ أو حكيم، ومع ذلكَ لا بدَّ أنْ نعترفَ بأنَّ فهمَنا محدودٌ للغاية.

* * *

التجهيزات الواقعية للعالَم
(THE REAL FURNITURE OF THE WORLD)

برايــان ليفتــو، وهــو حاليــاً أُســتاذٌ بجامعــةِ أكســفورد، يُعــالِجُ هــذه الأفكــار في كتابِــهِ (الزَّمــان والخُلُــود Time and Eternity). في نقــاشي معــه، أشارَ ليفتو بأنَّ فكـرةَ الإلـه الخـارج عـن الزَّمـانِ والمكـان تتوافـقُ مـع نظريـةِ النِّسـبيةِ الخاصَّــة (special relativity)[1]. يقــولُ ليفتــو: (هنــاكَ الكثـيرُ مــن الحُجَـجِ التـي يمكـنُ أنْ تعرِضَـها لمحاولـةِ بيـان أنَّ الإلـهَ خـارجَ الزَّمـان... الشَّــيءُ الذي أثَّـرَ علـيَّ أنَّـكَ إذا أخـذْتَ النِّسـبيةَ الخاصَّـةَ بشـكلٍ جـادٍّ جـدَّاً، فستعتقد بأنَّ كلَّ شيءٍ في الزَّمانِ هـو في المكـانِ أيضـاً. إنَّهـا مجـرَّدُ أبعـاد أربعـة متَّصلة. ليس ثَمَّة مُوحِّد يُفكِّر أبـداً بـأنَّ الإلـهَ كـان موجـوداً في المكـانِ هنـاكَ بـالمعنىٰ الحـرفي. إذا لم يكـن الإلـهُ في المكـان، وكـلُّ مـن في الزَّمـانِ هـو في المكـان، إذن فالإلـهُ لـيس في الزَّمـان. السُّـؤالُ إذن يُصـبحُ هكـذا: مـا هـو

(١) نظريــة النســبية الخاصَّــة أو نظريــة اللَّاتغــيّر (the invariant theory) كــما كــان يُســمّيها أينشــتاين، وهــي التسمية الأكثر دقَّـة، هـي (نظريـة فيزيائيـة) للقيـاس في (إطـار مرجعـي). اقترحهــا (ألــبرت أينشــتاين) عــام (١٩٠٥م) كبــديل عــن نظريــة (نيــوتن) في (الزمــان والمكــان) لتحــلَّ بشــكل خــاصّ مشــاكل النظريــة القديمــة فــيما يتعلَّــق (بــالأمواج الكهرومغناطيسـية) عامَّـة، (والضـوء) خاصَّـة. وهـي تُـدعىٰ (خاصَّـة) لأنَّهـا تعـالج حالـة خاصَّـة تتعلَّـق بحركـة المراجع (المختبرات) بالنسبة لبعضـها الـبعض بسـرعة منتظمـة وفي خطٍّ مستقيم.

المعنىٰ الذي يمكنُ تقديمُهُ لكائنٍ يُشبِهُ الشَّخصَ كائنٍ خارجٍ عن الزَّمان؟).

يستمرُّ لفتو بالقول: (حسناً، الكثيرُ من المحمولاتِ الشَّخصية لن تنطبق. الإلهُ لا يمكن أنْ ينسىٰ. أنتَ تنسىٰ ما وقَعَ لكَ في الماضي. الإلهُ لا يكُفُّ عن فعلِ شيءٍ ما. أنت تكُفُّ عن فعلِ شيءٍ ما لواقعٍ حَدَثَ لك في الماضي. لكن هناك محمولاتٌ شخصيةٌ أُخرىٰ لا يبدو أنَّها تُحيلُ بشكلٍ أساسيٍّ إلىٰ الزَّمان - الأشياء، مثلُ العِلْم (knowing)، الذي يمكنُ أنْ يكونَ مجرَّدَ حالةٍ من الاستعداد (أي القابليَّة) دونَ أنْ يُحيلَ إلىٰ زمان. وسأُجادِلُ بأنَّ القصْدَ، يمكن أنْ يكونَ أيضاً حالةً من الاستعداد بحيث لو كان شيئاً ما قد وقَعَ، لكُنْتَ قد فعلتَ شيئاً ما. لذا أنا أميلُ إلىٰ الاعتقادِ بأنَّ هناك أسباباً للاعتقادِ بأنَّ الإلهَ هو خارجُ الزَّمان. وأيضاً بأنَّنا من الممكنِ أنْ نُقدِّمَ معنىٰ لا يسوقُنا إلىٰ الغوصِ في مستنقعِ الوحل).

السُّؤالُ الثاني الذي تصدَّىٰ له ليفتو كان هو: كيف يمكن أنْ نُقدِّمَ معنىٰ لروحٍ حاضرةٍ بكُلِّ زمانٍ ومكانٍ، وتقومُ بممارسةِ العمل في المكانِ أو في العالَمِ؟

(إذا كان الإلهُ غيرَ زمانيٍّ، فإنَّ أيَّ شيءٍ يفعلُهُ، سوف يفعلُهُ دفعةً واحدة[1]. ما كان له أنْ يفعلَ شيئاً ما أوَّلاً ثمَّ يفعل الشَّيءَ الثاني بعد ذلك. وإنَّما هو فعلٌ واحدٌ قد يكونُ له تأثيرٌ في أزمانٍ مختلفة. قد يريدُ الإلهُ بإرادةٍ واحدةٍ أنْ تُشرِقَ الشَّمسُ اليومَ وأنْ تُشرِقَ غداً، وهذا ما

---

(١) يُذكِّرنا هذا بقولِه تعالىٰ: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ۝٥٠﴾ (القمر: ٥٠). (المراجع).

يُؤثِّرُ علىٰ اليومِ وغداً. مع ذلك، هذا ليس هو السُّؤالُ الأكثر أهمّية.

السُّؤالُ الأكثر أهمّية هو: كيف يمكن أنْ يكونَ هناكَ ارتباطٌ سببيٌّ بين كائنٍ لا زماني ولا مكاني وبين مجموعِ الزَّمان - المكان[١]؟ قدرَتُكَ علىٰ تقديمِ معنىٰ لذلك يعتمدُ إلىٰ حدٍّ كبير علىٰ نظريَّتِكَ في السَّببية[٢]. إذا كُنْتَ تعتقد أنَّ تصوُّرَ السَّبب يستبطنُ بشكلٍ أساسيٍّ إحالةً زمانية - كما لو وقَعَ حدثٌ ما، تبِعَهُ حدَثٌ آخر، وكانت بينهما علاقاتٌ معيَّنة - فإنَّ هذا المعنىٰ للسَّببِ سوف يتمُّ استبعادُهُ[٣]. لكن هناك تحليلاتٌ للسَّببيةِ لا

---

(١) وهي معضلة تناولها فلاسفة الإسلام ببحثٍ عميق تحت عنوان (ربط القديم بالحادث). أُنظر: أُصول الفلسفة والمنهج الواقعي للسيِّد الطباطبائي/ تعليق الشيخ المطهَّري/ المقالة الحادية عشرة والمقالة الرابعة عشرة. (المراجع).

(٢) وهذا بالضبط ما قدَّمهُ صدر الدين الشيرازي، عندما طرح نظريَّتهُ في مناطِ احتياج المعلول إلىٰ العلَّة. حيث بيَّنَ أنَّ المناطَ هو الفقرُ الوجودي، فالمعلولُ هو عين الرَّبط والتعلُّق بالعلَّة، وليس شيئاً يعرض له الرَّبط والتعلُّق بالعلَّة. (المراجع).

(٣) (فلو) يريد أنْ يؤكِّد علىٰ أنَّ المفهوم المتداول للسببية يستبطنُ مفهومَ التعاقب الزَّمني للحوادث، وهذا المفهوم لن ينفعنا في المقام. فلا بدَّ لمفهومِ السببية أنْ يُجرَّدَ عن الزَّمان، حتَّىٰ يُستفادَ منه في فهم علاقة الإله بالعالَم، لأنَّ الإله خارج إطار الزَّمان. بعبارةٍ أُخرىٰ: طالما بقيَ مفهومُنا للسببية يُحيلُنا إلىٰ الزَّمان، فلن نستفيد منه في فهمِ علاقة الإله بالعالَم.

وهذا تماماً ما أكَّدَ عليه فلاسفتنا، حيث ميَّزوا بين السببية بمفهومها التجريبي، والسببية بمفهومها العقلي. وأكَّدوا علىٰ أنَّ السببية بمفهومها العقلي تُعبِّر عن علاقةِ الإيجاب والضَّرورة بين ظاهرتين؛ فأيُّ ظاهرتين إحداهما تؤثِّر في إيجادِ الأُخرىٰ حتماً، فالظاهرةُ المؤثِّرة منهما هي السَّبب، والظاهرةُ الموجودةُ نتيجةَ ذلك التأثير هي المُسبَّب. وأمَّا السببية بمفهومها التجريبي، فهي لا تُعبِّر عن الإيجادِ والتأثيرِ والحتميةِ والضَّرورة، لأنَّ هذه العناصر لا تدخل في نطاقِ الخبرة الحسية، فالسببية بمفهومها التجريبي لا تعني سوىٰ نوع معيَّن من التتابع الزَّمني المُطَّرِد بين ظاهرتين. للتفصيل أُنظر: الأُسس

تستبطنُ إحالـةً أساسـيةً للزَّمـان. أنـا شخصيـاً أميـلُ إلىٰ فكـرةِ أنَّ تصـوُّرَ السَّبب في الواقـعِ لا تحليـلَ لـه - أي إنَّـه مجـرَّدُ تصـوُّر أوَّلي، والسَّـببية بـذاتِها هي علاقةٌ أوَّلية. إنَّها جـزءٌ مـن أثـاثِ (تجهيـزات) العـالَم. إذا لم يكـن لتصـوُّرِ السَّـبب تحليـلٌ، فلـيس ثَمَّـةَ شيء يمكـن أنْ تقتلِعَـهُ عـن طريـقِ التَّحليـل[1] بنحوٍ يستبعدَ الرَّبط السَّببي الأوَّلي بين الإلهِ اللَّازماني والزَّمان بأسرِهِ[2].

* * *

المنطقيـة للاسـتقراء لمحمّـد بـاقر الصـدر: ٧٢ و٧٣/ القسـم الثـاني: الاسـتقراء والمـذهب التجريبي/ تحت عنوان: (موقف الاتِّجاه الأوَّل من المشكلة الأُولىٰ والثالثة).

بل يرتقىٰ (فلو) بعـد قليـل ليقـول بـأنَّ مفهـومَ السـببية مجـرَّدٌ أساسـاً عـن الزمـان، لأنَّـه أوَّليٌّ بـديهي، لا يمكـن تحليلُـهُ وتجريـدُهُ. وهـذا يعنـي أنَّـه يقبـل السـببية بمفهومهـا العقـلي كأساس، ثمَّ يُفسِّـر السـببية بمفهومهـا التجريبـي علىٰ ضـوئها. وهـذا الموقـف يشـبه إلىٰ حـدٍّ بعيد موقف فلاسـفتنا الـذين أكَّـدوا علىٰ أنَّ السـببية مـن المعقـولاتِ الفَلْسـفية الثانيـة، التـي تُمثِّل الهيكلَ العظمي للمعرفة البشرية. (المراجع).

(١) يقصد (فلـو) أنَّ السـببية لا تسـتبطنُ مفهـوم الزَّمـان أساسـاً، لنعمـل علىٰ تجريـدِها منـه، ثـمَّ نُطبِّقهـا عـلىٰ علاقـةِ الإلـه بالعـالَم. فالسـببية - وفقـاً لفلـو - تصـوُّرٌ أوَّليٌّ لا تحليـلَ لـه. (المراجع).

(٢) Brian Leftow, personal conversation with the author, Oriel College, Oxford University, October ٢٠٠٦.

إمكانية متماسكة

(A COHERENT POSSIBILITY)

علىٰ أقلِّ تقديرٍ، بيَّنَت دراساتُ تريسي وليفتو أنَّ فكرةَ الرُّوح الحاضرة في كلِّ زمانٍ ومكان ليست غير متماسكة في جوهرِها، إذا ما نظَرْنا إلىٰ هذه الرُّوح علىٰ أنَّها فاعلٌ خارج الزَّمانِ والمكان، يقومُ بأفعالِهِ القَصْدية بطريقةٍ فريدةٍ في المتَّصِل الزَّماني - المكاني. والسُّؤالُ عمَّا إذا كانت مثلُ هذه الرُّوح موجودة، كما رأينا، يقعُ في صُلْبِ حُجَج وجود الإله.

أمَّا بالنِّسبةِ لصلاحيةِ هذه الحُجَج، فأنا أتَّفِقُ مع استنتاج كونواي، الذي قال: (إذا كان الاستدلالُ في الفَصْلِ السَّابقِ صلْباً، فإنَّه لا توجدُ حُجَجٌ فَلْسفيةٌ جيِّدةٌ تنفي وجودَ الإله لتكونَ تفسيراً للكونِ والنِّظام الذي يظهَرُ عليه. وإنْ كان الأمرُ كذلك، فلا يوجدُ سببٌ جيِّدٌ للفلاسفةِ يحولُ دونَ عودتِهِم مرَّةً أُخرىٰ إلىٰ التصوُّرِ الكلاسيكي لموضوعِهِم، شريطةَ أنْ لا تكونَ هناك طرُقٌ أُخرىٰ أفضل للظَّفرِ بالحكمة)[1].

* * *

(١) David Conway, The Rediscovery of Wisdom (London: Macmillan, ٢٠٠٠), ١٣٤.

الفصل العاشر:

الطريقُ مفتوحٌ أمامَ إلهٍ كامل القدرة

OPEN TO OMINIPOTENCE

العِلْـمُ كعِلْـمٍ لا يمكـنُ أنْ يُقـدِّمَ حُجَّـةً عـلىٰ وجـودِ الإلـه[1]. ولكـن الأدِلَّـةَ الثلاثـةَ التـي ذكرتُهـا في هـذا الكتـاب - قـوانينَ الطَّبيعـة، الحيـاةَ مـع تنظيمِها الغـائي، ووجـودَ الكـون - يمكـنُ تفسـيرُها فقـط عـلىٰ ضـوءِ ذكـاءٍ يُفسِّـرُ في وقـتٍ واحـدٍ وجـودَهُ بذاتِـهِ ووجـودَ العـالَمِ. مثـلُ هـذا الاكتشـاف للمُقدَّس لا يأتي عَبْرَ معادلاتٍ وتجارب، بـل عَـبْرَ فهـم البُنَـىٰ التـي تكشِـفُ عنها وفهم الخريطة.

الآن، كلُّ ذلك قد يبـدو مجـرَّداً وغامضـاً. قـد تسـأل: كيـف أتصـرَّفُ كشـخصٍ عنـد اكتشـافِ الواقعيـة القصـوىٰ لـرُوحٍ حـاضرةٍ في كـلِّ زمـانٍ ومكانٍ وقادرةٍ علىٰ كـلِّ شيء؟ يجـبُ عـليَّ أنْ أُعيـدَ تَكـرار القـول بـأنَّ رحلـةَ اكتشافي للمُقـدَّس كانـت إلىٰ حـدٍّ بعيـدٍ رحلـةَ عقـل. لقـد اتَّبعـتُ الحُجَّـةَ إلىٰ حيـثُ قـادتني. وقـد قـادتني إلىٰ القبـولِ بوجـودِ إلـهٍ ذاتيِّ الوجـود، لا يتغـيَّر، غير مادِّي، علىٰ كلِّ شيءٍ قدير، وبكلِّ شيءٍ عليم.

بالتأكيـد، لا بـدَّ مـن مواجهـةِ مشـكلة الشُّـرور والمعانـاة في العـالَمِ. ولكـن فَلْسـفياً، هـذا موضـوعٌ منفصـلٌ عـن التَّسـاؤل عـن وجـودِ إلـه. مـن وجـودِ العـالَمِ، نصـلُ إلىٰ أسـاسِ وجـودِهِ. قـد يكـونُ للطَّبيعـةِ نواقصُـها،

---

(١) لا يخفـىٰ عـلىٰ القـارئ أنَّ المقصـود بـ (العِلْـم) العِلْـم الطبيعـي، كعِلْـم الفيزيـاء والكيميـاء والأحيـاء والجيولوجيـا... الـخ، لأنَّ هـذه العلـوم ليسـت معنيَّـة بإثبـاتِ وجـود الله أو إثبـات عـدم وجـوده. نعـم قـد تُقـدِّم هـذه العلـوم معطيـات، يُوظِّفُهـا البـاحثون في اتِّجـاهِ الإيمان بالله أو في اتِّجاهِ الإلحاد... هذا ما يعنيه (فلو). (المراجع).

ولكـن هـذا لا علاقـةَ لـه فـيما إذا مـا كـان لها مصـدرٌ مطلـقٌ أو لا. ولـذلك فوجـودُ الإلـهِ لا يعتمـدُ عـلىٰ الظَّفـرِ بتبريـرٍ لوجـودِ الشَّــرِّ أو عـدم الظَّفـر بتبريرٍ لوجودِهِ.

فيما يتعلَّـق بتفسـيرِ الشُّــرور، هنـاكَ تفسـيرانِ بالنِّسـبةِ لأُولئـكَ الـذين يؤمنـون بوجـودِ الإلـه. التَّفسـيرُ الأوَّلُ هـو في إلـهِ أُرسـطو الـذي لا يتـدخَّلُ في العالَمَ. أمَّـا التَّفسـيرُ الثـاني فيسـتنِدُ إلىٰ دفـاعِ الإرادة الحـرَّة، وهـي فكـرةُ أنَّ الشَّـرَّ ممكـنٌ مـا دامَ الإنسـانُ حُـرَّ الإرادة. في الإطـارِ الأُرسـطي، بمجـرَّدِ أنْ أتـمَّ الإلـهُ خَلْـقَ الكـون، تـرَكَ الأمـرَ لقـوانينِ الطَّبيعـة، وإنْ كـان في بعـضِ الأحيان قد يتدخَّل مـن بعيـد في القضـايا المبدئيـة، مثـلُ إقامـة العـدل. دفـاعُ الإرادة الحرَّة يعتمدُ عـلىٰ القبـولِ المُسْـبق بإطـارِ الـوحي الإلهـي، وهـي فكـرةُ أنَّ الإلهَ قد تجلَّىٰ (أظهَرَ ذاتَهُ).

* * *

منفتحٌ لتعلُّمِ المزيد

(OPEN TO LEARNING MORE)

إلىٰ أين أنا ذاهبٌ من هنـا؟ في المقـامِ الأوَّل، أنـا منفـتحٌ بنحـوٍ تـامٍّ عـلىٰ التعلُّمِ أكثر عـن الواقعيـةِ الإلهيـة، خصوصـاً في ضـوءِ مـا نعرِفُـهُ عـن تـاريخِ الطَّبيعة. وثانياً أنَّ السُّؤالَ عـمَّا إذا كـان الإلـهُ قـد تجـلَّىٰ بذاتِـهِ (أظهَـرَ ذاتَـهُ) في التـاريخِ البشـري، يظـلُّ موضـوعاً مشـروعاً للنقـاش. لا نسـتطيعُ أنْ نقصُـرَ (نُحدِّدَ) إمكانيات الإلـه الـذي هـو عـلىٰ كـلِّ شيء قـدير، إلَّا إذا كـان أنـتجَ مـا هـو غـير ممكـن منطقيـاً. عـدا ذلـك، كـلُّ شيءٍ مفتـوحٌ لإلـهٍ كُـلِّي القدرة.

الملحقُ الثـاني مـن هـذا الكتـاب هـو عَـرْضٌ للنِّقـاشِ الـذي دارَ حـول المسـألة الأخـيرة مـع المُتخصِّـص بالكتـابِ المُقـدَّس والأُسـقُف الإنجـيلي رايـت (N. T. Wright)، مـع إشـارةٍ خاصَّـةٍ إلىٰ الادِّعـاءِ المسـيحي بـأنَّ الإلـهَ أصبحَ رجُلاً في شخصِ السـيِّد المسـيح. كـما قُلْـتُ أكثـرَ مـن مـرَّة، لـيس ثَمَّـةَ دين آخر يتمتَّعُ بمـزيج مـن شخصـيةٍ تمتلـكُ جاذبيـةً مثـل شخصـية المسـيح، ومُفكِّرٍ من الدَّرجةِ الأُولىٰ مثل القـدِّيس بـولس. إذا كُنْـتَ تريـدُ مـن إلـهٍ عـلىٰ كلِّ شيءٍ قدير أنْ يُقيمَ ديناً، فإنَّ ما يبـدو لي هـو أنَّ هـذا الـدِّين هـو مـا يمكـنُ المراهنة عليه[1].

---

(١) وسيأتي التعليق علىٰ ذلك، فانتظر. (المراجع).

٢٢٦ .... هناك إله (كيف غيَّر أشهر مُلْحد رأيه؟)

❊ ❊ ❊

على استعدادٍ للتواصل

(WILLING TO CONNECT)

أُريدُ أنْ أعودَ الآن إلىٰ المثالِ الذي بدأتُ به هذا الجزء من الكتاب. تكلَّمْنا عن الهاتفِ الذي يعمل بالأقمارِ الصِّناعية، الذي تمَّ اكتشافُهُ من قِبَلِ قبيلةٍ تعيشُ في جزيرة، والمحاولاتِ التي جرت لفهمِ طبيعتِهِ. المثالُ انتهىٰ مع حكيمِ القبيلة إلىٰ تعرُّضِهِ لسخريةٍ وتجاهُلٍ من علماءِ القبيلة.

ولكن لنتخيَّلَ أنَّ المثالَ قد انتهىٰ بنحوٍ مختلف. العلماءُ اختاروا تفعيلَ فرضيةِ الحكيم بأنَّ الهاتفَ مجرَّدُ وسيلةٍ للتواصلِ مع أُناسٍ آخرين. وبعد مزيدٍ من البحث، أكَّدوا النتيجةَ القائلة بأنَّ الهاتفَ مرتبطٌ بشبكةٍ تبُثُّ أصواتَ أُناسٍ واقعيِّين. العلماءُ الآن يقبلونَ بفرضيةِ وجودِ كائناتٍ ذكية (هناك في الخارج).

بعضُ علماء القبيلة ذهبَ إلىٰ أبعَدَ من ذلك. عملوا علىٰ فكِّ شفرة الأصوات التي تأتي من الهاتف. وتوصَّلوا إلىٰ نمطِ النَّغمات والنَّسَق الذي تتحدَّث به هذه الأصوات بنحوٍ يُمكِّنهُم من فهمِ ما قيل. عالمُهُم بأسرِهِ يتغيَّر. هم يعرفونَ الآن أنَّهم ليسوا وحيدين. وفي لحظةٍ معيَّنةٍ أجروا اتِّصالاً.

من السَّهلِ تطبيق التَّشبيه في هذا المثال. اكتشافُ ظواهر كقوانينِ الطَّبيعة – شبكة الاتِّصال في المثالِ السَّابق – قادَ علماءَ وفلاسفة وآخرين

إلىٰ القبولِ بوجودِ عقلٍ ذكيٍّ لا نهائي. البعضُ يدَّعي أنَّه أجرىٰ مكالمةً مع هذا العقل. أمَّا أنا فليس بعد. ولكن من يعرف ما سيحدُث لاحقاً؟

في يومٍ ما قد أسمَعُ صوتاً يقول: (هل بمقدورِكَ الآن أنْ تسْمَعَني؟).

* * *

الملاحق

في هــذا الكتــاب، لَخَّصْــتُ الحُجَــجَ التــي قــادتني إلىٰ تغيــيرِ وجهــةِ نظري فيما يتعلَّـق بوجـودِ الإلـه. كـما أشَرْتُ سـابقاً، دافيـد كونـواي في كتابِـهِ (إعــادة اكتشــاف الحكمــة)، لعَـبَ دوراً مهـمّاً في هــذا التغيـير. كتـابٌ آخـر كنْتُ قد أوصيتُ بـه في منتـدىٰ آخـر، هـو (العجيـبُ في العـالَم) لــ (أبراهـام فارجيز Abraham Varghese).

في مقــدِّمتي الجديـدة لكتــابي (الإلــه والفَلْسـفة)، قلْـتُ: إنَّ أيَّ أثـرٍ يـأتي بعـد هـذا الكتـاب، (لا بـدَّ أنْ يضَـعَ في حُسـبانِهِ) كتـاب (العجيـب في العـالَم)، الـذي قـدَّمَ حُجَّـةً شـاملةً للغايـة، حُجَّـة اسـتقرائية مـن النِّظـامِ السَّــاري في الطَّبيعــة. وعنـدما تعــاون معــي فــارجيز في تــأليفِ الكتــاب الحالي، طلبْتُ منـه أنْ يُلْحِـقَ بتـأمُّلاتي تحليلاً وتقييماً للحُجَـجِ التـي طرحَهـا الجيـلُ الحـالي مـن المُلْحـدين. ورقتُـهُ كـان عنوانُهـا (الإلحـادُ الجديـد: تقيـيمٌ نقـديٌّ لــ (دوكينـز، دينيـت، ولـبرت، هـاريس، وسـتينجر)، وهـي تُشـكِّلُ المُلْحَقَ الأوَّل.

المُلْحَقُ الثاني يتعلَّـقُ بالادِّعـاء بـأنَّ هنـاك وحيـاً ذاتيـاً للإلـهِ في التـاريخِ البشـري تجسَّدَ بيسوعِ المسيح. هـذا الادِّعـاءُ تـمَّ الـدِّفاع عنـه بواسـطةِ أحـد الأعـلام المُتخصِّصـين في العهـدِ الجديـد، وهـو الأُسْـقُف نيكـولاس تومـاس رايـت. وبرأيـي، أجـابَ رايـت، في الكتـابِ الحـالي وفي كتابِـهِ علىٰ السَّـواء، عـن انتقـاداتي السَّـابقة المتعلِّقـة بـالوحي الـذَّاتي المُقـدَّس، بنحـوٍ يُعـبِّرُ عـن أقوىٰ استعراضٍ للمسيحيةِ اطَّلعتُ عليه.

لقد ألحقْتُ هذين في كتابي هذا لأنهَّما معاً أمثلة لاستدلالٍ قادني إلىٰ تغييرِ وجهة نظري حولَ وجود الإله. لقد شعرْتُ أنَّ من المناسبِ أنْ أُلحِقهُما بكتابي بنحوٍ كامل لأنَّهما إضافة أصيلة للنقاشِ بنحوٍ بالغ الدَّلالة، فضلاً عن كونهِما يُعطيانِ للقارئ بعضَ الإضاءة حول اتِّجاه رحلتي العقلية الحالية. عندما يُؤخذان بالتَّزامُنِ مع (القَسْمِ الثاني: اكتشافي للمُقدَّس)، فستجد أنَّها تُشكِّلُ كلَّا عضوياً يُقدِّمُ رؤيةً جديدةً في فَلْسفةِ الدِّين.

* * *

الملحق الأوَّل:

الإلحاد الجديد

THE "NEW ATHEISM"

تقييمٌ نقديٌّ لدوكينز، دينيت، ولبرت، هاريس، وستينجر

روي أبراهام فارجيز

Roy Abarahm Varghese

أساسُ (الإلحاد الجديد New Atheism) يقومُ علىٰ الاعتقادِ بعدَمِ وجود إلٰه، لا وجودَ لإلٰهٍ خالدٍ لا متناهٍ مَصْدر لكلِّ الموجودات. هذا الاعتقادُ الأساسُ يحتاجُ إلىٰ تأسيسٍ حتَّىٰ تصحَّ بقيَّة الحُجَج. أدَّعي هنا أنَّ (المُلْحدينَ الجُدُد) من أمثالِ ريتشارد دوكينز (Dawkins Richard)، دانيال دينيت (Daniel Dennett)، لويس ولبرت (Lewis Wolpert)، وسام هاريس (Sam Harris)، وفيكتور ستينجر (Victor Stenger)، لم يفشلوا فقط في تقديمِ سببٍ لهذا الاعتقاد، بل إنَّهم تجاهلوا الظَّواهرَ الواضحة المُتعلِّقة تحديداً بالسُّؤالِ عمَّا إذا كان الإلهُ موجوداً.

كما أرىٰ، هناك خمسُ ظواهر واضحة في خبرتِنا المباشرة، لا يمكنُ تفسيرُها إلَّا بلُغةِ الإيمان بوجودِ إله. هذه الظَّواهر هي:

الأُولىٰ: العقلانيةُ المُتضمَّنة في جميعِ خبراتنا الحسِّية عن العالَمِ الفيزيائي.

الثانية: الحياةُ، القدرةُ علىٰ الفعلِ بنحوٍ مستقلٍّ.

الثالثة: الوعيُ، القدرة علىٰ أنْ تكونَ مُدْرِكاً.

الرَّابعة: الفكرُ التصوُّري (conceptual thought)، القدرةُ علىٰ التعبيرِ وفهمِ الرُّموز كتلكَ الموجودة في اللُّغة.

الخامسة: النَّفس (الذَّات) البشرية، (مركزُ) الوعي والفكرِ والفعل.

هناك ثلاثةُ أشياءٍ يجب أنْ تُقالَ عن هذه الظَّواهر وارتباطِها

بوجودِ الإله:

أوَّلاً: نحنُ اعتَدْنا علىٰ سَماعِ حُجَجٍ وأدلَّةٍ علىٰ وجودِ الإله. في رأيي، أنَّ هذه الحُجَجَ مفيدةٌ في توضيح بعض الأفكار الأساسية، ولكن لا يمكن اعتبارُها (براهين) بحيث تُحدِّد صلاحيَّتها الصُّورية ما إذا كان هناك إله(١). لأنَّ كلَّ واحدةٍ من الظَّواهرِ الخمسة التي نستشهدُ بها هنا، بطريقتِها الخاصَّة، تفترضُ مسبقاً وجودَ عقلٍ أبديٍّ لا نهائي. فالإلهُ هو الشَّرطُ الذي يكمُنُ وراءَهُ كلّ ما هو واضحٌ بذاتِهِ (بديهي) في خبرتِنا.

ثانياً: لا بدَّ أنْ يكون واضحاً من النُّقطةِ السَّابقة، أنَّنا لا نتحدَّثُ عن احتمالاتٍ وفرضيات، وإنَّما نتحدَّثُ عن مواجهةٍ مع واقعياتٍ أساسيةٍ لا يمكنُ إنكارُها دونَ الوقوع في تناقُضٍ ذاتي.

بعبارةٍ أُخرىٰ: نحنُ لا نُطبِّق مبرهنات الاحتمال علىٰ مجموعاتٍ معيَّنةٍ من المعطيات، ولكنَّنا نُركِّزُ أكثرَ بكثيرٍ علىٰ السُّؤالِ الأساسي حول كيف يمكن تقييم المعطيات من الأساس(٢). وبالمثل، فإنَّ الأمرَ ليس

---

(١) يقصد (فارجيز) هنا أنَّ الأدلة التي يمكن أنْ تُقدَّم كحُجَجٍ علىٰ وجود الإله، قد تكون سليمةً من الناحيةِ الصورية، لكنَّها قابلة للتفنيد من ناحيةِ المادَّة والمضمون. والبرهانُ حتَّىٰ يكون صَلْباً، كما تقرَّر في عِلْم المنطق، لا بدَّ أنْ يكون سليماً من حيث الصورة، وصادقاً من حيث المادَّة، حتَّىٰ تصحَّ النتيجة التي ينتهي إليها.

أقول: يمكن مناقشة فارجيز بأنَّ الظواهرَ الخمس التي يُقدِّمُها يمكن أنْ تُصاغ علىٰ هيئةِ براهين سليمة من حيث الصورة، وصادقة من حيث المادَّة، في وقتٍ واحد. (المراجع).

(٢) أقول: الفشل في صياغةِ تلك المعطيات علىٰ هيئةِ دليلٍ قائمٍ علىٰ مبرهنات نظرية الاحتمال، لا يعني عدم إمكان ذلك. فقد نجَحَ السيِّد محمَّد باقر الصَّدْر في القيام بهذه المهمَّة نجاحاً لا نظيرَ له، كما نرىٰ في كتابه (الأُسس المنطقية للاستقراء)، حيثُ صاغَ دليلَ النَّظْم بنحوٍ ينسجمُ مع منطقِ الاحتمال وبديهياتِهِ. (المراجع).

مجـرَّد مسـألة اسـتنتاج وجـود إلـه مـن خـلالِ وجـود ظـواهر معقَّـدة معيَّنـة، لأنَّ وجودَ الإله تفترِضُهُ مسبقاً كلُّ الظَّواهر.

ثالثـاً: يشـتكي المُلْحـدونَ، القُـدماء والجُـدُد، مـن عـدمِ وجـودِ دليـلٍ علىٰ وجـودِ الإلـه، وقـد ردَّ بعـض المُوحِّـدينَ علىٰ ذلـكَ بـالقولِ بـأنَّ إرادَتَنـا الحُرَّة لا يمكن أنْ تصمُد إلَّا إذا كان الدَّليلُ غيرُ قَسْري (noncoercive)(١).

المقاربـةُ المُتَّبعـةُ هنـا هـو أنَّ لـدينا كـلَّ الأدلَّـة التـي نحتاجُهـا (علىٰ وجـودِ الإلـه) في خبرتِنـا المبـاشرة، وأنَّ الـرَّفضَ المُتعمَّـد لــ (رؤيـةِ) الواقـع هو وحدهُ المسؤول عن الإلحادِ بصيغِهِ المُتعدِّدة.

عنـد النَّظـرِ في خبرتِنـا المبـاشرة، دعونـا نقـومُ بخـبرةٍ فكريـة. فكِّـر لدقيقـةٍ واحـدةٍ أنَّ أمامَـكَ طاولـة مـن الرُّخـام. هـل يمكـن أنْ تتصـوَّر، لـو افترضْتَ مرور مليـارات السِّـنين أو زمـن لا نهـائي، أنَّ هـذه الطَّاولـةَ يمكـن أنْ تتحـوَّل بصـورةٍ مفاجئـةٍ أو تدريجيـةٍ إلىٰ مُدْركـةٍ وواعيـةٍ لمـا حولهـا، وواعيـةٍ بهويَّتِهـا بالطَّريقـةِ التـي تعـي بهـا الأُمـور؟ بكلمـةٍ: لا يمكـن تعقُّـل حدوث أو إمكانية حدوث ذلـك. والشَّـيءُ ذاتُـهُ ينطبـقُ علىٰ جميـعِ الأشـياء المادِّية. بمجرَّد أنْ تُـدرِكَ طبيعـةَ المـادَّة، المُكوَّنـة مـن كتلـةٍ - طاقـة، تُـدرِكُ أنَّ طبيعتَهـا تجعـلُ مـن المسـتحيلِ أنْ تصـبحَ (مُدْركـة)، أو (تُفكِّـر)، أو تقـول: (أنا). لكن موقـفُ المُلْحـدين يتمثَّـل في أنَّـه، في نقطـةٍ معيَّنـةٍ مـن تـاريخ هـذا الكـون، هـذا المسـتحيل وغـير المُتعقَّـل تحـوَّلَ إلىٰ واقـع. والمـادَّةُ غـيرُ المُميِّـزة

---

(١) المقصود هنـا أنَّ الـدَّليلَ علىٰ وجـودِ الإلـه لـو كـان علـةً تامَّـة (= شرطـاً كافيـاً) للإيـمانِ بـه، لسـلَبَ الـدَّليلُ حرّيـةَ الإردة في القبـولِ بـه أو عـدم القبـول. فالحفـاظُ علىٰ حرّيـةِ الإرادة، يتطلَّـب افـتراض أنَّ الـدَّليلَ علىٰ وجـودِ الإلـه يكـون مجـرَّد (مُقـتضٍ) للإيـمانِ بـه، لا (علَّـة تامَّة) له. (المراجع).

(ونضَعُ ضمْنَ ذلك: الطَّاقة)، عند نُقطةٍ معيَّنة، انبعثت فيها (الحياة)، وبعد ذلكَ أصبحت واعيةً، وبعدها أصبحت مُتْقنةً، ثمَّ قالت: (أنا).

لكن إذا عُدْنا إلىٰ مثالِ الطَّاولة، نرىٰ بسهولةٍ لِمَ أنَّ هذا مثيرٌ للضَّحك؟ فالطَّاولةُ لا تمتلكُ خصائصَ الوعي، ولو افترضنا أنَّا أعطيناها وقتاً لا نهائياً، فلا يُمكِنُها (اكتساب) مثل هذه الخصائص. حتَّىٰ إذا قبِلْنا ببعضِ السِّيناريوهات غير المعقولة عن أصلِ الحياة، فإنَّه لا بدَّ للمرءِ أنْ يتخلَّىٰ عن عقلِهِ حتَّىٰ يقبَلَ بسيناريو يقول: إنَّ قطعةً من الرُّخام، تحتَ شروطٍ معيَّنة، يمكن أنْ تُنتِجَ تصوُّرات. وعلىٰ المستوىٰ دون الذرِّي (subatomic level)، ما ينطبقُ علىٰ الطَّاولة، ينطبقُ علىٰ بقيَّة الأشياء المادِّية في الكون.

علىٰ مدىٰ الثلاثمائة السَّنة الماضية، كشَفَت العلومُ التَّجريبية بما لا يُعَدُّ ولا يُحصىٰ المزيدَ من المعطيات عن العالَمِ الفيزيائي أكثرَ من أيِّ وقتٍ مضىٰ، وهو ما يصعُبُ علىٰ أجدادِنا تخيُّلُهُ. وهذا يشمَلُ الفهمَ الشَّاملَ للشَّبكاتِ الوراثية والعصبية التي تكمُنُ وراءَها الحياةُ والوعي، والفكرُ، والذَّات. بل أبعد من ذلك، هذه الظَّواهرُ الأربعة تعمَلُ مع البُنْيةِ التَّحتيةِ الفيزيائية بشكلٍ يُمكِّنُنا من الفهم بشكلٍ أفضل أكثرَ من أيِّ وقت مضىٰ، بينما العِلْمُ ليس بمقدورِهِ أنْ يُخبِرَنا شيئاً عن أصلِ أو طبيعةِ الظَّواهر في ذاتِها.

وعلىٰ الرَّغمِ من محاولةِ بعض العُلماء كأفراد، تفسير هذه الظَّواهر علىٰ أنَّها تجلٍّ (ظهور) (manifestations) للمادَّة، فإنَّه لا مجالَ للبرهنةِ علىٰ أنَّ فهمي لهذه الجملة ما هو إلَّا انتقالٌ لإشاراتٍ عصبيةٍ محدَّدة.

من المؤكَّد أنَّ هناك إشارات عصبية تُرافِقُ أفكاري، وقد بيَّنَ عِلْمُ

الأعصاب الحديث أنَّ مناطقَ معيَّنة في الدَّماغ تدعمُ أنماطاً مختلفةً من الأنشطةِ الذِّهنية. ولكن القولُ بأنَّ فكرةً معيَّنةً ما هي إلَّا انتقالٌ لمجموعةٍ محدَّدةٍ من الإشارات العصبية هو قولٌ تافهٌ، بنفسِ درجة تفاهة فكرة أنَّ العدلَ ما هي إلَّا حبرٌ علىٰ ورق. ولذا فإنَّ القولَ بأنَّ الوعيَ والفكرَ هو مجرَّدُ انتقالٍ فيزيائيٍّ (physical transactions) هو قولٌ غيرُ متماسك.

ونظراً لضيقِ المساحةِ هنا، أُقدِّمُ نظرةً عامَّةً مختصرةً للغايةِ للظَّواهرِ الخمس الأساسية التي تُمثِّلُ أساساً لخبرتِنا عن العالَم، والتي لا يمكنُ تفسيرُها ضمن إطار (الإلحاد الجديد New Atheism). ويمكنُ الاطِّلاعُ علىٰ دراسةٍ أكثر تفصيلاً في كتابي المقبل (الحلقةُ المفقودة)[1].

* * *

(١) صدَرَ هذا الكتاب لـ(فارجيز) سنة (٢٠١٢م)، في مطبعة الجامعة الأمريكية. (المراجع).

العقلانية[1]

(RATIONALITY)

يسْـأَل دوكينـز وآخـرون: (مـن خلَـقَ الإلـه؟) الآن، مـن الواضـحِ أنَّ المُوحِّـدينَ والمُلْحـدينَ مُتَّفقـونَ عـلىٰ شيءٍ واحـدٍ، وهـو أنَـه إذا كـان هنـاك شيءٌ مـا موجـود، فيجـب أنْ يكـونَ هنـاك شيءٌ مـا سـبَقَهُ، وأنَّـه دائـمُ الوجود. كيفَ جاءَ هذا الواقع الأبدي؟

الجواب: هو أنَّه لم يأتِ مطلقـاً، لأنَّـه موجـودٌ عـلىٰ الـدَّوام. اخـتَرْ أمـراً من أمرين: إمَّا الإله أو الكون. لا بدَّ من شيءٍ ما دائمَ الوجود.

بالدِّقـةِ، عنـد هـذه النُّقطـة تـبرُزُ الحاجـة للعقلانيـة. خلافـاً لاعتراضـاتِ المُلْحـدين، فـإنَّ هنـاك فرقـاً جوهريـاً بـين ادِّعـاءِ المُلْحـدين والمُوحِّدين فيما يخُصُّ دائـمَ الوجـود. يقـولُ المُلْحدون: تفسـيُر الكـونِ هـو أنَّه موجـودٌ منـذُ الأزل، لكنَّـا لا نسـتطيعُ تفسـيرَ حالـة الوجـود الأزلي التـي

---

(١) قُلـتُ فـيما مضـىٰ: إنَّ العقلانيـةَ (rationality) تصـوُّرٌ حيـويٌّ بـالغ الأهمّيـة في الفكـرِ الغـربي الحديث والمعـاصر، ولـه تعريفـاتٌ متعـدِّدة، ومواقـف الفلاسـفة منـه مختلفـة. لكـن التصـوُّر المشهور عن العقلانيـة أنَّـه الموقـف الرَّشـيد الـذي يسـتندُ إلىٰ مُـبرِّراتٍ موضـوعية. فالاعتقـادُ أو القرارُ العقلاني هـو الـذي يقـفُ عـلىٰ أرضـيةٍ صَـلْبةٍ ومعطيـاتٍ كافيـة، في مقابـلِ الاعتقـاد أو القرار غـير العقـلاني الـذي يكـونُ ذاتيـاً، ولا يقـفُ عـلىٰ أرضـيةٍ صَـلْبةٍ ومعطيـاتٍ كافيـة. وعنـدما يتحـدَّثون هنـا عـن عقلانيـةٍ تحكُـمُ الكـون، فـإنَّما يقصـدون نفـي العبثيـة العميـاء، ووجود غاية حكيمة ومُبرِّرات موضوعية وراء الأفعال الجارية فيه. (المراجع).

جاءَت بهذا الكون. هـذا الكـونُ عصـيٌّ عـلىٰ التَّفسـير، ويجـب أنْ يُقبَـلَ كـما هو. في المقابـل، يُصِـرُّ المُوحِّـدون عـلىٰ أنَّ الإلـهَ لـيس عصـيّاً عـلىٰ التَّفسـير: وجودُهُ عصيٌّ علىٰ فهمِنا، لكن ليس عصيّاً علىٰ الإله.

إنَّ وجـودَ الإلــه الأبـدي لا بـدَّ أنْ يكـونَ لـه منطقُـهُ الخـاصّ، لأنَّ وجـودَ العقلانيـةِ في الكـون مشـروطٌ بـأنْ يكـونَ هـذا الوجـودُ قـائماً عـلىٰ أُسسٍ عقلانيةٍ مطلقة (ultimate rationality).

بعبـارةٍ أُخـرىٰ: الحقـائقُ الفَرْديـة (singular facts)، مـن قبيـلِ قُـدْرتنا عـلىٰ معرفـةِ وتفسـيرِ الحقيقـة، والـتَّرابُطِ بـين الأعـمالِ (workings) الموجـودة في الطَّبيعـة ووصـفِنا المجـرَّد لهـذه الأعـمال (abstract descriptions) وهـو مـا يُسـمِّيهِ عـالمُ الفيزيـاء يـوجين ويغنـر (Eugene Wigner) التَّـأثير المنطقـي للرِّياضـيات (reasonable effectiveness of mathematics) ودورِ الشَّـفْرات (أنظمـة الرُّمـوز التـي تعمَـلُ في العـالَمِ الفيزيـائي) في النِّظـامِ الـوراثي والعصـبي في المسـتوياتِ الرَّئيسـيةِ للحيـاة، تـتجلّىٰ (أو تتمظهَـرُ) باعتبارِهـا الرَّكـائز الأساسـية لطبيعـةِ العقلانيـة (nature of rationality). مـا هـو المنطـقُ الدَّاخلي الـذي لا نسـتطيعُ رُؤيتَـهُ، رغـمَ أنَّ الأفكـارَ التقليديـة تُعطـي بعـضَ المؤشِّرات عن طبيعةِ الإله؟

عـلىٰ سـبيلِ المثـال، السـيِّدة اليـانور سـتمب (Eleonore Stump) والسـيِّدة نورمـان كرتزمـان (Norman Kretzmann)، تُناقشـانِ بـالقولِ: إنَّنـا عندما نفهم بشكلٍ كاملٍ خاصّيَّة البسـاطة المطلقـة للإلـه، فإنَّـه يُمكنُنـا تبـيُّن لِمَ عدم وجود الإله غـيرُ ممكـن. ألِفـن بلانتينْغـا يشـيرُ إلىٰ أنَّ الإلـهَ يُفهَـمُ عـلىٰ أنَّه واجبُ الوجودِ في كلِّ العوالِمِ الممكنة.

يمكـنُ للمُلْحـدين أنْ يـرُدُّوا عـلىٰ هـذا الكـلامِ بطـريقتين: أنَّ للعـالَمِ

منطقاً داخليّ لا نستطيع رؤيتُهُ، أو أنَّنا لا نحتاجُ أنْ نعتقد بوجوبِ وجودِ إلهٍ له منطقُهُ الخاصُّ في الوجود.

في النُّقطةِ الأُولىٰ، سوف يرُدُّ المُوحِّدون بالقولِ: إنَّه لا وجودَ لشيءٍ من قبيلِ (الكون) بنحوٍ يتجاوز مجموع ما يتكوَّن منه، ونحنُ نعلَمُ كحقيقةٍ أنَّه لا شيءَ من أشياءِ الكون له أيُّ منطقٍ داخليٍّ لوجودٍ لا نهائي.

في النُّقطةِ الثانية، يشيرُ المُوحِّدونَ إلىٰ أنَّ وجودَ العقلانية التي نخبُرُها بنحوٍ غير قابلٍ للخطأ - ويتراوح ما بين قوانين الطَّبيعة إلىٰ قدرتِنا علىٰ التفكيرِ العقلاني - لا يمكن تفسيرُهُ إذا لم يكن له أساسٌ مطلق (ultimate ground)، هذا الوجودُ للعقلانيةِ ليس سوىٰ العقل اللّانهائي. (الكونُ عقلانيٌّ)، هذا ما لاحظَهُ عالِمُ الرِّياضيات المشهور كورت جودِل (Kurt Gödel)[1]. علاقةُ العقلانيةِ بالكون تتمثَّلُ في أنَّ (النِّظامَ في الكونِ يعكسُ نظامَ العقل الخارق الذي يحكُمُهُ)[2]. واقعيةُ العقلانيةِ في الكون لا يمكن تجنُّبها من خلالِ أيِّ نحوٍ من أنحاءِ اللُّجوء إلىٰ فكرةِ الانتخاب الطَّبيعي (Natural selection). فالانتخابُ الطَّبيعي يفترضُ مسبقاً وجودَ كياناتٍ فيزيائيةٍ تتفاعلُ فيما بينها وفقاً لقوانينَ مُحدَّدة ورموزَ تُنظِّم عملية الحياة. وأنْ تتكلَّم عن انتخابٍ طبيعيٍّ، فهذا يعني أنْ تفترضَ وجودَ قَدْرٍ من المنطقِ في حوادثِ الكون وأنَّ بمقدورِنا

---

(١) Hao Wang, A Logical Journey: From Gödel to Philosophy (Cambridge, MA: MIT Press, ١٩٩٦), ٣١٦.

(٢) Palle Yourgrau, A World Without Time: The Forgotten Legacy of Gödel and Einstein (New York: Basic Books, ٢٠٠٥), ١٠٤–٥.

فهم هذا المنطق.

بـالعودةِ إلىٰ المثـالِ السَّـابق لطاولـةِ الرُّخـام، نقـول: إنَّ العقلانيـةَ الواقعيةَ التي تقـفُ خلْـفَ تفكيرنـا والتـي تُواجِهُنـا في دراسـتِنا لكـونٍ دقيـقٍ رياضياً، لا يمكن أنْ تكـونَ نشـأت مـن حجـارة. الإلـهُ لـيس حقيقـةً عميـاء (ultimate brute fact)، وإنَّما عقلانيةٌ مطلقةٌ في كلِّ جوانبِ الوجود.

لـوي جديـدٌ - ولـو بنحـوٍ غـير قابـل للتعقُّـل - للسُّـؤالِ عـن أصـلِ الواقعيـة الفيزيائيـة، جـاءَ مـن دانيـال دينيـت (Daniel Dennett) الـذي زَعَـمَ بـأنَّ الكـونَ (خلَـقَ نفسَـهُ مـن العـدم، أو عـلىٰ أحسـنِ الأحـوال مـن شيءٍ لا يمكـنُ تمييـزُهُ عـن العـدم أبـداً)[١]. تـمَّ عـرْضُ هـذه الفكـرة بشـكلٍ أكثـرَ وضوحاً من جانبِ مُلْحِدٍ آخـرَ حـديث، هـو عـالِمُ الفيزيـاء فيكتـور سـتينجر (Victor Stenger)، الذي قـدَّمَ حلَّـهُ لمسـألةِ أصـل الكـون وقـوانين الطَّبيعـة في كتابِهِ (ليس مـن خـلال التَّصـميم: أصـلُ الكـون، هـل أوجَـدَ العِلْـمُ الإلـهَ؟ الكونُ القابلُ للفهم والإله: الفرضيةُ الفاشلة)[٢].

ضـمنَ أُمـورٍ أُخـرىٰ، سـتينجر يُقـدِّمُ نقـداً جديـداً لفكـرةِ قـوانين الطَّبيعـة ومـا يترتَّـبُ عليهـا. في كتابِـهِ (الكـونُ القابـلُ لـلإدراك The Comprehensible Cosmos)، يقـولُ سـتينجر: إنَّ مـا يُقـالُ لـه: (قـوانين) لم ينزِل من أعلىٰ، ولا هو عبـارة عـن قيـودٍ ذاتيـة (built-in restrictions) لسُـلُوكِ المادَّة. هي قيودٌ بـالمعنىٰ الـذي يُمكِـنُ لعُلَـماءِ الفيزيـاء أنْ يصـيغوا معـادلاتِهم الرِّياضـية حـول الملاحظـات الحسِّـية. موقـفُ سـتينجر مبنـيٌّ عـلىٰ تفسـيرِهِ

---

(١) Daniel Dennett, Breaking the Spell (New York: Viking, ٢٠٠٦), ٢٤٤.

(٢) Not by Design: The Origin of the Universe, Has The Science Found God? Comprehensible Cosmos, and God: The Failed Hypothesis

لفكـرةٍ أساسـيةٍ في الفيزيـاءِ الحديثـة، وهـي التَّنـاظُر (symmetry). فوفقـاً لوجهـةِ النَّظـر الفيزيائيـة الحديثـة، فـإنَّ (التَّنـاظُر) هـو أيُّ نمـطٍ مـن أنـماطِ التحـوُّل (transformation) لا يمَـسُّ قـوانينَ الفيزيـاء - التـي تنطبـقُ علىٰ النِّظام - بأيِّ تغيُّر.

لقـد تـمَّ تطبيـقُ الفكـرةِ في البدايـةِ في المعـادلاتِ التَّفاضـلية (differential equations) للميكانيكـا الكلاسـيكية والكهرومغناطيسـية، بعـد ذلـكَ تـمَّ تطبيقُهـا بطُـرُقٍ جديـدةٍ علىٰ نظريـةِ النِّسـبيةِ الخاصَّـة ومشـاكل ميكانيكا الكمِّ. يُقدِّمُ ستينجر لقُرَّائِـهِ لمحـةً عامَّـةً لهـذه الفكـرةِ القويَّـة، ولكـن بعـد ذلـكَ ينتهـي إلىٰ نتيجتـينِ غـير متماسـكتين: الأُولىٰ هـي أنَّ فكـرةَ التَّماثُـل تسـتبعدُ (تُقصـي) فكـرةَ قـوانين الطَّبيعـة، والثانيـة أنَّ الـلَّاشيءَ يمكـنُ أنْ يُنتجَ شيئاً ما لأنَّه (لا شيءٌ) غيرُ مستقرٍّ.

مـن المـدهشِ أنَّ كتابـاً صـدَرَ بعنـوان (التَّنـاظُرُ المُخيـف Fearful Symmetry) لمُؤلِّفـهِ أنتـوني زي (Anthony Zee)، وهـو معـروفٌ في مجـالِ دراسـاتِ التَّنـاظُرُ، يسـتخدمُ الحقـائقَ نفسَـها التـي يسـوقُها سـتينجر ليصِـلَ إلىٰ نتيجةٍ مختلفة:

(التَّنـاظُرات لعبَـتْ دوراً مركزيـاً بشـكلٍ متزايـدٍ في فهمِنـا لعـالَمِ الفيزيـاء... علـماءُ الفيزيـاء الأساسـيُّون يقولـونَ: إنَّ التَّصـميمَ المطلـق (ultimate design) يواجـهُ صـعوباتٍ مـع التَّنـاظُرات. الفيزيـاءُ المعـاصرة لم تكـن ممكنـةً بـدون التَّنـاظُرات التـي تُرْشِـدُنا...، كلَّـما تقـدَّمت الفيزيـاءُ إلىٰ الأمـام مـن خـلالِ خبرتِنـا اليوميـة، اقتربـت أكثـر مـن المُصـمِّم المُطْلَـق (Ultimate Designer)، لقـد تـمَّ تـدريبُ عقولِنـا بعيـداً عـن مراسـيها المألوفـة...، أُحِـبُّ التفكـيرَ في مُصـمِّمٍ مُطْلَـقٍ يـتمُّ تعريفُـهُ مـن خـلالِ

التَّناظُر)[1].

يجـادلُ سـتينجر بـأنَّ (الـلَّاشيء) متنـاظرٌ تمامـاً لأنَّـه لا يوجـدُ موضِـعٌ مطلـقٌ (absolute position)، أو زمـنٌ مطلـقٌ، أو سرعـةٌ مطلقـةٌ، أو تسـارُعٍ مطلقٍ في الفـراغ (acceleration in the void). وردّاً عـن سـؤالِ (مـن أيـنَ جـاءَ التَّنـاظرُ؟)، يقـولُ سـتينجر: إنّهـا الـتَّماثُلات في الفـراغ (symmetries of the void)، لأنَّ قوانينَ الفيزياء هي مجرَّدُ ما يتوقَّعُونَهُ إذا جاءَت من لا شيء).

مغالطـةُ سـتينجر الأساسـية مغالطـةٌ قديمـة، تتمثَّـلُ في خطـأ النَّظَـر إلىٰ (الـلَّاشيء) عـلىٰ أنَّـه (شيءٌ مـا). عـلىٰ مـدىٰ قـرونٍ مـن البحـثِ في تصـوُّرِ العــدم (concept of nothing)، حَـرَصَ المُفكِّـرونَ عـلىٰ التأكيـدِ عـلىٰ أنَّ مصْـطلَحَ (العـدم) لا يعنـي (شـيئاً مـا). العـدمُ المطلـقُ يعنـي أنْ لا وجـودَ لقوانين، لا فراغ، لا طاقـة، لا بُنَـىٰ، لا وجـودَ لكيانـاتٍ مادِّيـةٍ أو عقليـةٍ مـن أيِّ نوعٍ، وكـذلك لا وجـودَ لتنـاظُرات. ولـيس هنـاك خصـائص أو قابليـات (potentialities). العدمُ المطلقُ لا يمكـن أنْ يُنـتِجَ شـيئاً مـا إذا مـا أُعطِـيَ وقتـاً لا نهائياً. وفي الحقيقةِ، لا وجودَ لزمانٍ في العدمِ المطلق.

ولكـن مـاذا عـن الفكـرةِ الرَّئيسـيةِ لكتـابِ سـتينجر (الإلـهُ: الفرضـية الفاشلة)، التـي تـذهبُ إلىٰ أنَّ نشـوءَ الكـونِ مـن (العـدمِ) لا يُخـالِفُ مبـادئَ الفيزياء، لأنَّ الطَّاقةَ الصَّـافيةَ (net energy) للكـونِ هـي صـفر؟ هـذه الفكـرةُ طُرِحَـت لأوَّلِ مـرَّةٍ مـن قِبَـلِ الفيزيـائي إدوارد تريـون (Edward Tryon)، الـذي بـيَّنَ أنَّ الطَّاقـةَ الصَّـافيةَ للكـونِ هـي صـفرٌ تقريبـاً، وبالتـالي لا يوجـدُ تنـاقضٌ في القـولِ: إنّهـا خرجـت مـن العـدم لأنّهـا عـدمٌ. إذا أضـفْتَ طاقـةَ

(١) Anthony Zee, Fearful Symmetry (New York: Macmillan, ١٩٨٦), ٢٨٠–٨١.

الجاذبيـة الأرضـية، التـي هـي سـالبة، إلىٰ بقيَّـةِ كتلـة الكـون الشَّـاملة، وهـي موجبة، فإنَّ النـاتجَ سـوف يكـونُ صـفراً تقريبـاً. وعنـدها لـن توجـد حاجـة إلىٰ طاقةٍ تصنَعُ الكونَ، ولذلك لا حاجةَ لخالِق.

بخصـوصِ هـذا الادِّعـاءات وأمثالهـا، أشـارَ الفيلسـوفُ المُلْحـد سمارت (J. J. C. Smart) إلىٰ أنَّ مصـادرةَ وجـود كـون بطاقـةٍ صـافيةٍ تسـاوي الصِّـفر، تبقـىٰ لا تجيـبُ عـن السُّـؤال: لمـاذا لا بـدَّ أنْ يكـون هنـاك شيءٌ مـا بالأسـاس؟ لاحـظَ سـمارت أنَّ الفرضـيةَ وصـياغاتها الحديثـة تفـترضُ وجـود بُنْيـة زمـان-مكـان، وحقـل كمِّـي (the quantum field)، وقـوانين طبيعـة. وبالتـالي، فهـي لا تجيـبُ عـن السُّـؤال لمـاذا توجـدُ الأشـياء؟ كـما لا تجيبُ عن سؤالٍ فيما إذا كان هناك سببٌ غيرُ زمانيٍّ للكونِ الزَّمكاني[1]؟

الواضـحُ مـن هـذا التَّحليـلِ أنَّ سـتينجر تـركَ سـؤالينِ أساسـيَّينِ دونَ إجابة، وهما: لماذا توجدُ بعضُ الأشياء ولـيس عـدمٌ مطلـق؟ ولمـاذا الشَّـيءُ الموجودُ يتوافقُ مع التَّناظُرات أو يُكوِّنُ بُنَىٰ (structures) مُعقَّدة؟

عرَضَ زي (Zee) حقـائقَ التَّنـاظُر نفسَـها التـي اعتمـدَ عليهـا سـتينجر للوصـولِ إلىٰ نتيجـةٍ مفادُهـا أنَّ عقـلَ المُصـمِّم المطلـق هـو مصـدرُ التَّنـاظُر. قـوانينُ الطَّبيعـةِ، في الحقيقـةِ، تعكـسُ التَّنـاظُرَ الكـامِن في الطَّبيعـة. إنَّـه التَّنـاظُر - ولـيس قـوانينَ الطَّبيعـة - هـو الـذي يُشـيرُ إلىٰ عقلانيـةِ وذكـاءِ االكون، وهي العقلانيةُ المُتجذِّرةُ في عقلِ الإله.

* * *

(١) J. J. C. Smart and John Haldane, Atheism and Theism (Grat Debatesin Philosophy) (Oxford: Blackwell, ٢٠٠٣), ٢٢٨ ff.

الحياة

(LIFE)

الظَّـاهرةُ التاليـةُ التـي نريـدُ مناقشـتَها هـي الحيـاة. وفقـاً لرُؤيـةِ أنتـوني فلو بشأنِ المادَّة في هـذا الكتـاب، لا حاجـةَ لقـولِ المزيـد حـولَ أصـل الحيـاة. مع ذلك، لا بدَّ من لَفْـتِ النَّظـر إلىٰ أنَّ النِّقـاشَ الحـالي حـولَ هـذا السُّـؤال لا يبـدو أنَّـه يتنـاول القضـايا الأساسـية. هنـاك أربعـة أبعـاد للكائنـاتِ الحيَّـة. هـذه الكائنـاتُ هـي فاعلـةٌ (agents)، وتسـعىٰ لغايـةٍ (goal seekers)، وهـي ذاتيـةُ التكـاثُر، وذاتُ طبيعـةٍ سـيميائية (وجودُهـا يعتمـدُ عـلىٰ التفاعـلِ بـين الشَّـفرات والكيميـاء). كـلُّ وأيُّ كـائنٍ حـيٍّ إمَّـا يفعـل أو لـه قـدرةٌ عـلىٰ الفعـل. وكـلُّ كـائنٍ مـن هـذا القبيـل هـو المصـدرُ المُوحِّـد (unified source) والمَرْكَـزُ لكُـلِّ أفعالِـهِ. بـما أنَّ هـؤلاء الفـاعلين قـادرون عـلىٰ البقـاءِ أحيـاء والفعلِ بشكلٍ مستقلٍّ، فـإنَّ أفعـالَهُم موجَّهـةٌ نحـو أهـدافٍ بنحـوٍ مـا، وهـم يسـتطيعون إعــادةَ إنتــاجِ ذواتِهِــم؛ وبالتــالي فهــم كائنــاتٌ غائيــة (goal-seeking)، ذاتيةُ التكاثُر بنحوٍ تلقـائي. عـلاوةً عـلىٰ ذلـك، أشـارَ هـوارد بـاتي، بأنَّـكَ تجـدُ في الكائنـاتِ الحيَّـةِ تفـاعُلاً بـين العمليـاتِ السِّـيميائية (القواعـد، الشَّــفرات، اللُّغــات، المعلومــات، الضَّــبْط) مــع الأنظمــةِ الفيزيائيــة (القوانين، الدِّينامية، الطَّاقة، القوىٰ والمادَّة)[1].

---

(١) Howard H. Pattee, "The Physics of Symbols: Bridging the Epistemic Cut," Biosystems ٦٠

مـن بـينِ الكُتُـبِ التـي نَدْرُسُـها هنـا، دوكينـز فقـط هـو الـذي تنـاولَ السُّؤالَ عن أصلِ الحيـاة. يقـولُ ولـبرت (Wolpert)، وهـو أحـدُ البـارزين في هـذا الحقـل: (لا نقـولُ بـأنَّ كـلَّ الأسـئلة العلميـة المتعلِّقـة بـالتطوُّر قـد تـمَّ حلُّها. علىٰ العكسِ مـن ذلـك، فـإنَّ أصـلَ الحيـاةِ بحـدِّ ذاتِـهِ، وتطـوُّر الخليـة الذرِّيـة التـي نتجـت منهـا كـلُّ الكائنـات الحيَّـة، لا زالـت غـيرُ مفهومـة)[١]. دينيت في أعمالِهِ السَّابقة، أخذَ بعضَ المواقف المادِّية أخذَ المُسلَّمات.

لسُوءِ الحـظِّ، فـإنَّ مقاربـةَ دوكينـز لم تكـن كافيـةً، حتَّـىٰ عـلىٰ المسـتوىٰ الفيزيـائي - الكيميـائي، بـل هـي أسـوأ. لكنَّـه يتسـاءل[٢]: (كيـف بـدأت الحيـاة؟)، ثـمَّ يُجيـب: (أصـلُ الحيـاةِ كـان حـدَثاً كيميائيـاً أو سلسـلةً مـن الأحـداث، حيـثُ تـمَّ تـوفيرُ الشُّـروط الضَّـرورية للانتخـابِ الطَّبيعـي... عنـدما تتـوفَّر المُكوِّنـات، فـإنَّ الانتخـابَ الطَّبيعـي الـدَّاروِني يـأتي كنتيجـة). كيـف حـدَثَ ذلـك؟ (ابتكـرَ العلـماءُ سـحرَ الأرقـام الكبـيرة... الجميـلُ في المبدأِ الأنثروبي أنَّـه يقـولُ لنـا - عـلىٰ عكـسِ حَدْسِـنا بـأسْرِهِ -: إنَّ النَّمـوذجَ الكيميـائي لا يحتـاجُ سـوىٰ إلىٰ توقُّـعِ أنَّ الحيـاةَ سـوف تنشـأُ عـلىٰ كوكـبٍ مـرَّت عليـه مليـارات المليـارات (مـن السِّـنين) ليُعطينـا تفسـيراً شـاملاً ومُرْضياً للحياةِ الحاليةِ هنا)[٣].

بناءً علىٰ هـذا النـوعِ مـن التَّفكـيرِ المنطقـي، الـذي يمكـن وَصْـفُهُ عـلىٰ

(٢٠٠١): ٥-٢١.

(١) Lewis Wolpert, Six Impossible Things Before Breakfast (London: Faber and Faber, ٢٠٠٦), ٢١٢-١٣.

(٢) Richard Dawkins, The God Delusion (London: Bantam, ٢٠٠٦), ١٣٧.

(٣) Dawkins, The God Delusion, ١٣٧-٣٨.

أَنَّـه تمـرينٌ جـريءٌ للخرافـة، كـلُّ شيءٍ نرغـبُ بوجـودِهِ فـلا بـدَّ أنْ يوجـد، فقـط إذا (اسـتَدْعينا الأرقـامَ الكبـيرة). الحيوانـاتُ وحيـدةُ القَـرْن لا بـدَّ أنْ توجد، علىٰ عكسِ الحَدْس بـأسْرِهِ. المُتطلَّـبُ الوحيـد الـذي (تحتاجُـهُ فقـط لتوقُّـعِ) مـا يحـدُثُ عـلىٰ كوكـبٍ مـا مـرَّت عليـه مليـارات المليـارات (مـن السِّنين) هو (النَّموذجُ الكيميائي).

* * *

الوعي

(CONSCIOSNESS)

لحُسْـنِ الحـظِّ، أنَّ الوَضْـعَ لـيس سـيِّئاً في دراسـاتِ الـوعي، عـلىٰ عكسِ الحـال في المجـالينِ السَّـابقين. هنـاك في الوقـتِ الحـالي وعـيٌ متزايـدٌ بالوعي.

نحنُ واعون، ونحنُ نعـي أنَّنـا واعـون. لا أحـد يمكـن أنْ يُنكِـرَ ذلـك دون أنْ يقـعَ في تنـاقُضٍ ذاتيّ، وإنْ كـان الـبعضُ يُصِـرُّ عـلىٰ ذلـك. المشـكلةُ تصـبحُ غـيرَ قابلـةٍ للحـلِّ عنـدما نُـدرِكُ طبيعـةَ الخلايـا العصـبية. أوَّلاً وقبـلَ كلِّ شيء، الخلايا العصـبية لا تُظهِـرُ تشـابُهاً مـع حياتِنـا الواعيـة. وثانيـاً وهـو أكثرُ أهمّيةً، أنَّ خصائصَ الخلايـا العصـبية الفيزيائيـة لا تُـوفِّرُ بـأيِّ حـالٍ مـن الأحـوال سـبباً للاعتقـادِ بـأنَّ بإمكانِهـا إنتـاج أو أنَّهـا سـوفَ تُنْـتِجُ وعيـاً. الـوعيُ يـرتبطُ بـبعضِ منـاطق الـدَّماغ، لكـن عنـدما توجـدُ أنظمـة الخلايـا العصـبية المُكوَّنـة مـن نيرونـات في جِـذْعِ الـدَّماغ، فإنَّهـا لا (تُنْـتِجُ) وعيـاً. كحقيقةٍ من الواقـع، وكـما أشـارَ العـالِمُ الفيزيـائي جيرالـد شرويـدر (Gerald Schroeder)، لا يوجدُ فَـرْقٌ جـوهريٌّ مـن الناحيـةِ الفيزيائيـة بـين كومـةٍ مـن الرَّملِ وعقـلِ آينشـتين. فقـط الإيـمانُ الأعمـىٰ الـذي لا أسـاسَ لـه في المـادَّةِ يقـفُ وراءَ الادِّعـاء بـأنَّ جُزيئـات (Bits) المـادَّة تسـتطيعُ (خَلْـقَ) حقيقـةٍ جديدةٍ لا تُشبِهُ المادَّة.

رغـمَ أنَّ التيَّـارَ العـامّ لدراسـاتِ الجسـد - العقـل اليـوم يعـترفُ بواقعيـةِ الـوعي ومـا يستَتْبِعهُ مـن غمـوض، إلَّا أنَّ دانيـالَ دينيـت هـو أحـدُ القِلَّـة مـن الفلاسـفةِ الـذين لا يزالـون يتهرَّبـون ممَّـا هـو واضـح[١]. يقـولُ دينيت بأنَّ السُّـؤالَ عـمَّا إذا كـان هنـاك بعـض الأشـياء هـي (واعيـة واقعـاً)، سؤالٌ غـيرُ مهـمٍّ وغـيرُ قابـلٍ للإجابـة، ويُؤكِّـد علىٰ أنَّـه يمكـنُ للمكـائنِ أنْ تكون واعيةً لأنَّنا مكائن واعية!

المدرسـةُ الوظيفيـة (Functionalism)[٢] هـي (تفسـيرُ) دينيـت للـوعي،

---

(١) فيلسـوف أمريكـي معـاصر، يُعتَـبر مـن أعـلام الإلحـاد حاليـاً، وُلِـدَ سـنة (١٩٤٢م). مـن أبـرز المؤيِّـدين لنظريـة التطـوُّر، ومـن خلالهـا يُفسِّـر وعـي الإنسـان. في كتابـه (الـوعي المُفسَّـر)، يجادل دينيـت بأنَّـه علىٰ الـرَّغم مـن رفـض غالبيـة النـاس للثنائيـة الدِّيكارتيـة، مـع عناصرها الفيزيائيـة والذِّهنيـة المنفصلـة، إلَّا أنَّهـم لا يزالـون يعتقـدون أنَّ الـوعي عبـارة عـن منطقـة أو عمليـة في الـدِّماغ تجتمـع عنـدها كـلُّ المكوِّنـات فيتحقَّـق فيهـا الـوعي؛ وكأنَّـه يوجـد خـطُّ نهايـة للـماضي عنـده تصبح الأشـياء واعيـة ويـتمُّ عرضـها علىٰ المسـرح أو الشاشـة لتكـون موضـع عنايـة الجمهـور الـدَّاخلي للفـرد. يصـفُ دينيـت هـذه الطريقـة مـن التشـبيه بأنَّهـا جذَّابـة، لكـن طريقـة باطلـة في فهـم الـوعي في المدرسـة الدِّيكارتيـة المادِّيـة. (المراجع).

(٢) الوظيفية نظريـة في فَلْسـفة الـذِّهن تقـوم فكرتهـا الأساسـية علىٰ أنَّ الحـالات الذهنيـة تتقـوَّم بـدورِها الـوظيفي فحَسْـب. فمـع ظهـور الكمبيـوتر في أواخـر الثلاثينـات، ظهـرت أبعـاد فلسفية لهـذه التطـوُّرات التكنولوجيـة. فثـارت تسـاؤلات مـن قبيـل: مـا المقصـود بكمبيـوتر ذكي؟ مـا هـو الفـرق بـين ذكـاء الإنسـان وذكـاء الكمبيـوتر؟ آلان تـورنج يُعتَـبر مـن أعـلام هـذا المجـال، حـاول أنْ يجيـب عـن هـذه الأسـئلة سـنة (١٩٥٠م)، فوضـع اختبـاراً لتحديـد ذكـاء الآلـة، فعُـرِفَ هـذا الاختبـار بعـد ذلـك بــ(The Turing Test)، وكـان الاختبـار علىٰ النحـو التـالي: نضـع جهـاز كمبيـوتر في غرفـة، وإنسـان في غرفـة أُخـرىٰ منفصـلة، وثَمَّـة حَكَـم يتحـدَّث إلـيهما عـن طريقـة رسـائل نصـية. الحَكَـم لا يعـرف في الغـرفتين يوجـد الكمبيـوتر، وفي الأُخـرىٰ الإنسـان، وعليـه أنْ يُحـدِّد ذلـك مـن خـلال تلـك الرسـائل

حيثُ يقول: إنَّنا لا ينبغي أنْ نكونَ قلقين ممَّا يُقالُ له: (ظواهر عقلية). بدلاً من ذلك، ينبغي لنا أنْ نتحقَّق من الوظائفِ التي تقومُ بها هذه الظَّواهر. الألمُ هو شيءٌ يخلُقُ ردَّ فعلِ التَّفادي (avoidance reaction)؛ والفكرُ هو تمرينٌ علىٰ حلِّ المشكلة. لا يجب أنْ يُنظَرَ إلىٰ الوعي باعتبارِهِ حدثاً خاصَّاً وقعَ في موضعٍ خاصٍّ. كذلك الحالُ مع كلِّ ما يُسمَّىٰ (ظواهر عقلية). أنْ تكونَ واعياً يعني أنْ تقومَ بهذه الوظائف. ولأنَّ هذه الوظائف يمكنُ تكرارُها من خلالِ أنظمةٍ غير حيَّة (مثال: كمبيوتر يحلُّ مسائل)، فإنَّه ليس هناك أيّ غموضٍ بخصوصِ (الوعي). وبالتالي ليس هناك أيّ سببٍ موجبٍ للذَّهابِ إلىٰ ما هو وراء العالَمَ الفيزيائي (المادِّي).

لكن ما أغفلَتْهُ وجهةُ نظر دينيت هو حقيقة أنَّ كلَّ الأفعال العقلية تقترنُ بحالاتِ وعي (conscious states)، وهي الحالاتُ التي نكونُ فيها علىٰ إدراكٍ بما نقومُ به. لا تستطيعُ الوظيفيةُ بأيِّ حالٍ من الأحوال تفسيرَ أو أنْ تزْعُم القدرةَ علىٰ تفسيرِ الحالات التي نكونُ فيها مدْركينَ وواعين، نعرفُ ما نُفكِّرُ فيه (الكمبيوتر لا (يعرِف) ما يقومُ به). حتَّىٰ الآن، الوظيفيةُ لا تقولُ لنا شيئاً عمَّن هو المُدْرِك، من هو الواعي، ومن هو الذي يُفكِّر. يقولُ دينيت بطريقةٍ تثيرُ العَجَبَ: إنَّ أساسَ

النصّية. لو عَجَزَ الحَكَمُ عن التمييز، فهذا يعني أنَّ الكمبيوتر يحاكي الإنسان (١٠٠٪)، وبالتالي فالكمبيوتر ذكي.

من الواضح أنَّ آلان تورنج عرَّف ذكاء الآلة علىٰ أنَّه القدرة علىٰ محاكاةِ الإنسان. وهنا يظهر سؤال أكثر تعقيداً من الأوَّل: الكمبيوتر هل يمكن أنْ يُفكِّر؟ وما معنىٰ التفكير؟ وما هو الفرق بين الإنسان والكمبيوتر من ناحية التفكير؟ (المراجع).

فلسفتِهِ يقومُ علىٰ (الشَّخصِ الثالثِ المطلق third-person absolutism)[1]، وهو ما يجعلهُ في موقفٍ جازمٍ بـ (أنا لا أُؤمِنُ بالـ أنا I do not believe in I).

ومن المثيرِ للاهتمام، أنَّ بعض أقوىٰ منتقدي دينيت والوظيفية هم في ذاتِهم علماءُ فيزياء، من أمثال ديفيد بابينو (David Papineau)، جون سيرل (John Searle) وغيرهم. جون سيرل بالخصوص حادٌّ في نقدِهِ لهذه النَّظرية[2]، حيثُ يقول: (إذا كنْتَ تميلُ إلىٰ الوظيفية، فأعتقدُ أنتَ لسْتَ

---

(١) مصطلح (الشَّخص الثالث) رائجٌ اليوم في فَلْسفة الذِّهن، ويرتبط بمشكلةٍ فلسفيةٍ أثارها توماس ناجل (Thomas Nagel)، سنة (١٩٧٤م)، في مقالةٍ له بعنوان: كيف سيكون حالُكَ لو كنْتَ خفّاشاً (What Is it Like to Be a Bat)؟ وهذه الخبرةُ الذِّهنيةُ هي الأشهر والأهمّ، التي أثارت مفهوم الوعي والخبرة الذَّاتية بالكيفية المحسوسة (Qualia). فكرةُ هذه الخبرة قائمة علىٰ أنَّكَ مهما ظفرْتَ بدراساتٍ عن الخفّاش وحياتهِ وإحساساتهِ وتكوينهِ الفسيولوجي والعصبي، فكلُّ هذه هي معلوماتٌ (من منظورِ الشَّخص الثالث)، أي معلوماتٌ عِلْميةٌ مادِّيةٌ واضحةٌ لأيِّ شخص، وتشمل كلَّ المعلومات المتعلّقة بالحالاتِ العصبية الدِّماغية للخفّاش. هذه المعلومات لن تستطيع الإجابة عن سؤال: كيف لكَ أنْ تعيشَ كخفّاش؟ أي لن تمكنك من تذوُّق الخبرة الذَّاتية التي يعيشُها الخفّاش نفسه (من منظورِ الشَّخص الأُولىٰ)، والتي تشمل الوعي والخبرة الذَّاتية بالكيفياتِ المحسوسة. إذن هي معلوماتٌ من منظورِ الشَّخص الثالث، مهما تكاثرت، لن تكفي لوصفِ أيِّ خبرة ذاتية من منظورِ الشَّخص الأوَّل، لأنَّها ستظلُّ ناقصةً وفاقدةً للتصريح بالأحاسيس والخبرات الذَّاتية.

لاحظ أنَّ (الشَّخصَ الأوَّل) هو الذي يعيشُ الوعيَ كخبرةٍ حضوريةٍ بسيطة، و(الشَّخصَ الثاني) هو الذي يعي هذا الوعي كخبرةٍ حضوريةٍ مركَّبة، و(الشَّخصَ الثالث) هو الذي يدرُسُ الوعيَ كموضوعٍ خارجي، أي هو شخصٌ خارجيٌّ (أو كأنَّه خارجي)، لا يعيشُ بنفسِهِ خبرة الوعي التي يَدْرُسُها. (المراجع).

(٢) استمرَّ الجدلُ الواسعُ حول هذه الأسئلة، إلىٰ أنْ جاء الفيلسوف الأمريكي جون سيرل

بحاجةٍ إلىٰ تفنيد، أنتَ بحاجةٍ إلىٰ مساعدة)[١].

علىٰ النقيضِ من دينيت، دافعَ سامْ هاريس (Sam Harris) بقوَّةٍ عن واقعيةِ الوعي المتجاوزة للفيزياء. فقال: (المشكلةُ ليست حولَ الدَّماغ، عندما يُستكشَفُ كنظامٍ فيزيائي، فإنَّه يُظهِرُهُ علىٰ أنَّه حاملٌ لأمرٍ غريب الأطوار، بُعْدٌ داخليٌّ (interior dimension) يعيشُ فيه كلُّ واحدٍ منَّا، يخبُرُهُ كلُّ واحدٍ منَّا بوصفِهِ (وعياً)). والنتيجةُ هي مُروِّعة، يقول: (الوعيُ ظاهرةٌ أكثر بدائية (غير متطوِّرة) من الكائناتِ الحيَّة وأدمغَتِها. ولا يبدو

(Searle) في سنة (١٩٨٠م)، وشرح تجربة ذهنية للتمييز بين أنواع الذكاء الاصطناعي، وأطلق علىٰ هذه التجربة اسم (الغرفة الصينية The Chinese room). يرىٰ سيرل أنَّ البرنامج ليس هو عقل الكمبيوتر، ولا يعطيه (وعياً). وتجربته هي كالتالي: لو جئنا بشخص لا يعرفُ شيئاً عن اللُّغةِ الصِّينية، وجلسَ في غرفة منعزلة، وأُعطي كتاباً بلُغتِهِ الأُمّ يشرح كيفية ترجمة الصِّينية إلىٰ لُغتهِ الأُمّ وبالعكس، ثمَّ بعد ذلك وجَّهنا له أسئلةً بالصِّينية، فهذا الشَّخصُ سوف يستعملُ هذا الكتاب حتَّىٰ يفهم الأسئلة بلُغتِه الأُمّ، ثمَّ يُترجِم إجاباته باللُّغةِ الصِّينية. السُّؤال: إلىٰ أيِّ درجةٍ سيظهر لمن هو خارج الغرفة أنَّ من بداخل الغرفة هو شخصٌ صيني؟

النقطة الجوهرية هي هذه، لو اشتركت فرضية الغرفة الصينية باختبار آلان تورنج، فالأرجح أنَّها ستنجح، لأنَّ الحَكَمَ لن يُميِّزَ بين الرَّجُل الصِّيني والرَّجُل الذي لغته الأُمّ غير صينية. السُّؤال الآن: هذا الرَّجُل الذي يستخدم هذا الكتاب هل يفهم اللُّغة الصينية أم أنَّه مجرَّدُ محاكٍ لها باستخدامهِ للكتاب؟

يقول سيرل: إنَّ الفرقَ بين هذين الموقفين هو الفرقُ بين ذكاءِ الإنسان الواعي ذي الإدراك، وذكاء الآلة التي تحاكي الإنسان، واختبار آلان تورنج لن يتمكَّن من التمييز بين هذين النمطين من الذكاء. للتفصيل راجع: العقل لجون سيرل، ترجمة د. ميشيل متياس/ سلسلة عالم المعرفة (٣٤٣)/ المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب/ ٢٠٠٧م/ الكويت. (المراجع).

(١) John Searle, The Rediscovery of the Mind (Cambridge, MA: MIT Press, ١٩٩٢), ٩.

أنَّ هناك طريقاً واضحاً لاستبعادِ (لاقصاءِ) مثل هذه الأُطروحة بطريقةٍ تجريبية)[١].

يُحسَبُ لدوكينز أنَّه اعترَفَ بأنَّ واقعيةَ كلٍّ من الوعي واللُّغة تطرَحُ مشكلةً مُرْبكة. حيثُ قال: (أنا لا أستطيعُ، ولا ستيف بِنْكر (**Steve Pinker**)، تفسيرَ الوعي الذَّاتي الإنساني (**human consciousness subjective**)، وهو ما يُسمِّيه الفلاسفة (كويليا **qualia**) (= الوعي بالكيفياتِ المحسوسة). ففي كتابِهِ (كيف يعمَل العقل)، عرَضَ ستيف مشكلةَ الوعي الذَّاتي، من أين أتىٰ؟ وما هو تفسيرُهُ؟ وكان نزيهاً بقَدْرٍ كافٍ للقول: (عليَّ أنْ أكونَ نزيهاً وأُصرِّح (الكلام هنا لـ ستيف)، وأنا أُردِّدُ ما قال (الكلام هنا لدوكينز). إنَّنا لا نعرفُ الجواب. إنَّنا لا نفهمُ تفسيراً لذلك)[٢]. أمَّا ولبرت، فقد تجنَّبَ عمداً مسألةَ الوعي برُمَّتِها قائلاً: (لقد تجنَّبْتُ بشكلٍ متعمِّدٍ أيَّ نقاشٍ حول الوعي)[٣].

* * *

---

(١) Sam Harris, The End of Faith (New York: Norton, ٢٠٠٤), ٢٠٨–٩.

(٢) Richard Dawkins and Steven Pinker, “Is Science Killing the Soul?” The Guardian-Dillons Debate, Edge ٥٣ (April ٨, ١٩٩٩).

(٣) Wolpert, Six Impossible Things Before Breakfast, ٧٨.

الفكر

(THOUGHT)

مــا وراء الــوعي (Beyond consciousness)، هنــاك ظــاهرةُ الفكــرِ والفهــمِ ورؤيــة المعنــىٰ. كــلُّ اســتخدامٍ للُّغــةِ يكشــفُ ترتيبــاً للكــونِ ذكيــاً غريزيــاً غامضــاً. وكأســاسٍ لكــلِّ تفكيرِنــا، عمليــاتُ التواصُــلِ واســتخدام اللُّغــة هــي قــوَّةٌ خارقــة. إنَّهــا قــوَّةُ ملاحظــة الاختلافــات والتَّشــابهات (differences and similarities) والتَّعمــيم[1] وعمليــة التَّجريــد للظَّفــرِ بالكُلِّيــات (universalizing)[2]، وهــو مــا يُســمِّيهِ الفلاســفةُ (تصــوُّرات concepts)، (كُلِّيات universals)، وما يُشبِهُ ذلـك. هـي قـوَّةٌ طبيعيـةٌ للبشـر، مميَّـزةٌ، وفريـدةٌ مـن نوعِهـا. كيـف يُمكِنُـكَ، منـذُ بدايـةِ طفولتِـكَ، أنْ تُفكِّـرَ دونَ جهدٍ في كلبِـكَ قيصـر (Caesar) والكـلابِ عمومـاً في آنٍ معـاً[3]؟ أنـت تسـتطيع أنْ تتصـوَّرَ اللَّـونَ الأحمـرَ دونَ أنْ تتصـوَّرَ بالخصـوصِ شـيئاً لونُـهُ أحمر (اللَّونُ الأحمرُ بالتأكيـدِ لا يوجـدُ بنحـوٍ مسـتقلٍّ، وإنَّـما فقـط في الأشـياءِ

---

(١) أي الوصول إلىٰ أحكـام عامَّـة مـن ملاحظـةِ حـالات خاصَّـة، وهـو مـا يجـري في الاسـتقراء. (المراجع).

(٢) أي عملية انتزاع المفـاهيم الكُلِّيـة مـن مصـاديق جزئيـة، كـانتزاع مفهـوم (إنسـان) الكُـلِّي مـن ملاحظة زيد وعمرو وبكر... الخ. (المراجع).

(٣) يتحـدَّث هنـا عـن قـدرة الإنسـان المحيِّرة علىٰ إدراك الجزئيـات والكلِّيـات في وقـتٍ واحـدٍ، مثل إدراك (هذا الكلْب)، و(الكلب) الكُلِّي أو قُلْ: فئة (الكلاب) عموماً. (المراجع).

الحمـراء). أنـتَ تُجـرِّد (abstract) وتُميِّـز (distinguish) وتُوحِّـد (unify) دونَ أنْ يأخُـذَ الأمـرُ مـن تفكـيرِكَ لحظـةً واحـدة. هـذه القـوَّةُ التـي تُفكِّـرُ بالتصوُّرات هي بطبيعتِها تتعالىٰ (transcends) عن المادَّة.

إذا كـان هنـاك مـن يعـترضُ عـلىٰ ذلـك، فالاتِّسـاقُ يقتضـي منـه التوقُّف عن الكـلامِ والتفكـير. في كـلِّ وقـتٍ يسـتخدمُ هـؤلاء اللُّغـة، فـإنَّهم يُظهِـرُونَ الـدَّورَ الواسـع للمعنـىٰ، التصـوُّرات، المقاصـد، والمنطـق في حياتِنـا. لـذا مـن غـير المُتعقَّـل الحـديثُ عـن قـدرةٍ مشـابهةٍ لـدىٰ المـادَّة (لا عضْوَ في الجسدِ يـمارسُ التفكـير)، ولكـن المعطيـاتُ التي تـأتي مـن الحـواسِّ كموادٍّ خامّ، يـتِمُّ بكـلِّ تأكيـد توظيفُهـا في عمليـةِ التفكـير. بمجـرَّد أنْ تُفكِّـرَ في هـذا الأمـر لـدقائقَ معـدودة، سـوف تعـرفُ عـلىٰ الفـورِ أنَّ الفكـرةَ التـي تقـولُ بـأنَّ التفكـيرَ بشـيءٍ مـا هـو مجـرَّدُ عمـلٍ فيزيـائيٍّ، تبـدو سـخيفةً ولا تسـتحقُّ التفكـير فيهـا. لنقُـل أنَّـكَ تُخطِّـطُ للقيـامِ بنُزْهـةٍ مـع عائلتِـكَ وأصـدقائِك. فأنـتَ حينهـا ستُفكِّرُ في أمـاكنَ مناسـبة مختلفـة لقضـاءِ النُّزْهـة فيها، وتُفكِّـرُ في الأشـخاصِ الـذين تريـدُ أنْ تـدعوهم، والأشـياءِ التـي تريـدُ أنْ تُحضِـرَها معـك، والسَّـيارةِ التـي سـوفَ تسـتخدِمُها، ومـا يُشـبِهُ ذلـك. فهـل مـن المتماسِـكِ افـتراضُ أنَّ التفكـيرَ بـأيٍّ مـن هـذه الأُمـور هـو عمـلٌ فيزيائيٌّ؟

النُّقطةُ المهمَّة هنـا، إذا تكلَّمنـا بنحـوٍ دقيـق، هـي أنَّ دماغَـكَ لا يفهـم. وإنَّـما أنـتَ الـذي تفهـم. فـدماغُكَ يُسـاعِدُكَ عـلىٰ الفهـم، لكـن لـيس لأنَّ أفكـارَكَ تحـدُثُ في الـدِّماغ، ولا (لأنَّـكَ) سـببُ انطـلاقِ الخلايـا العصـبية. الأحرىٰ هو أنَّ فعلَكَ عـلىٰ أسـاسِ أنَّ فهمَـكَ بـأنَّ الـتخلُّصَ مـن الفَقْـرِ هـو شيءٌ جيِّـد، عبـارةٌ عـن عمليـةٍ شـاملةٍ (holistic) لهـا جانبـان، فهـي عمليـةٌ

تتجاوزُ الفيزياء في جوهرِها (كمعنىٰ)، وهي عمليةٌ فيزيائيةٌ في التَّنفيذ (ككلماتٍ وخلايا عصبية). الفعلُ (act) لا يمكن فصلُهُ إلىٰ فيزيائيٍّ وما يتجاوز الفيزياء، لأنَّه فعلٌ غيرُ قابلٍ للقسمةِ لفاعِلٍ هو جوهرياً فيزيائيٌّ ومتجاوزٌ للفيزياءِ في آنٍ معاً. هناك بُنْيةٌ (structure) للاثنينِ معاً، الفيزيائي والمتجاوز للفيزياء، ولكن تزاوجهُما شاملٌ جدّاً، بحيث أنْ لا معنىٰ للسُّؤالِ عمَّا إذا كانت أفعالُكَ فيزيائية أو متجاوزة للفيزياء أو مزيج منهما. إنَّها أفعالُ شخصٍ متجسِّدٍ و(مترَوْحِنٍ) بنحوٍ محتوم.

الكثيرُ من التصوُّراتِ الخاطئة عن طبيعةِ الفكر تنشأُ من التصوُّراتِ الخاطئة حول أجهزة الكمبيوتر. لكن دعونا نفترض أنَّنا نتعامل مع كمبيوترٍ خارقٍ مثل كمبيوتر الجين الأزرق (the Blue Gene)، الذي يقومُ بأكثر من مائتي تريليون عملية حسابية في الثانيةِ الواحدة.

خطأُنا الأوَّل أنْ نفترضَ أنَّ الكمبيوترَ الخارق مثلُ النَّحلة أو البكتيريا. في حالةِ النَّحلة أو البكتيريا نحنُ نتعاملُ مع فاعلٍ، هو مركزُ الفعل، أي يقومُ بعمليةٍ عضويةٍ مُوحَّدة ككُلٍّ. غايةُ أفعال هذا الفاعل كلّها هو الحفاظُ علىٰ وجودِهِ وتكاثُرِه. أمَّا الجينُ الأزرق فهو عبارةٌ عن قِطَعٍ تقومُ مجتمعةً أو منفردةً بعملياتٍ (مزروعةٍ implanted) مُوجَّهةٍ (directed) من خالِقِ هذا التَّجميع.

ثانياً، الكمبيوتر عبارةٌ عن حزمةٍ من أجزاءٍ لا تعرِفُ ماذا تفعل عندما تقومُ بمعالجةٍ ما (performs a transaction). تتِمُّ العمليات التي يقومُ بها الكمبيوتر الخارق استجابةً لمُعطياتٍ وأوامرَ هي مجرَّد إشارات إلكترونية صِرْفة ودوائر كهربائية وموصِلات. الإنسانُ يقومُ بالعملياتِ والمعالجاتِ نفسِها، باستخدامِ آليةٍ خاصَّةٍ بالدِّماغ، لكن هي تتمُّ من

خلالِ مركز الوعي الذي يعي ما يقومُ به، ويفهم ما تمَّ إنجازُهُ، ويؤدِّي كلَّ ذلك عن قَصْدٍ. في المقابل، لا يوجدُ فهمٌ، ولا إدراكٌ، ولا معنىٰ، ولا قصْدٌ، ولا شخصٌ يقومُ بذلك عندما يقومُ الكمبيوتر بالأفعالِ نفسِها، حتَّىٰ عند قيامِ الكمبيوتر بعملياتٍ متعدِّدةٍ (multiple processors) تُعالِجُ المعطيات بسُرْعاتٍ تفوقُ البشر. مُخْرَجاتُ الكمبيوتر (تعني) لنا شيئاً (توقُّعات الطَّقس أو حسابك المَصْرفي)، لكن من زاويةِ حَزْمة القِطَع التي تُسمَّىٰ (كمبيوتر) فإنَّ الأرقامَ الثُّنائية (binary digits) الصِّفْر والواحد تؤدِّي إلىٰ نشاطاتٍ ميكانيكية. القولُ بأنَّ الكمبيوتر (يفهَم) ما يقومُ به، هو مشابهٌ للقولِ بأنَّ خطَّ الكهرباء يمكن أنْ يُفكِّرَ في مسألةِ الإرادة الحرَّة والحَتْمية، أو أنَّ الموادَّ الكيميائية في أنبوبِ الاختبار تُطبِّقُ مبدأ عدم التَّناقُض (principle of noncontradiction) في حلِّ المسائل، أو أنَّ مُشغِّلَ الأقراص (DVD Player) يستمتعُ بالموسيقىٰ التي يعزِفُها.

❊ ❊ ❊

الذّات

(THE SELF)

من أهمِّ المفارقات التي تورَّطَ بها المُلْحِدُون الجُدُد، تلكَ التي هي أوضَح من كلِّ المعطيات: ذواتُهُم. الواقعُ الفيزيائي/ والمتجاوز للفيزياء (supraphysical/physical reality) الذي نعرِفُهُ من خلالِ الخبرةِ هو الخبرةُ ذاتُها، أعني ذواتنا.

بمجرَّد أنْ نُدرِكَ حقيقةَ أنَّ هناك منظور الشَّخص الأوَّل (first-person)[1] الذي يتكلَّم بصيغةِ (أنا)، (...ي) (الياء في مثل: (يَدِي) و(سيارتي))، وصيغ المُتكلِّم الأُخرىٰ، فإنَّنا نُواجِهُ أعظمَ لُغزٍ ككُلٍّ. مستذكرينَ لديكارت، (أنا موجودٌ)، إذن أنا أُفكِّرُ، وأشعُرُ، وأقصدُ (أنوي)، وأعني، وأتفاعَلُ. لكن من هو (أنا)؟ وأين هو؟ وكيف أتىٰ إلىٰ الوجود؟ من الواضِحِ أنَّ ذاتَكَ ليست مجرَّدُ شيءٍ فيزيائيّ، لكنَّها ليست متجاوزةً للفيزياءِ كذلك. إنَّها ذاتٌ مُتجسِّدةٌ، وجسَدٌ متروْحِن؛ فـ (أنتَ) لَسْتَ في خليةٍ معيَّنةٍ في الدَّماغِ أو جُزْءٍ من أجزاءِ الجسد. خلايا جسَدكَ تتغيَّر باستمرار، ومع ذلك فـ (أنتَ) تظلُّ كما أنت. عندما

---

(١) مرَّ في تعليقٍ سابقٍ أنَّ (الشَّخصَ الأوَّل) هو الذي يعيشُ الوعيَ كخبرةٍ حضوريةٍ بسيطة، و(الشَّخصَ الثاني) هو الذي يعي هذا الوعي كخبرةٍ حضوريةٍ مركَّبة، و(الشَّخصَ الثالث) هو الذي يدرُسُ الوعيَ كموضوع خارجي، أي هو شخصٌ خارجيٌّ (أو كأنَّه خارجي)، لا يعيشُ بنفسِهِ خبرة الوعي التي يَدْرُسُها. (المراجع).

تـدرُس خلايـاكَ العصـبية، فإنَّـكَ تجـدُ أنَّ أيَّـاً منهـا لا يملِـكُ خاصّـيةَ أنْ تكـون (أنـا). بـالطَّبعِ فـإنَّ جسَـدَكَ دخيـلٌ في تكـوينِ ذاتِـك، لكـن هـو (جسَـدٌ) لأنَّـه جسَـدٌ لــ (الـذَّات). أنْ تكـونَ إنسـاناً هـو أنْ تكـونَ مُتجسِّـداً ومترَوْحِناً.

في المقطَـعِ الشَّـهير مـن كتابِـهِ (رسـالةٌ في الطَّبيعـةِ البشـرية)[1]، يعلـنُ هيوم أنَّه (عندما أتغلْغَـلُ بصـورةٍ حميميـةٍ إلىٰ مـا أدْعـوهُ (ذاتي) دائـماً أقَـعُ عـلىٰ إدراكٍ خـاصٍّ مـا... ولا يمكـنُ أنْ أُمسِـكَ بنَفْسـي في أيِّ وقـتٍ بـدونِ إدراكٍ حسِّـيٍّ، كـما لا يمكـن أنْ أُلاحِـظَ أيَّ شيءٍ سـوىٰ الإدراك الحسِّـيِّ). هنا هيـوم يُنكِـرُ وجـودَ الـذَّات، لأنَّـه كـما يقـول لم يستطِع أنْ يجِـدَ (ذاتَهُ). ولكـن مـا هـو ذاكَ الـذي يُوحِّـدُ (unifies) خبراتِـهُ المُتعـدِّدة، مـا هـو ذاك الـذي مكَّنَـهُ مـن إدراكِ وجـود العـالَمِ الخـارجي، والـذي ظـلَّ مسـتمرّاً خـلالَ هـذه العمليـة؟ مـن هـو ذاكَ الـذي أثـارَ هـذه التَّسـاؤلات؟ هيـوم يفـترضُ أنَّ (ذاتي myself) هـي حالـةٌ قابلـةٌ للملاحظـةِ (observable state) مثلُ تفكـيرِهِ ومشـاعرِهِ. ولكـن الـذَّات ليسـت شـيئاً يمكـنُ ملاحظتُـهُ. إنَّهـا حقيقـةٌ ثابتـةٌ للخـبرةِ (experience)، وهـي في الحقيقـة الأرضـيةُ والأسـاسُ لكُلِّ الخبرات.

في الواقـع، مـن بـين كـلِّ الحقـائق المتاحـة لنـا، الـذَّاتُ هـي الأكثـرُ وضوحاً وغيرُ قابلةٍ للإنكـار، وفي الوقـتِ نفسِـهِ هـي الأكثـرُ خطـورةً لجميـعِ

---

(١) (A Treatise of Human Nature)، ترجمـه إلىٰ العربيـة عبـد الكـريم ناصـيف/ دار الفرقـد للطباعـة والنشـر/ الطبعـة الأُولىٰ/ ٢٠١٦م/ دمشـق/ سـوريا. تجـد هـذه الفقـرة تحـت عنوان (الهوية الشخصية): ٢٦١ - ٢٧٢. (المراجع).

تيّـارات المدرسـة الفيزيائيـة (physicalism)[١]. في البدايـةِ، يجـبُ القـول: إنَّ إنكـارَ الـذَّات لا يمكـنُ ادِّعـاؤُهُ دونَ الوقـوعِ في تنـاقُضٍ. جـوابُ السُّـؤال (كيـف أعـرِفُ أنَّنـي موجـودٌ؟)، هـو الـرَّدُّ بسُـؤالٍ آخـر: (ومـن هـو السَّائل؟). الذَّاتُ هي مـا نحـنُ عليـه، ولـيس مـا لـدينا. إنَّهـا الــ (أنـا) التـي منهـا ينبثـقُ منظورَنـا للشَّـخصِ الأوَّل (first-person perspective). نحـنُ لا نسـتطيعُ تحليـلَ الـذَّات، لأنَّهـا ليسـت حالـة عقليـة (mental state) يمكـن ملاحظتُها أو وصفُها.

الواقعيـةُ التـي نُـدْرِكُها الأكثـر أساسـية، إذن، هـي الـذَّاتُ البشـرية، وفهـمُ الـذَّاتِ يُلْقـي بـأثرِهِ حـتماً علىٰ بقيَّـةِ الأسـئلة الأساسـية، ويُقـدِّمُ لنـا معنـىٰ للواقـعِ ككُـلٍّ. نحـنُ نُـدرِكُ أنَّ الـذَّاتَ لا يمكـنُ وصـفُها، وبلُغـةِ الكيمياء أو الفيزيـاء: العِلْـمُ لا يكتشـفُ الـذَّاتَ، الـذَّاتُ هـي التـي تكتشـفُ العِلْمَ. نحـنُ نُـدرِكُ أنَّ الموقـفَ مـن تـاريخِ الكـونِ لـن يكـونَ متماسـكاً إذا لم يكن الموقفُ (account) من الذَّاتِ متماسكاً.

* * *

(١) هـذه المدرسـة ظهـرت سـنة (١٩٥٦م) علىٰ يـد آلـين بـلاس (Ullin T. Place). ففـي مقالـة لـه، شـبَّهَ العلاقـة بـين الحـالات العقليـة والحـالات العصـبية الدِّماغيـة بالعلاقـة بـين الـبرق والشـحنات الكهربائيـة. ولم تتطـوَّر أفكـار بـلاس لتظهـر كنظريـة متكاملـة إلَّا في عـام (١٩٥٩م) علىٰ يـد هربـرت فيجـل (Herbert Feigl) وسـمارت (J.J.C.Smart)، وخصوصـاً هذا الأخير الذي قال بكلِّ صراحة: (الإنسان مـا هـو سـوىٰ ترتيـب ضـخم مـن الجسـيمات المادِّية، ولـيس هنـاك فـوق كـلِّ هـذا أيَّـة حـالات وعـي إضـافية). وهـذا يعنـي أنَّ الـوعيَ لا بـدَّ أنْ يُفسَّـرَ علىٰ ضـوء الجسيمات المادِّيـة، وبالتـالي لا يوجـد عقـلٌ أو روحٌ منفصـلٌ عـن الدِّماغ. (المراجع).

الأصلُ المتجاوزُ للمادَّة (فوق المادَّة)

(THE ORIGIN OF THE SUPRAPHYSICAL)

كيف حدثَت الحياةُ والوعي؟ وكيف وُجِدَ الفكرُ والذَّات؟ يُبيِّنُ تاريخُ العالَمِ النشأةَ المفاجئةَ لهذه الظواهر؛ فالحياةُ ظهرت مباشرةً بعد أنْ برَدَ كوكبُ الأرض، وبرَزَ الوعيُ بغموضٍ في الانفجارِ الكمبري (Cambrian explosion)[١]، ونشأت اللُّغةُ من (الأنواعِ الرَّمزية symbolic species)[٢] دون أيّ تطوُّر مُسْبق. نطاقُ الظَّاهرة محلّ النقاش يبدأُ مع: الشَّفْرةِ (Code)، نُظُم معالجة الرُّموز، السَّعي نحو غاية (goal-seeking)، والفاعلينَ بقصْدٍ لـ (intention-manifesting)، هذه الأُمورُ في الطَّرَفِ الأوَّل، في مقابلِ: الإدراك الذَّاتي، الفكر التصوُّري (conceptual thought)، والذَّات البشرية في الطَّرَفِ الآخر.

الطَّريقُ المتماسكُ الوحيدُ لوصفِ هذه الظَّواهر هو القولُ: إنَّ لها أبعاداً مختلفةً من الوجود، وأنَّها ذاتُ طبيعةٍ تتجاوزُ الفيزياء بطريقةٍ أو بأُخرىٰ. هذه الظَّواهرُ دخيلةٌ بنحوٍ كاملٍ مع ما هو فيزيائي ولكن بصورةٍ (جديدةٍ) بشكلٍ جذري. نحنُ لا نتكلَّمُ هنا عن (أشباحٍ في

---

(١) ظهور مفاجيء جيولوجي لمستحدثات أسلاف الحيوانات المألوفة ضمن السجل الأحفوري الأرضي

(٢) إشارة إلىٰ كتاب تيرنس ديكون [illegible] يجمع وجهات نظر من الأحياء العصبية ونظرية التطور والسميئيات

آلات (ghosts in machines)[١]، بـل نـتكلَّمُ عـن فـاعلينَ مـن أنـواعٍ مختلفـة، بعضُها واعٍ، والـبعضُ الآخـرُ واعٍ ويُفكِّـر. وفي كـلِّ حالـةٍ لا وجـود لمـذهبٍ حيـويٍّ (vitalism) أو ثنائيـة (dualism)، وإنَّـما تـداخلٌ بنحـوٍ كامـل (integration that is total)، شـموليةٌ (holism) تتضـمَّنُ مـا هـو فيزيـائيٌّ ومـا هو ذهني.

عـلىٰ الـرَّغمِ مـن أنَّ المُلْحـدينَ الجُـدُد فشـلوا في اسـتيعابِ طبيعـة مصـدر الحيـاة والـوعي والفكـر والـذَّات، فـإنَّ السُّـؤالَ عـن أصـلٍ يتجـاوزُ الفيزيـاء يبـدو واضـحاً: الأصـلُ المتجـاوز للفيزيـاء (فـوق الفيزيـائي) لا يمكن أنْ ينشـأَ إلَّا مـن مصـدرٍ غـير فيزيـائي. الحيـاةُ، والـوعي، والـذَّاتُ، لا يمكن أنْ تنشـأَ إلَّا مـن مصـدرٍ حيٍّ واعٍ ويُفكِّـر. إذا كُنْـتَ في مركـزِ الـوعي والفكر الذي يُمكِنُهُ أنْ يُحِـبَّ ويقصـدَ (ينـوي) ويُنفِّـذَ، فـإنَّني لا أفهـمُ كيـف يمكن لمراكـزِ هـذه الأنشـطة أنْ تـأتي مـن شيءٍ مـا غـيرُ قـادرٍ عـلىٰ مثـلِ هـذه الأنشطة.

عـلىٰ الـرَّغمِ مـن أنَّ العمليـات الفيزيائيـة البسـيطة يمكـن أنْ تخلُـقَ ظـواهر فيزيائيـة مُعقَّـدة، فإنَّنـا هنـا لسْـنا بصـددِ الكـلام عـن العلاقـةِ بـين الظـواهرِ البسـيطة والمُعقَّـدة، وإنَّـما بصـدَدِ البحـث عـن أصـلِ (المراكـز). بكلمـةٍ، إنَّ مـن غـيرِ المُتعقَّـل أنَّ أيَّ مصـفوفةٍ مادِّيـةٍ (material array) أو حقـلٍ يمكـن أنْ يُنـتجَ فـاعلين يُفكِّـرونَ ويفعلـون. المـادَّةُ لا يمكِنُهـا إنتـاج إدراكـات وأحاسـيس. حقـلُ القـوَّةِ (A force field) لا يُفكِّـرُ أو يُخطِّـط. إذن عـلىٰ مسـتوىٰ المنطـقِ والخـبرةِ في الحيـاةِ اليوميـة، نصـبحُ عـلىٰ إدراكٍ بنحـوٍ

(١) مصـطلح مشـهور في فلسـفة الـذهن المعـاصرة، ابتكـره جلـبرت رايـل للتعبـير عـن ثنائيـة العلاقة بين المادِّي والمعنوي، أو قل: بين الجسد/ العقل.

مباشرٍ بأنَّ عالَمَ الموجودات الحيَّة، والواعية، والمُفكِّرة أساسُهُ مصدرٌ حيٌّ، هو العقل.

* * *

الملحق الثاني:

الوحي الذَّاتي للإله في التاريخ البشري

حوارٌ مع ن. ت. رايت حول المسيح

أنتوني فلو

أسئلة عن الوحي الإلهي

حتَّىٰ الآن ناقَشْتُ المعطيات التي قادَتْني للقبولِ بوجودِ عقلٍ إلهي. أُولئكَ الذين يسمعون هذه الحُجَجَ سيتساءلونَ حتماً عن رأيي بخصوصِ ادِّعاءات الوحي الإلهي. في كلٍّ من كُتُبي ضدَّ اللَّاهوت - المنطقية، ومناظراتي المتعدِّدة، تناولتُ هذا الموضوع مع الكثيرِ من الادِّعاءات بشأنِ الوحي أو التدخُّل الإلهي.

إلَّا أنَّ موقفي الحالي هو أكثر انفتاحاً تجاهَ هذه الادِّعاءات. في الواقعِ، أنا أعتقدُ أنَّ الدِّينَ المسيحي هو بوضوح أكثر الأديان استحقاقاً للاحترامِ والتقدير[١]، بغضِّ النَّظَر عمَّا إذا كان موقفُهُ من الوحي الإلهي صادقاً.

ليس ثَمَّةَ دين يمتلكُ مزيجاً من: شخصيةٍ لها جاذبية كجاذبيةِ السيِّد المسيح، ومُفكِّرٍ من الطِّرازِ الأوَّل مثل القدِّيس بولس (St. Paul)[٢]. تقريباً كلُّ الحُجَج المتعلِّقة بالمحتوىٰ الدِّيني تمَّت صياغتها من قِبَلِ القدِّيس بولس، الذي كان يمتلكُ عقلاً فَلْسفياً ذكياً، وكان بمقدورِهِ التحدُّث والكتابة بكلِّ اللُّغات ذات الصِّلة. إذا كُنْتَ تريدُ من الإلهِ

---

(١) كلُّ الأديان السماوية جديرةٌ بالاحترام، لكن لا نتَّفق مع (فلو) في كونِ الدِّين المسيحي أكثرها استحقاقاً للاحترام والتقدير. ونتفهَّم موقفه باعتبارِهِ نشأ في بيئة تشيع فيها المسيحية منذُ قرونٍ طويلة، ولم تتعرَّف علىٰ الإسلام الأصيل عن قُرْبٍ وعمق. (المراجع).

(٢) إنْ اتَّفقنا مع (فلو) في تعظيمهِ لشخصيةِ السيِّد المسيح، فلا نتَّفق معه في تعظيمهِ لبولس. (المراجع).

الذي هو علىٰ كلِّ شيءٍ قدير أنْ يُقيمَ ديناً، فهذا هو الدِّينُ الجديرُ بالمُراهنةِ عليه.

في الطَّبعاتِ الأُولىٰ من كتاب (الإله والفَلْسفة)، عالجْتُ الادِّعاءات المسيحية إلىٰ حدٍّ ما. وجادَلْتُ بأنَّ التقدُّمَ الهائل الذي أُحرِزَ في الدِّراساتِ النقدية للعهدِ الجديد وغيرِها من المصادر لتاريخِ أُصول المسيحية، لا يدَعُ لأُولئكَ الذين يُقدِّمونَ ادِّعاءات واسعة وكبيرة (مجالاً للاختباء). ثانياً، أنَّه لا يمكنُ معرفة وقوع المعجزات من خلالِ أدلَّةٍ تاريخية، وهذا يخلُّ بمصداقيةِ الادِّعاء بأنَّ قيامةَ المسيح يمكنُ معرفتُها باعتبارِها حقيقةً في التاريخ.

في مناظراتي المختلفة عن قيامةِ المسيح، قدَّمتُ نقاطاً متعدِّدة:

النُّقطةُ الأُولىٰ، هي: أنَّ أحدثَ الوثائق التي تُؤرِّخُ للحدَثَ المُدَّعىٰ، كُتِبَت بعد ثلاثين أو أربعين سنة من وقوعِه. لا توجد أدلَّةٌ معاصرةٌ لوقوعِ الحدث، وإنَّما مجرَّد وثائق كُتِبَت بعد وقوعِهِ.

النُّقطةُ الثانية، هي: أنَّنا لا نملِكُ وسيلةً للتحقُّقِ فيما إذا كان المسيحُ المَبْعوثُ قد ظَهَرَ واقعاً للمجموعاتِ التي ادَّعت رؤيتُهُ، لأنَّ ما لدينا من وثائقَ يقولُ فقط: إنَّ هذه الأحداث غير الاعتيادية قد وقعَتْ بالفعل.

والنُّقطةُ الأخيرة، هي: أنَّ الأدلَّةَ علىٰ قيامةِ المسيحِ محدودةٌ جدَّاً. في الحقيقةِ، وثائقُ العهدِ الجديد (New Testment) عن قيامةِ المسيح كانت هي رسائلَ بولس (Paul)، ولم تكن في الأناجيل (Gospels)، وهذه الرَّسائل تنطوي علىٰ تفاصيل حسِّية ضئيلة جدّاً عن قيامةِ المسيح.

اليوم، أودُّ أنْ أقول بأنَّ التحدِّي المتعلِّق بقيامةِ المسيح أكثر تاثيراً

من أيِّ تحدٍّ دينيٍّ آخر. لا أزالُ أعتقدُ بأنَّه عندما ينظُرُ علماءُ التاريخ بطريقةٍ احترافيةٍ إلىٰ أدلَّةِ قيامةِ المسيح، فإنَّهم يحتاجونَ إلىٰ أكثرَ بكثيرٍ ممَّا هو متوفِّر. فهم يحتاجونَ إلىٰ أدلَّةٍ من أنواعٍ مختلفة[1].

أعتقدُ أنَّ الادِّعاءَ بأنَّ الإلهَ كان قد تجسَّدَ في المسيحِ هو ادِّعاءٌ فريدٌ من نوعِه. من الصَّعبِ، كما أعتقد، تشخيصُ كيف يُمكِنُكَ الحُكْمُ علىٰ ذلك سوىٰ بالاعتقادِ أو عدم الاعتقاد. لا يُمكِنُني رؤيةُ أنَّ هناك مبادئَ عامَّة تُرشِدُكَ إلىٰ ذلك[2].

في سياقِ منظوري الجديد، لقد انخرَطْتُ في حوارٍ حول المسيح

---

(١) إنْ قطعنا النظر عمَّا صرَّح به القرآن بشأنِ مصير المسيح، واقتصرنا علىٰ ما لدىٰ المسيحيِّين من أدلَّة، فهذا الموقف بتقديري صحيح. فالنقاط التي ذكرها حول قيامة يسوع، قويَّة، وأدلَّة إثبات قيامتِه علىٰ ضوءِ الوثائق التاريخية ضعيفة. لكن إنْ كانت قضيَّة قيامة يسوع هي القضيَّة المركزية في الدِّين المسيحي (التي علىٰ أساسِها شرَّقَ علماءُ الدِّين المسيحي وغرَّبوا، وأطلقوا ادِّعاءات تتعلَّق بأُلوهيةِ يسوع، والتثليث، وعقيدة الفداء)، فإنَّ التَّشكيكَ بوقوع هذه الحادثة كفيلٌ بضعضعةِ الدَّعائم الأساسية لهذا الدِّين.

أمَّا اليهود، فقد شاعَ بينهم - كما جاء في إنجيل متىٰ ٢٨: ١٢ - ١٥ - القولَ بأنَّ تلامذة يسوع قد جاؤوا ليلاً وسرقوا جسدَهُ.

لذا يَّتفق اليهود والمسيحيون علىٰ موتِ يسوع، ويُصِرُّ المسيحيون علىٰ قيامتِه، ويُنكِرُ اليهودُ ذلك. أمَّا نُقَّاد العهد الجديد فيُشكِّكونَ في إمكانيةِ إثبات ذلك من الناحيةِ التاريخية.

في حين أنَّ القرآنَ يُنكِرُ موتَ يسوع قصاصاً أصلاً، ويرىٰ أنَّهم ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ﴾ (النساء: ١٥٧)، لذا فمسألةُ قيامتِه بعد موتِه منتفيةٌ، لأنَّها سالبةٌ بانتفاءِ موضوع الموت قصاصاً. (المراجع).

(٢) يقصد (فلو) أنَّ الاعتقادَ بتجسُّد الإله في يسوع هو اعتقادٌ لاهوتي (كلامي)، يصعُبُ تشييدُهُ علىٰ أُسسٍ صَلْبة. لذا فإمَّا أنْ تؤمن بذلك أو لا تؤمن به. (المراجع).

مـع العـالِمِ المعـاصر الشَّـهير في التـاريخِ المسـيحي الأسـقف ن. ت. رايـت (Bishop N. T. Wright) أُسْـقُف دَرَهـام، والباحـث في العهـدِ الجديـد بأكسفورد. وفيما يلي ردودُهُ على بعضِ المواضيع التي طرحتُها في كتاباتي.

* * *

ردُّ نيكولاس توماس رايت

(N. T. WRIGHT: RESPONSE)

كيف نعرف أنَّ المسيحَ قد وُجِدَ؟

مـن الصَّـعبِ جـدًّا أنْ أعـرِفَ مـن أيـن أبـدأ، لأنَّ الأدلَّـةَ المتراكمـةَ في الواقـعِ لصـالحِ المسـيح هائلـةٌ، بحيـث إنَّنـي كعـالِمِ تـاريخ، أقـولُ بـأنَّ لـدينا أدلَّة عـلىٰ المسيحِ أكثـرَ مـن أيِّ شـخصٍ في العـالَمِ القـديم. مـن الواضـحِ، أنَّ هناكَ بعض شخصيات العـالَمِ القـديم لـدينا لهـا تماثيـل ونُقُـوش. مـن ناحيـةٍ أُخـرىٰ، لـدينا أيضـاً تماثيـل لآلهـةٍ والِهـاتٍ في العـالَمِ القـديمِ جـدًّا، لـذا لـن يكـونَ بمقـدورِكَ التأكُّـد مـن وجـودِ هـذه الشَّخصـيات. لكـن في حالـةِ المسيح، كـلُّ الأدلَّـةِ تشـيرُ بنحـوٍ مؤكَّـدٍ إلىٰ وجـودِ هـذه الشَّخصـية العظيمـة في العشـرينات إلىٰ الثلاثينـات مـن القَـرْنِ الأوَّل[1]. والأدلَّـةُ تتَّسِـقُ بنحـوٍ كبيرٍ مع ما نعرِفُـهُ عـن اليهوديـةِ في تلـك الحَقْبـة (عـلىٰ الـرَّغمِ مـن أنَّ الكثـيرَ منها كُتِبَ بعد جيلٍ منه) بحيـث مـن الصَّـعبِ عـلىٰ أيِّ باحـثٍ تـاريخيٍّ اليـوم أنْ يشُـكَّ في وجـودِ المسـيح، وفي الحقيقـةِ، لا أعـرفُ أيَّ باحـثٍ تـاريخيٍّ يشُـكُّ في ذلـك. هنـاك شـخصٌ أو شخصـان. هنـاكَ رجُـلٌ اسـمُهُ ج. أ.

---

(١) لمعرفـة المزيـد عـن الجـدل حـول وجـود المسـيح التـاريخي، راجـع: قصَّـة الحضـارة لـول ديورانت ١١: ٢٠٢ - ٢٠٦. (المراجع).

ويلس (G.A Wells)[١] هو الوحيدُ الذي شكَّكَ في ذلك مُؤخَّراً. من وقتٍ لآخرَ تجدُ شخصاً مثل ج. م. أليغرو (J. M. Allegro)[٢]، كتَبَ قبلَ جيلٍ من الآن كتاباً استناداً إلىٰ مخطوطاتِ البحر الميِّت[٣]، قائلاً بأنَّ المسيحيةَ بأسرِها كانت تتعلَّق بعبادةِ الفِطْر المُقدَّس.

لا يوجدُ عالِمٌ يهوديٌّ، أو مسيحيٌّ، أو مُلْحِدٌ، أو لا أدريٌّ (agnostic)، أخَذَ هذا الكلام علىٰ محمَلِ الجدِّ علىٰ الإطلاق. من الواضِح

(١) جورج ألبرت ويلز، مؤرِّخ إنجليزي، وُلِدَ سنة (١٩٢٦م)، ما زال علىٰ قيد الحياة، أنكر الوجود التاريخي للمسيح في كتابه (المسيح في المسيحية المبكرة)، الذي نُشِرَ سنة (١٩٧١م)، وأكَّد علىٰ أنَّه مجرَّد شخصية أُسطورية، اصطنعها خيال الإنسان. لكن ابتداءً من سنة (١٩٩٠م)، غيَّرَ ويلز موقفه، وصار يُذعِن بأنَّ المسيح شخصية حقيقية وليست أُسطورية، ويبدو أنَّ رايت لم يطَّلع علىٰ هذا التغيُّر في موقف ويلز. (المراجع).

(٢) جون ماكرو أليغرو (١٩٢٣ - ١٩٨٨م) عالم آثار إنجليزي، متخصِّص بمخطوطات البحر الميِّت. أثار كتابه (الفِطْر المقدَّس والصَّلْب) الذي نشره سنة (١٩٧٠م) جدلاً واسعاً، حيث أنكرَ وجود المسيح التاريخي، وادَّعىٰ أنَّ المسيحية نشأت من طائفة سرِّية ارتبطت بعبادةِ الفِطْر المقدَّس، لأنَّ هذا النوع من نبات الفطر كان يؤدِّي إلىٰ السَّيطرة علىٰ الفكر والخيال، وينتهي إلىٰ النشوة والهلوسة، لذا رأوا فيه قدرة إلهية مقدَّسة، ناهيك عن كونهِ يشبه ذكر الرَّجُل الذي يرمُز للخصوبةِ التكاثر، ومن الفِطْر المقدَّس تمَّ استقاء فكرة الصَّلْب، لأنَّ الفِطْر يشبه الصَّليب الصَّغير! وهناك مقابلة معه مرفوعة علىٰ اليوتيوب، أجراها التلفزيون الهولندي، مدَّتها (٢١) دقيقة تقريباً. (المراجع).

(٣) مخطوطات البحر الميِّت تضمُّ ما يزيد علىٰ (٨٥٠) قطعة مخطوطة، بعضها ممَّا سُمِّي لاحقاً (الكتاب المقدَّس)، وبعضها من كُتُب لم تكن تُعرَف أو كانت مفقودة. وقد كانت في جرارٍ فخَّارية كانت مطلية بالنحاس. أوَّل من عثر عليها راعيان من بدو التعامرة المتجوِّلين، واكتشف المزيد بين عامي (١٩٤٧ و١٩٥٦م) في (١١) كهفاً في وادي قمران، قرب خربة قمران شمال البحر الميِّت. وقد أثارت المخطوطات اهتمامَ الباحثين والمختصِّين بدراسة نصِّ العهد القديم، لأنَّها تعود لما بين القرن الثاني قبل الميلاد والقرن الأوَّل منه.

جـدَّاً جـدَّاً أنَّ المسـيحَ شخصـيةٌ موثَّقـةٌ في التـاريخِ الـواقعي. لـذا لا بـدَّ لهـذا السُّؤال أنْ يُنحَّىٰ جانباً[1].

* * *

(١) نتَّفـق مـع رايـت في وجـودِ المسـيح ابـن مـريم عليه السلام التـاريخي، لـيس لإيمانِنـا بـالقرآن فحَسْـب، بـل لأنَّ الأدلَّـة والشـواهد التاريخيـة، مـن مُحبِّيـه (في العهـد الجديـد)، وأعدائـهِ (في التلمـود)، والمحايـدين، كلُّهـا تؤكِّـد وجـودَهُ. فلَسْـنا مـن أُولئـك الـذين يُشكِّكون بوجـوده التاريخي. (المراجع).

ما هي أُسُس الادِّعاء من النُّصوص
بأنَّ المسيحَ هو الإلهُ المُتجسِّد؟

إيـماني بالمسـيحِ كـابْنِ الله المُتجسِّـد لا يسـتندُ إلىٰ مقـاطعَ واردة في الإنجيـلِ تـدَّعي ذلـك. إيـماني بـذَلك أعمـقُ مـن ذلـك بكثـير، بـل يعـودُ في الحقيقـةِ إلىٰ سـؤالٍ مهـمٍّ جـدّاً هـو: كيـف فهـمَ يهـود القَـرْن الأوَّل الإلـهَ، وفعـلَ الإلـه في العـالَم؟ وحـتماً، كيهـود هـم عـادوا إلىٰ المـزامير[١]، وسِـفْر أشـعيا[٢]، وسِـفْر التَّثنيـة[٣]، وسِـفْر التَّكـوين[٤]، وهلُـمَّ جـرّاً. ونسـتطيعُ أنْ نـرىٰ، في الـتراثِ اليهـودي لـزمنِ المسـيح، كيـف فسَّـرَ هـؤلاء هـذه النُّصوص. لقد تكلَّمـوا عـن الإلـهِ الواحـدِ الـذي صَـنَعَ الكـون، وهـو أيضـاً إلـهُ إسرائيـل[٥]، وتكلَّمـوا عـن هـذا الإلـهِ علىٰ أنَّـه فاعـلٌ في العـالَم، حـاضرٌ

---

(١) المـزامير أو مـزامير داود هـي تسـابيح لله، وأناشـيد حمـد وسـجود وتمجيـد لـه، وهـي مـن أسفار العهد القديم من الكتاب المقدَّس.

(٢) سفر أشعيا من أسفار العهد القديم من الكتاب المقدَّس.

(٣) سـفر التثنيـة أو سـفر تثنيـة الاشـتراع (بالعبريـة: דברים) أحـد أسـفار الكتـاب المقـدَّس لـدىٰ الـدين اليهـودي، ومـن أسـفار العهـد القـديم في المسيحية؛ ولا خـلاف بـين مختلـف طوائف الدين اليهودي والمسيحي حول قدسيته.

(٤) سـفر التكـوين هـو أوَّل أسـفار التـوراة (أسـفار موسـىٰ الخمسـة)، وأوَّل أسـفار التنـاخ، وهو جزء من التوراة العبرية، كما أنَّه أوَّل أسفار العهد القديم لدىٰ المسيحيين.

(٥) في التوراة وفي الـتراث اليهـودي يُعتَـبر اسـم (إسرائيـل) اسـم بـديل ليعقـوب، وتظهـر قصَّـة تسمية يعقوب بإسرائيل في سفر التكوين.

ويفعل أشياءَ في العـالَمِ وفي إسرائيـل. وتكلَّمـوا عـن ذلـك بخمسـةِ طُـرُق (لا علاقة لذلك بطرق توما الأكويني الخمسة[١]!).

لقـد تحـدَّثوا عـن كلمـةِ الإلـه: الإلـه قـالَ: كُـنْ فكـان؛ لقـد قـالَ اللهُ: (لـيكُنْ نـورٌ) فكـانَ نـورٌ. كلمـةُ الإلـهِ حيَّـةٌ وفاعلـة، وفي سِـفْرِ أشـعيا لـدينا صورةٌ قويَّةٌ جدَّاً عن كلمةٍ تنـزِلُ مـن الأعـلىٰ كـالمطرِ أو الـثَّلْج وتفعـلُ أشـياء في العالَمَ.

يتحـدَّثون عـن حكمـةِ الإلـه. ونحـنُ نـرىٰ ذلـك في الأمثـالِ بشـكلٍ خـاصٍّ، بـل وفي مقـاطِعَ متعـدِّدة كـذلك. الحكمـةُ تصـبحُ تقريبـاً نوعـاً مـن التعبيرِ عن (الذَّاتِ الثانيـة) للإلـه. حكمـةُ الإلـهِ فاعلـةٌ في العـالَمِ، وتقطُـنُ في إسرائيل، وتقومُ بأشياءٍ تُساعِدُ الناسَ أنفُسَهم حتَّىٰ يصبحوا حُكماء.

يتحـدَّثون عـن مجْـدِ (جـلال) الإلـه القـاطن في الهيكـل. علينـا أنْ لا ننسىٰ أبداً أنَّ الهيكلَ بالنِّسـبةِ ليهـود القَـرْن الأوَّل كـان رمـزاً للتجسُّـد، وهـم يؤمنون بأنَّ خـالِقَ الكـون قـد وعَـدَ بـالمجيء، وأنْ يجعَـلَ بيتَـهُ في هـذا المبنـىٰ عـلىٰ الطَّريـقِ إلىٰ القُـدْس (أُورشـليم). إلىٰ أنْ تـذهبَ واقعـاً إلىٰ القُـدْس وتُفكِّر في هذا الأمر، فإنَّكَ واقعـاً لـن تُـدرِكَ ذلـك. بـل هـو أمـرٌ غـيرُ عـاديٍّ علىٰ الإطلاق.

بعد ذلك، يتحـدَّثونَ بـالطَّبعِ عـن نـاموسِ (قـانون) الإلـه، الـذي هـو (كاملٌ يرُدُّ النَّفْسَ) (كـما جـاءَ في المزمـور ١٩: ٧). النـاموسُ، مثـلُ الحكمـة، ليس مجرَّد قانونٌ مكتوب. إنَّـه قـوَّةٌ وجوديـةٌ مسـموعةٌ وحـاضرةٌ مـن خلالِـهِ عرَّفَ الإلهُ نفسَهُ (جعلَ نفسَهُ معروفاً).

---

(١) خمس حجج قدَّمها القدّيس توما الإكويني للبرهنة علىٰ وجود الإله.

ثـمَّ، أخـيراً يتحـدَّثونَ عـن رُوحِ الإلـه. روحُ الإلـهِ التـي تُسْـرِعُ إلىٰ شَمْشـون[1] في سِـفْرِ القُضـاة؛ روحُ الإلـهِ التـي تُمكِّـنُ الأنبيـاءَ ليُصـبحوا أنبيـاء؛ روحُ الإلـهِ القاطنـة في البشـر حتَّـىٰ يتمكَّنـوا مـن القيـامِ بأشـياء استثنائية لمجْدِ الإله.

هـذه الطُّـرُقُ الخمسـة في الكـلامِ عـن فعـلِ الإلـه في العـالَمِ (الكلمـة، الحكمة، المَجْد، النـاموس، الـرُّوح)، هـي طُـرُقٌ كـان اليهـودُ في القَـرْنِ الأوَّلِ يُعبِّرونَ من خلالِها كلِّهـا عـن إيمانِهـم بالواحـدِ الـذي يعرفونَـهُ علىٰ أنَّـه هـو الإلهُ الأبديُّ، خـالِقُ العـالَمِ، الـذي كـان حـاضراً وفـاعلاً في العـالَمِ، وبشـكلٍ خاصٍّ في إسرائيل. وتستطيعُ رؤيـةَ ذلـك، لـيس في العهـدِ القـديمِ فحَسْـب، بـل أيضـاً في الآثـارِ التـي خلَّفَهـا العهـدُ القـديمُ في يهوديـةِ القَـرْنِ الأوَّل، في كتابـاتِ الربَّـانيِّين[2]، وفي مخطوطـاتِ البحـرِ الميِّـت، وفي نصـوصٍ أُخـرىٰ مُشابهة.

الآن، عنـدما نـأتي إلىٰ هـذه الطُّـرُقِ الخمسـة في الأناجيـل، نكتشـفُ أنَّ يسوعَ لا يتكلَّم فقـط، بـل يتصـرَّف (يفعـل) أيضـاً، كـما لـو أنَّ هـذه الطُّـرُقَ الخمسـة تصـبحُ بنحـوٍ مـا حقيقـةً بطريقـةٍ جديـدةٍ مـن خـلالِ مـا يقـومُ بـه. ونـرىٰ ذلـكَ بشـكلٍ خـاصٍّ في مثـالِ الـزَّارع[3]. الـزَّارعُ يـزرَعُ الكلمـة،

(١) شمشـون بـن منـوح الـدني (بالعبريـة: שִׁמְשׁוֹן) مـن شخصـيات العهـد القـديم، هـو بطـل شـعبي مـن إسرائيـل القديمـة اشـتهر بقوَّتـه الهائلـة، وورد ذكـره في سـفر القضـاة في الاصحاحات (١٣) إلىٰ (١٦).

(٢) الرَّبَّـانيّ في اليهوديـة، ويُسـمّىٰ: الحـبر. والـراب والحاخـام، هـو زعـيم دينـي. كلمـة حاخـام العربية ترجع إلىٰ الكلمة العبرية (חכם) أي (حكيم).

(٣) أُنظـر مثـال الـزارع في إنجيـل متّـىٰ ١٣: ١ - ٢٤، وإنجيـل مـرقس ٤: ١ - ٢٠، وإنجيـل لوقا ٨: ١ - ١٥. وإليك هـذا النمـوذج لهـذا المثل مـن إنجيـل لوقـا: (فَلَـمَّا اجْتَمَـعَ جَمْـعٌ كَثِيرٌ

والكلمةُ تقومُ بعملِها الخاصّ. لكن انتظر لحظة، من الذي يقومُ بعمليةِ التعليم؟ إنَّه يسوع بذاتِهِ.

ثمَّ يتحدَّث يسوعُ علىٰ هذا النَّحو عن الحكمةِ بطُرُقٍ مختلفة: حكمةِ الإله، حيثُ يقول: (أنا أفعلُ هذا، أنا أفعلُ ذلك). ويُمكِنُكَ تعقُّب أحاديث الحكمة في العهدِ القديم، ليس فقط في أقوالِ يسوع الفردية، بل في الطَّريقةِ التي كان يُمارِسُ فيها ما كان يقومُ به. كلامُهُ عن الرَّجُلِ العاقلِ الذي بنىٰ بيتَهُ علىٰ الصَّخر، والرَّجُلِ الجاهل الذي بنىٰ بيتَهُ علىٰ الرَّمل، هذه مراهنةٌ نموذجيةٌ علىٰ تعلُّم الحكمة[1]. لكن، انتظِر

أَيْضًا مِنَ الَّذِينَ جَاؤُوا إِلَيْهِ مِنْ كُلِّ مَدِينَةٍ، قَالَ بِمَثَلٍ: «خَرَجَ الزَّارِعُ لِيَزْرَعَ زَرْعَهُ. وَفِيمَا هُوَ يَزْرَعُ سَقَطَ بَعْضٌ عَلَىٰ الطَّرِيقِ، فَانْدَاسَ وَأَكَلَتْهُ طُيُورُ السَّمَاءِ. وَسَقَطَ آخَرُ عَلَىٰ الصَّخْرِ، فَلَمَّا نَبَتَ جَفَّ لأَنَّهُ لَمْ تَكُنْ لَهُ رُطُوبَةٌ. وَسَقَطَ آخَرُ فِي وَسْطِ الشَّوْكِ، فَنَبَتَ مَعَهُ الشَّوْكُ وَخَنَقَهُ. وَسَقَطَ آخَرُ فِي الأَرْضِ الصَّالِحَةِ، فَلَمَّا نَبَتَ صَنَعَ ثَمَرًا مِئَةَ ضِعْفٍ». قَالَ هذَا وَنَادَىٰ: «مَنْ لَهُ أُذْنَانِ لِلسَّمْعِ فَلْيَسْمَعْ!». فَسَأَلَهُ تَلاَمِيذُهُ قَائِلِينَ: «مَا عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ هذَا الْمَثَلُ؟». فَقَالَ: «لَكُمْ قَدْ أُعْطِيَ أَنْ تَعْرِفُوا أَسْرَارَ مَلَكُوتِ الله، وَأَمَّا لِلْبَاقِينَ فَبِأَمْثَال، حَتَّىٰ إِنَّهُمْ مُبْصِرِينَ لاَ يُبْصِرُونَ، وَسَامِعِينَ لاَ يَفْهَمُونَ. وَهذَا هُوَ الْمَثَلُ: الزَّرْعُ هُوَ كَلاَمُ الله، وَالَّذِينَ عَلَىٰ الطَّرِيقِ هُمُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ، ثُمَّ يَأْتِي إِبْلِيسُ وَيَنْزِعُ الْكَلِمَةَ مِنْ قُلُوبِهِمْ لِئَلَّا يُؤْمِنُوا فَيَخْلُصُوا. وَالَّذِينَ عَلَىٰ الصَّخْرِ هُمُ الَّذِينَ مَتَىٰ سَمِعُوا يَقْبَلُونَ الْكَلِمَةَ بِفَرَحٍ، وَهؤُلاَءِ لَيْسَ لَهُمْ أَصْلٌ، فَيُؤْمِنُونَ إِلَىٰ حِينٍ، وَفِي وَقْتِ التَّجْرِبَةِ يَرْتَدُّونَ. وَالَّذِي سَقَطَ بَيْنَ الشَّوْكِ هُمُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ، ثُمَّ يَذْهَبُونَ فَيَخْتَنِقُونَ مِنْ هُمُومِ الْحَيَاةِ وَغِنَاهَا وَلَذَّاتِهَا، وَلاَ يُنْضِجُونَ ثَمَرًا. وَالَّذِي فِي الأَرْضِ الْجَيِّدَةِ، هُوَ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ الْكَلِمَةَ فَيَحْفَظُونَهَا فِي قَلْبٍ جَيِّدٍ صَالِحٍ، وَيُثْمِرُونَ بِالصَّبْرِ). (المراجع).

(١) أُنظر إنجيل متّىٰ ٧: ٢٤- ٢٧: (فَكُلُّ مَنْ يَسْمَعُ أَقْوَالِي هذِهِ وَيَعْمَلُ بِهَا، أُشَبِّهُهُ بِرَجُلٍ عَاقِلٍ، بَنَىٰ بَيْتَهُ عَلَىٰ الصَّخْرِ. فَنَزَلَ الْمَطَرُ، وَجَاءَتِ الأَنْهَارُ، وَهَبَّتِ الرِّيَاحُ، وَوَقَعَتْ عَلَىٰ ذلِكَ الْبَيْتِ فَلَمْ يَسْقُطْ، لأَنَّهُ كَانَ مُؤَسَّسًا عَلَىٰ الصَّخْرِ. وَكُلُّ مَنْ يَسْمَعُ أَقْوَالِي هذِهِ وَلاَ يَعْمَلُ بِهَا، يُشَبَّهُ بِرَجُلٍ جَاهِلٍ، بَنَىٰ بَيْتَهُ عَلَىٰ الرَّمْلِ. فَنَزَلَ الْمَطَرُ، وَجَاءَتِ الأَنْهَارُ،

لحظة، الرَّجُلُ العاقلُ هو (كُلُّ مَنْ يَسْمَعُ أَقْوَالِي هذِهِ وَيَعْمَلُ بِهَا). وهكذا فإنَّ الحكمةَ ويسوع متلازمانِ معاً بشكلٍ وثيقٍ جدّاً.

بعد ذلك، بالتَّحديد الهيكل. حيثُ يتصرَّفُ يسوع كما لو كان الهيكلُ قد تجسَّدَ في شخصِهِ. عندما يقولُ يسوع: (مغفورةٌ لكَ خطاياكَ)[1]، فهي صَدْمةٌ حقيقيةٌ، لأنَّ غفرانَ الخطايا يُعلَنُ عادةً عندما تذهَبَ إلىٰ الهيكلِ وتُقدِّمُ قُرْباناً (أُضْحِية). ولكن يسوع يقولُ لك: إنَّكَ تستطيعُ أنْ تفعلَ ذلك هنا في الشَّارع. عندما تكونُ مع يسوع، فأنتَ كما لو كُنْتَ في الهيكل، وهو يُحدِّقُ في مَجْدِ الإله.

عندما نأتي إلىٰ النَّاموسِ اليهودي، نكتشفُ شيئاً رائعاً. أحدُ العلماءُ اليهودُ الكبارُ في يومِنا هذا، يعقوب نوسنر (Jacob Neusner)[2]، الذي كتَبَ العديدَ من الكُتُبِ الرَّئيسية في اليهودية، كتَبَ كتاباً عن يسوع. في هذا الكتاب يقولُ نوسنر: إنَّه عندما يقرأ أنَّ يسوع قال أشياءً مثل: (لقد سِمِعْتُم أنَّه قيلَ كذا وكذا، وأمَّا أنا فأقولُ لكم هذا وهذا وهذا)، أريدُ أنْ أقولَ ليسوع هذا: من تعتقد نفسَك؟ الإله؟ لقد قدَّمَ يسوع ناموساً جديداً، قدَّمَ تفسيراً جذرياً جديداً للناموس، ويدَّعي بمعنىٰ ما أنَّه تجاوزَ الطَّريقةَ التي كان يُفهَمُ أو يُفسَّرُ بها النَّاموس.

وأخيراً هناكَ الرُّوح، يقولُ يسوع: (وَلكِنْ إِنْ كُنْتُ

وَهَبَّتِ الرِّيَاحُ، وَصَدَمَتْ ذلِكَ الْبَيْتَ فَسَقَطَ، وَكَانَ سُقُوطُهُ عَظِيماً). (المراجع).

(١) وردت في مواطن متعدِّدة، أُنظر علىٰ سبيل المثال: إنجيل متّىٰ ٩: ٥، إنجيل مرقس ٢: ٥، إنجيل لوقا ٥: ٢٠. (المراجع).

(٢) عالم دين يهودي أمريكي، وُلِدَ سنة (١٩٣٢م)، وتوفّي سنة (٢٠١٦م). (المراجع).

أَنَا بِرُوحِ الله أُخْرِجُ الشَّيَاطِينَ، فَقَدْ أَقْبَلَ عَلَيْكُمْ مَلَكُوتُ الله!)[١].

فما نراهُ ليس كما لو كانَ يسوع يدورُ بين النَاسِ قائلاً: (أنا هو الشَّخصُ الثاني من الثالوث. إمَّا أنْ تؤمنوا بذلك أو لا). هذه في الواقع ليست هي الطريقة لقراءةِ الأناجيل. بل الأحرىٰ أنْ تُقرأ كما قرأها المُؤرِّخونَ في القَرْنِ الأوَّل، بحيث يُمكِنُنا أنْ نرىٰ يسوع يتصرَّف بحيث نقول جميعًا: هذه القصَّةُ العظيمةُ ككُلٍّ حول إلهٍ جاءَ ليكونَ مع الناس، قد حدثَت بالفعل.

إنَّه ليس فقط عبْرَ كلمةٍ أو حكمةٍ أو غيرِها. إنَّه فيَّ، وكشخصٍ. إنَّه الشَّيء الذي يجمَع كلَّ ذلك معاً (كتبْتُ هذا في الفَصْلِ قبل الأخير من كتابي (يسوع ونصر الإله Jesus and the victory of God))، هو أنَّ الكثيرَ من اليهودِ في زمنِ يسوع كانوا يعتقدونَ أنَّ (يَهْوَه Yahweh)، إلهُ إسرائيل سوفَ يعودُ في شخصٍ ليعيشَ في الهيكل. تجدُ ذلكَ في سِفْر حزْقيال، سِفْر أشعيا، سِفْر زكريا[٢]، والعديد من النُّصوص اللاحقة.

ولذلك هم يعيشونَ علىٰ أمل أنَّ الإلهَ سيعودُ يوماً ما، لأنَّ الإلهَ عندما يعود، فهو بالطَّبع سيطرُد زُمرةَ الرُّومان، وسيُعيد بناءَ الهيكل بنحوٍ يليقُ به، وليس علىٰ طريقةِ هيردوس (Herod)[٣] التي قامَ بها. هناك

(١) إنجيل متّىٰ ١٢: ٢٨. (المراجع).

(٢) من أسفار الكتاب المقدَّس (العهد القديم).

(٣) هوردس أو هيرودس (العبرية: הורדוס) (٧٣ قبل الميلاد - ٤ قبل الميلاد)، هو ابن الدبلوماسي انتيباتر الإدومي من زوجته النبطية، عُيِّن حاكماً علىٰ الجليل ثمّ أصبح ملك اليهودية. وقد بسط نفوذه علىٰ المنطقة الممتدَّة من هضبة الجولان شمالاً إلىٰ البحر الميِّت جنوباً، وكانت أيّام حكمه تُمثِّل ازدهاراً ثقافياً واقتصادياً، وقد كان حليفاً أميناً للإمبراطورية الرومانية، كان مقرُّه في مدينة القدس، أي أُورشليم، وقد اشتهر

سلسلةٌ من التوقُّعات تتعلَّق بعودةِ الإله. وبالتالي نجدُ في الأناجيل هذه الصُّورةَ الاستثنائية عن يسوع، حيثُ يقومُ بالرِّحلةِ الأخيرةِ إلىٰ القدس، (حاكياً قصَصَ الملِك الذي عاد).

لقد جادَلْتُ، كما جادَلَ آخرون، بأنَّ يسوع عندما كان يحكي قصصَاً الملِك الذي عادَ إلىٰ شعبِهِ، أو السيِّد الذي عادَ إلىٰ خدَمِهِ، لم يكن يتحدَّث علىٰ طريقةِ العودة الثانية في المستقبل. لم يكن التلاميذ مهيَّئِينَ لذلك. حتَّىٰ إنَّهم لم يكونوا يعلمون بأنَّه ذاهبٌ ليُصْلَب. يسوع كان يحكي لهم قصَصَ حول أهمّيَّة رحلتِهِ إلىٰ القدس، وهو كان يدعو من له أُذْنان للسَّمْعِ فليَسْمَع ليأخذوا هذه الصُّورةَ لـ (يَهْوَه Yahweh) في العهدِ القديم إلىٰ صهيون (Zion)[1]، ويضعُوها نُصْبَ أعيُنِهم عندما يرونَهُ كنبيٍّ شابٍّ يسافرُ إلىٰ القدسِ راكباً أتاناً (أُنثىٰ الحمار).

أعتقدُ أنَّ يسوع قد خاطَرَ بحياتِهِ (أو راهنَ علىٰ حياتِهِ) - بنحوٍ حَرْفيٍّ - علىٰ اعتقادِهِ بأنَّه طُلِبَ لـ (تجسيدِ) عودة يَهْوَه إلىٰ صهيون. الآن، (تجسُّد embody) كلمةٌ إنجليزية. المقابلُ اللاتيني لها هو (incarnation). لكنَّني أُفضِّلُ كلمةَ (embody)، علىٰ الأقلِّ في الأماكنِ التي أتحدَّثُ بها، حيث يمكنُ للناسِ استيعابَها أكثر من اللَّفظ اللاتيني. لكنَّها تُؤدِّي نفسَ المعنىٰ.

أنا أعتقدُ فعلاً أنَّ يسوع اعتقدَ بأنَّهُ طُلِبَ منه أنْ يتصرَّفَ علىٰ

بمشاريع البناء الفاخرة التي بادرها في هذه المدينة، ومنها بناء معبد القدس الكبير المسمّىٰ هيكل سليمان.

(١) صهيون (بالعبرية: צִיּוֹן) ومعناها الحصن، هو واحد من التلين الذين كانت تقوم عليها مدينة أورشليم القديمة حيث أسس داود عاصمته الملكية.

أساسِ هـذا الافـتراض. وأعتقـدُ أنَّ ذلـك كـان مُخيفـاً بشـكلٍ كبـيرٍ ليسـوع. أعتقدُ أنَّه كان يعرفُ بأنَّه قد يكـونُ مُخطِئـاً في الواقـع. بعـد ذلـك كلِّـهِ، بعـضُ النـاسِ ممَّن يُصدِّقُ بشيءٍ من هـذا القبيـل قـد ينتهـي بـه المطـافُ ليُصـبِحَ مثـل الرَّجُل الذي يعتقدُ بأنَّه إبريـقٌ مـن الشَّـاي. أعتقـدُ أنَّ يسـوع كـان يعـرفُ أنَّ تلـك كانـت هـي دعوتُـهُ، وأنَّـه يجـبُ أنْ يتصـرَّفَ بتلـك الطَّريقـة، ليعـيشَ ويعمَلَ علىٰ أسـاسِ تجسـيد عـودة إلـه إسرائيـل إلىٰ شـعبِهِ. لهـذا السَّـبب أودُّ أنْ أقـول: إنَّ يسـوع، بعـد موتِـهِ وقيامِـهِ (وهـذه قصَّـةٌ مختلفـةٌ تمامـاً. سـنأتي إليها قريباً) سُرْعانَ ما تـمَّ تشخيصُـهُ مـن قِبَـلِ أتباعِـهِ علىٰ أنَّـه المُجسِّـد لإلـهِ إسرائيـل. واجهـوا قيامَـهُ، وعـادوا بعـدَ ذلـك في عقـولِهِم، اسـترجعوا كـلَّ الأشـياء التـي شـاهدوها، وسَـمِعُوها، وعرَفوهـا عـن يسـوع، وبمجـرَّد أنْ حَدَثَ ذلك، صـفعوا وجـوهَهُم وقـالوا: (هـل شخَّصْـتُم مـع مـن كُنْـتُم كـلّ هـذا الوقـت؟ لقـد كُنَّـا مـع شـخصٍ تجسَّـدَ فيـه إلـهُ إسرائيـل). ثـمَّ راحـوا يحكـونَ القصَـصَ مـراراً عـن يسـوع بشـيءٍ مـن الرَّهبـةِ والهَلَـع والإدراك المتأخِّر، وتأمَّلُوا فيما كان يحدُثُ طوالَ ما مضىٰ من الوقت.

هـذه فكـرةٌ اسـتثنائيةٌ جبَّـارة. ومـع ذلـك، فـإنَّ هـذه الفكـرةَ تُعطـي معنـىٰ عميقـاً ومتجـذِّراً تاريخيـاً لطريقـةِ رؤيـة يسـوع لنفسِـهِ. الآن بالتأكيـد يمكـنُ لأيِّ شـخصٍ أنْ يقـولَ لي: (حسـناً، قـد تكـون علىٰ حـقٍّ. قـد يكـون يسوع بالفعل نظَرَ إلىٰ نفسِهِ علىٰ هـذا النحـو. وقـد يكـون تلاميـذُهُ انتهـوا إلىٰ التفكـيرِ بـذلك أيضـاً. لكـن مـن الواضـح أنَّ المسـيحَ كـان مخطئـاً، إمَّـا لأنَّنـا نعلَمُ قَبْليّاً بأنَّه إذا كان هنـاك إلـهٌ فإنَّـه لا يمكـنُ أنْ يكـونَ إنسـاناً، وإمَّـا لأنَّنـا نعلَمُ قَبْليّاً بأنَّ أيَّ شخصٍ يعتقدُ تجاهَ نفسِـهِ أنَّـه واقعـاً هكـذا يجب أنْ يكـونَ مجنوناً أو مختلاً عقلياً أو مخدوعاً).

لهـؤلاءِ أُريـدُ أنْ أقـول: حسـناً، علِّقـوا هـذه القَبْليَّـات للحظـةٍ، وحـاولوا فقـط أنْ تستحضـروا صـورةَ يهـود القَـرْن الأوَّل وهـم يعتقـدونَ ويتصرَّفونَ علىٰ هـذا أسـاسِ مـا ذكـرْتُ. وبعـد ذلـكَ اطْرحـوا السُّـؤالَ عـن قيامـةِ المسيح. وبعـدها اطْرحـوا جميـعَ أسـئلتكُم الأُخـرىٰ عـمَّا نعنيـهِ بكلمـةِ (إله). لأنَّ المسـيحيِّين الأوائـل قـالوا عـلىٰ نحـوٍ مُؤكَّـدٍ بـأنَّ كلمـةَ (الإلـه) لا زالـت غامضـة، وأنَّهـا تصبحُ واضـحةً فقـط عنـدما ننظُـرُ إلىٰ يسـوع. يقـولُ يوحنَّا: (لم يرَ أحـدٌ الإلـهَ في أيِّ وقـتٍ، ولكـن الابـنُ الوحيـدُ المولـود، الـذي يعـيشُ في حُضْـنِ الأب، هـو الـذي جعلَـهُ معروفـاً). وفقـاً للُّغـةِ اليونانيـة، فإنَّ المعنىٰ الحرفي لهذا الكلام: (هو قَدَّمَ لنـا تفسـيراً للإلـه، هـو أرانـا مـن هـو الإلهُ واقعاً).

إنَّـه جـوابٌ طويـلٌ لسـؤالٍ حيـوي، لكـن لا أعتقـدُ أنَّ بإمكـاني اختصارهُ أكثـرَ مـن ذلـك. معظـمُ النـاسِ، حسـب خبرتِنـا، لا يُفكِّـرونَ مـن خلالِ السُّؤال بالمسيحِ والإلهِ بهـذه الطَّريقـة. ولكـن هـذه هـي الطَّريقـة، كـما أعتقد، التي فكَّـرَ بهـا المسيحُ بنفسِـهِ والمسـيحيون الأوائـل، وكـذلك أُولئـكَ الذين كتبـوا الأناجيـل، ومـن المناسـبِ أنْ نجعَـلَ عقولَنـا تـدورُ حـول هـذه الطَّريقة[1].

(١) لو قطعنا النظر عن المحـاذيرِ العقلية للادِّعـاء بـأنَّ يسـوع هـو إلـهٌ مُتجسِّـد، يبقـىٰ اسـتدلال رايـت عـلىٰ ذلـك ضـعيفٌ للغايـة، مـن جهـاتٍ عـدَّة. ويكفـي أنْ نعـرف أنَّ التعـاليم الكرسـتولوجية (حقيقـة المسـيح) التـي يقـول بهـا المسـيحيون لم تتبلـور إلَّا عـبْرَ قـرونٍ طويلـة، وكانـت ثمـرة المـؤتمرات والمجـامع المسـكونية التـي عُقِـدَت منـذ القـرن الرابـع المـيلادي. أي إنَّ هـذه التعـاليم لم تظهـر في زمـن المسـيح ولا بعـده. ومـن يعتقـد أنَّ المسـيح أو تلامذتـه قـد أشـاروا إلىٰ لاهوتـه وبُنُوَّتـهِ وتجسُّـدِ الإلـه فيـه، لا يملكـون الأدلَّـة الكافيـة لإثباتِ ذلـك. بـل المتتبِّع لأناجيـل العهـد الجديـد بشـكلٍ دقيـق يلاحـظُ أنَّهـا تنـادي بعكـس

* * *

ذلك (باستثناء إنجيل يوحنَّا الذي كُتِبَ بعد عقدين أو ثلاثة من كتابةِ الأناجيل الثلاثة: متّىٰ، مرقس، لوقا)، وتُثبِت بأنَّ المسيحَ إنسانٌ مرسَلٌ من قِبَلِ الله إلىٰ بني إسرائيل، يُذِّكرهم بشريعةِ آبائهم.

والذي يتتبَّع التاريخ في القرنين الأوَّلين من ميلادِ المسيح، يجد أنَّ الاعتقادَ بإلهٍ واحدٍ هو أساسُ الدِّين المسيحي، وأنَّ المسيحَ هو نبيٌّ مرسَلٌ إلىٰ بني إسرائيل. ولكن مع بدايةِ اعتناق شعوب شتَّىٰ من الوثنيين اليونان وغيرهم من الرُّومان والمصريين لهذا الدِّين، وكانت الوثنية قد تأصَّلت فيهم، نشأت فِرَق ومذاهب مختلفة، تعتقد كلٌّ منها في حقيقةِ المسيح وشخصيتهِ رأياً يخالفُ الأُخرىٰ. وقد أدَّت هذه الاختلافات، وفي أحيانٍ كثيرة، إلىٰ قتلِ وتشريدِ الكثير من آباءِ الكنيسة، وظهر الحرمانُ واللَّعنُ والتكفيرُ والاتِّهامُ بالهرطقةِ في أوساط المذاهب المسيحية المختلفة، وأحياناً كان سببُ هذه الاضطهادات هي المجامع المسكونية نفسها. وفي خضمِّ هذه الفوضىٰ العقائدية، التي ظهرت في أهمِّ عقيدة في الدِّين المسيحي، استطاعت الكنيسة بسطوتِها وقوَّتِها، أنْ تفرض عقيدة لاهوت المسيح وبُنُوَّتهِ ومساواتهِ للأب في الطبيعةِ والجوهر.

لمزيد من المعلومات، راجع:

لا هوت المسيح لعليٰ الشيخ/ مركز الأبحاث العقائدية/ مؤسَّسة الرافد للمطبوعات/ ٢٠٠٩م/ ط ١/ قم/ إيران.

Bart Ehrman, Lost Christianities, Oxford University Press, ٢٠٠٣.

Bart Ehrman, JESUS BEFORE THE GOSPELS, Harper One, New York, ٢٠١٦. (المراجع).

ما هي الأدلَّةُ المتوفِّرة على قيامةِ يسوع؟

دعوني أختصر قَدْرَ الإمكان. لقد قرأ والدي كتابي المُطوَّل (قيامةُ ابنِ الإله The Resurrection of the Son of God) عندما كان في الثالثة والثمانين من عمرِهِ. استغرقَتْ منه قراءةُ الكتابِ المُكوَّن من (٧٠٠) صفحة ثلاثةَ أيّام. لقد رَكَّزَ علىٰ قراءةِ الكتاب بشكلٍ كاملٍ خلالَ هذه الأيّام، دون أنْ ينشغل بشيءٍ آخر، وبعدها اتَّصَلَ بي هاتفياً وقالَ لي: (لقد انتهيتُ من قراءةِ الكتاب)، فتعجَّبْتُ من ذلك. فقال: (نعم لقد قرأتُهُ، وقد بدأتُ استمتعُ بقراءتِهِ بعد الصَّفحة رقم ٦٠٠). اعتقدْتُ أنَّ كلامَهُ لا يخلو من المجاملةِ الفاترة. لقد اعتادَ والدي علىٰ العمل في صناعةِ الأخشاب. قُلْتُ لوالدي: (هل تعلم يا أبي أنَّ الصَّفحات الخمسمائة هي جذْرُ النِّظام (root system). وأنَّ الشَّجرةَ إنْ لم يكن لها جذرٌ، فإنَّها لن تكون قادرةً علىٰ الانتصاب ولن تُعطي أيَّةَ ثمرة؟). ردَّ والدي قائلاً: (لقد أدركتُ ذلك، لكنِّي أُفضِّلُ دائماً الفروعَ العُلْيا من الشَّجرة).

لذا أنا بحاجةٍ للعودةِ إلىٰ الحديثِ عن جذْرِ النِّظام (root system) قليلاً. من الأُمورِ التي استمتعْتُ بها عند تأليفِ الكتاب، كان هو العودة إلىٰ الأُسُسِ التقليدية والبحث عن معتقداتِ الحياة بعد الموت، عند اليونانيِّين والرُّومانيِّين والمِصْريِّين. وهناك تنوُّعٌ كبيرٌ في المعتقداتِ بهذا

الشَّأن، ولكن الاعتقادُ بـ (القيامةِ) ليس موجوداً في العالَمِ اليوناني والرُّوماني. في الحقيقةِ، يقولُ بليني (Pliny)، وإسخيلوس (Aeschylus)، وهوميروس (Homer)، وشيشرون (Cicero)، وجميعُ أنواع الكُتَّاب الأوائل بأنَّنا (نعرِفُ بالتأكيد أنَّ القيامةَ لا تحدُثُ). الآن، في الوقتِ نفسِهِ، طوَّرَ اليهودُ اعتقاداً لاهوتياً مُحدَّداً عن القيامة: وهو (أنَّ شعبَ الإلهِ سوف يُبْعَثُ في آخرِ الزَّمان جسدياً إلىٰ الحياةِ بعد موتِهِ). عاملُ الوقتِ مهمٌّ للغاية، لأنَّ معظمَ المسيحيِّين في العالَمِ الغربي يستخدمون كلمة (قيامة resurrection) بشكلٍ غامضٍ علىٰ أنَّها تعني (الحياة بعد الموت)، وهو ما لم يحدُث أبداً في العالَمِ القديم. لقد كان المُصْطَلَحُ علىٰ الدَّوامِ مُحدَّداً جدَّاً، وهو ما أُسمِّيه الحياة (بعد) موتٍ سبقَهُ حياة.

بعبارةٍ أُخرىٰ: أنتَ أوَّلاً تموت، أنتَ ميِّتٌ وغيرُ حيٍّ جسَديَّاً، وبعد ذلك (تقوم) (تُبعَث)، بمعنىٰ أنَّكَ تعيشُ حياةً جسديةً جديدة، وهي حياةٌ جديدةٌ (بعد) موتٍ مسبوقٍ بحياة.

نستطيعُ تعقُّب الطَّريقة التي يُتكلَّم بها عن معتقدِ (القيامة) في الدِّينِ اليهودي. القيامةُ هي سلسلةٌ من مرحلتين: بعد موتِكَ مباشرةً (أنتَ) تدْخُلُ في مرحلةِ انتظار[1]؛ وبعد ذلك تنتقلُ إلىٰ مرحلةِ حياةٍ جديدةٍ تماماً تُسمَّىٰ (القيامة). الآن، في الكتابِ الذي استمتَعْتُ بكتابتِهِ، رسَمْتُ خريطةً عن المعتقداتِ اليهودية في موضوعِ الحياة بعد الموت علىٰ ضوءِ خريطةٍ أكبر من المعتقداتِ القديمة لموضوعِ الحياة بعد الموت. وهناك ضمن الدِّين اليهودي نفسه تبايُنات بهذا الخصوص.

---

(١) وهي عقيدة مشابهة لعقيدة عالم البرزخ عند المسلمين.

الفريسـيون (Pharisees)[1] آمنـوا بالقيامـةِ، ويبـدو أنَّ هـذا كـان هـو اعتقـادُ الأغلبيـةِ في فلسـطين اليهوديـة في زمـنِ يسـوع. الصَّـدوقيون (Sadducees)[2] لم يؤمنـوا بالحيـاةِ بعـد المـوتِ علىٰ الإطـلاق، وبالتأكيـد لم يعتقـدوا بالقيامـة. وقـد اعتقـدَ أشـخاصٌ مثـل فيلـون وربَّـما الأسـينيون (وهـذا محـلُّ جـدل) بحيـاةٍ روحيـةٍ (غـير جسـدية) خالـدةٍ واحـدة، بحيـث أنَّـكَ بعـد المـوتِ تـذهبُ إلىٰ حيـثُ تـذهب وتبقـىٰ هنـاك، بـدلاً مـن أنْ تمُـرَّ بخبرةِ (القيامة) اللاحقة[3].

هـذا هـو أكثـرُ مـا يثـيرُ الاهـتمام، لأنَّـه في كـلِّ المجتمعـات التـي خضعت للدِّراسةِ بهذا الصَّـدَد، تجـدُ النـاسَ في معتقـداتِ الحيـاة بعـد المـوت محـافظين جـدَّاً. وفي مواجهـةِ المـوت، يميـلُ النـاسُ إلىٰ المعتقـداتِ والممارسـاتِ التـي يعرفونهـا، التـي أخـذوها عـن عـوائلِهم ومـن عـاداتِهِم ومن قُراهُم، وهكذا تتمُّ طُقُـوسُ الـدَّفن. لـذا فإنَّـه مـن اللافـتِ للنَّظَـرِ حقَّـاً أنَّ المسيحيِّين الأوائل المعـروفين لـدينا، حتَّىٰ نهايـة القَـرْن الثـاني عنـدما بـدأ

---

(١) الفريسـيون أحـد الأحـزاب السياسـية الدينيـة التـي بـرزت خـلال القـرن الأوَّل داخـل المجتمـع اليهـودي في فلسـطين؛ يعـود أصـل المصـطلح إلىٰ اللغـة الآراميـة ويشـير إلىٰ الابتعاد والاعتـزال عـن الخـاطئين؛ كـان الفريسـيون يتبعـون مـذهباً دينيـاً متشـدِّداً في الحفـاظ علىٰ شريعـة موسـىٰ والسـنن الشـفهية التـي اسـتنبطوها. كـان الفريسـيون علىٰ خـلاف دائـم مع الصدوقيين الذين أنكروا القيامة والملائكة والأرواح.

(٢) الصـدوقيون هـم أحـد الأحـزاب الدينيـة السياسـية التـي نشـأت ضـمن الـدين اليهـودي وذكـرت في العهـد الجديـد؛ فمـن المعـروف أنَّـه خـلال القـرن الأوَّل قبـل المـيلاد، انقسـم المجتمـع الـديني اليهـودي إلىٰ عـدد مـن الأحـزاب والجماعـات السياسـية داخـل المؤسَّسـة الدينية، وقد كان أكبر حزبين هما الصدوقيون والفريسيون.

(٣) بمعنىٰ عدم وجود حياة برزخية.

الغنوصيون (Gnostics)[١] باستخدامِ كلمة (القيامة) بمعنىً مختلفٍ تماماً، فإنَّ كلَّ المسيحيِّين الأوائل المعروفين لدينا، خلال الأجيال الأربعة أو الخمسة الأُولىٰ، اعتقدوا بقيامةٍ بنحوٍ جسَديٍّ في المستقبل، رغمَ أنَّ أغلبَهُم جاءَ من عالَمٍ وثني، كانت فكرةُ القيامة تعتبرُ فيه هراءاً مُطلقاً.

هناك أُسطورةٌ حديثةٌ تدورُ هذه الأيّام تقولُ: إنَّنا نحنُ فقط من يمتلكُ عِلْماً معاصراً لفترةِ ما بعد التنوير[٢]، الذي اكتشفَ أنَّ الأمواتَ لا يُبْعثون. هؤلاء الناس السَّابقون إذن، كانوا فقراء في المعرفة وغير مُتنوِّرين، لذا اعتقدوا بكلِّ تلك المعجزات المجنونة. لكن هذا باطلٌ. هناك نصٌّ جميلٌ لـ سي. إس. لويس (C. S. Lewis) مُتعلِّقٌ بهذا الموضوع. كان يتكلَّم عن حَمْلِ العذراء بالمسيح، وأنَّ سبَبَ قلق يوسف (Joseph)[٣] بشأنِ حَمْل مريم، ليس لأنَّه لم يكن يعلم من أينَ جاءَ هذا الحَمْل، بل كان يعلَم مصْدَرهُ. وكذلك الحالُ مع قيامةِ المسيح. فالناسُ في العالَمِ القديم كان يَشْعرونَ بالاضطراب عندما يُواجِهُونَ الادِّعاء المسيحي، لأنَّهم كانوا يعتقدون بنحوٍ كاملٍ بأنَّ من يموت يظلُّ ميِّتاً إلىٰ الأبد.

وماذا نجدُ بعد ذلك - وهذا بالنِّسبةِ لي هو ما يثيرُ دهشتي إلىٰ أقصىٰ درجة - هو ما يمكن تعقُّبهُ، في المسيحيةِ المبكِّرة، من تعديلاتٍ

---

(١) الغنوصية (أو العارفية أو العرفانية) هي مدرسة عقائدية أو فلسفية حلولية نشأت حول القرن الأوَّل الميلادي. أخذت الغنوصية طوراً جديداً لدىٰ ظهور المسيحية لإثبات تواؤم المعتقدين. وكانت لا تتعارض مباشرةً مع الديانات التوحيدية كالمسيحية واليهودية ولكنَّها تمَّ مقاومتها وقمعها من قِبَل الكنيسة منذ فترة مبكرة.

(٢) عصر التنوير ويُسمّىٰ عصر الأنوار (بالفرنسية: Siècle des Lumières) مصطلح يشير إلىٰ القرن الثامن عشر في الفلسفة الأُوروبية والذي برز فيه مفكِّرون وفلاسفة الأنوار.

(٣) المقصود يوسف النجَّار، الذي كان - وفقاً للأناجيل - خطيباً للعذراء مريم. (المراجع).

مُتعدِّدةٍ في الاعتقادِ اليهودي التقليدي بما يتعلَّق بالقيامة.

أوَّلاً: أنَّه بدلاً من قيامةٍ ستقعُ لجميعِ شعب الإله في النِّهاية، فإنَّ المسيحيِّين الأوائل قالوا: إنَّ القيامةَ تختصُّ في البدايةِ برجُلٍ واحدٍ فقط. الآن، لا يوجد يهوديٌّ في القَرْنِ الأوَّل، في حدودِ معرفتِنا باليهود، كان يعتقدُ بأنَّ القيامةَ مختصَّةٌ برجُلٍ واحدٍ يُبعَثُ قبل كلِّ البشر. ورغمَ أنَّ الفكرةَ جديدةٌ، إلَّا أنَّ الجميعَ اعتقدَ بها.

ثانياً: أنَّهم اعتقدوا أنَّ القيامةَ تنطوي علىٰ (تحوُّلٍ) للجسَدِ الفيزيائي. هؤلاء اليهود الذين اعتقدوا بالقيامة، يبدو أنَّهم ذهبوا في اتِّجاهين: فالبعضُ قالَ: إنَّ القيامةَ ستخلُقُ جسداً جديداً مشابهاً تماماً لما نحنُ عليه، في حين ذهبَ آخرونَ إلىٰ أنَّ هذا الجسدَ سيكونُ جسداً نورانياً، يُضيءُ مثل النَّجم. المسيحيون الأوائل لم يقولوا بأيٍّ من هذين القولين. وإنَّما تكلَّموا عن نحوٍ جديدٍ من الفيزيائية (physicality) – وهذا واضحٌ جدَّاً من بولس، لكن ليس وحدَهُ – عن نمطٍ جديدٍ من التجسُّد (embodiedness)، فهو بالتأكيد جسَدٌ بمعنىٰ أنَّه جمادٌ وله حَجْم، لكن يبدو أنَّه قد تحوَّلَ لذا لم يعُد الآن يُحسُّ بالألمِ أو المعاناةِ او الموت. تلك الصُّورةُ للقيامةِ ليست موجودةً في اليهودية.

ثالثاً: أنَّهم اعتقدوا أنَّ المسيحَ نفسَهُ قد بُعِثَ من جسدٍ ميِّتٍ، وهو ما لم يعتقد به يهودُ الهيكل الثاني (Second Temple)، لأنَّ يهودَ الهيكل الثاني كانوا يعتقدون أنَّ المسيحَ لن يُقتَلَ أبداً. لذا هذا كان أمراً جديداً.

رابعاً: هم يستخدمونَ فكرةَ (القيامة) بطريقةٍ جديدةٍ تماماً. في اليهوديةِ، تمَّ استخدامُ هذه الفكرة في استعارةِ (مجاز metaphor) (العودة

من المنفى)، كما نجدُها في سِفْر حزْقيال (Ezekiel)، الإصحاح (٣٧)[١]. ولكن في المسيحيةِ المبكِّرة - وأعني هنا المسيحية المبكِّرة جدًّا، على سبيلِ المثال، بولس - نجدُ أنَّ هذه الفكرةَ تمَّ استخدامُها وربطُها بالتعميدِ (baptism)[٢]، والقداسةِ (holiness)، ومفاهيم أُخرىٰ من المسيحيةِ الحيَّةِ

---

(١) ورد في الإصحاح (٣٧) من هذا السفر: (كَانَتْ عَلَيَّ يَدُ الرَّبِّ، فَأَخْرَجَنِي بِرُوحِ الرَّبِّ وَأَنْزَلَنِي فِي وَسْطِ الْبُقْعَةِ وَهِيَ مَلآنَةٌ عِظَامًا، وَأَمَرَّنِي عَلَيْهَا مِنْ حَوْلِهَا وَإِذَا هِيَ كَثِيرَةٌ جِدًّا عَلَىٰ وَجْهِ الْبُقْعَةِ، وَإِذَا هِيَ يَابِسَةٌ جِدًّا. فَقَالَ لِي: «يَا ابْنَ آدَمَ، أَتَحْيَا هذِهِ الْعِظَامُ؟»، فَقُلْتُ: «يَا سَيِّدُ الرَّبُّ أَنْتَ تَعْلَمُ». فَقَالَ لِي: «تَنَبَّأْ عَلَىٰ هذِهِ الْعِظَامِ وَقُلْ لَهَا: أَيَّتُهَا الْعِظَامُ الْيَابِسَةُ، اسْمَعِي كَلِمَةَ الرَّبِّ: هكَذَا قَالَ السَّيِّدُ الرَّبُّ لِهذِهِ الْعِظَامِ: هأَنَذَا أُدْخِلُ فِيكُمْ رُوحًا فَتَحْيَوْنَ. وَأَضَعُ عَلَيْكُمْ عَصَبًا وأَكْسِيكُمْ لَحْمًا وَأَبْسُطُ عَلَيْكُمْ جِلْدًا وَأَجْعَلُ فِيكُمْ رُوحًا، فَتَحْيَوْنَ وَتَعْلَمُونَ أَنِّي أَنَا الرَّبُّ».

فَتَنَبَّأْتُ كَمَا أُمِرتُ. وَبَيْنَمَا أَنَا أَتنبَّأُ كَانَ صَوْتٌ، وَإِذَا رَعْشٌ، فَتَقَارَبَتِ الْعِظَامُ كُلُّ عَظْمٍ إِلَىٰ عَظْمِهِ. ونَظَرْتُ وَإِذَا بِالْعَصَبِ وَاللَّحْمِ كَسَاهَا، وبُسِطَ الْجِلْدُ علَيْهَا مِنْ فَوْقُ، وَلَيْسَ فِيهَا رُوحٌ. فَقَالَ لِي: «تَنَبَّأْ لِلرُّوحِ، تَنَبَّأْ يَاابْنَ آدَمَ، وَقُلْ لِلرُّوحِ: هكَذَا قَالَ السَّيِّدُ الرَّبُّ: هَلُمَّ يَا رُوحُ مِنَ الرِّيَاحِ الأَرْبَعِ وَهُبَّ عَلَىٰ هؤُلاَءِ الْقَتْلَىٰ لِيَحْيَوْا». فَتَنَبَّأْتُ كَمَا أَمَرَنِي، فَدَخَلَ فِيهِمِ الرُّوحُ، فَحَيُوا وَقَامُوا عَلَىٰ أَقْدَامِهِمْ جَيْشٌ عَظِيمٌ جِدًّا جِدًّا.

ثُمَّ قَالَ لِي: «يَا ابْنَ آدَمَ، هذِهِ العِظَامُ هِيَ كُلُّ بَيتِ إِسْرَائِيلَ. هَا هُمْ يَقُولُونَ: يَبِسَتْ عِظَامُنَا وَهَلَكَ رَجَاؤُنَا. قَدِ انْقَطَعْنَا. لِذلِكَ تَنَبَّأْ وَقُلْ لَهُمْ: هكَذَا قَالَ السَّيِّدُ الرَّبُّ: هأَنَذَا أَفتَحُ قُبُورَكُمْ وأُصْعِدُكُمْ مِنْ قُبُورِكُمْ يَا شَعْبِي، وَآتِي بِكُمْ إِلَىٰ أَرْضِ إِسْرَائِيلَ. فَتَعْلَمُونَ أَنِّي أَنَا الرَّبُّ عِنْدَ فَتْحِي قُبُورَكُمْ وَإِصْعَادِي إِيَّاكُمْ مِنْ قُبُورِكُمْ يَا شَعْبِي. وأَجْعَلُ رُوحِي فِيكُمْ فتَحْيَوْنَ، وَأَجْعَلُكُمْ فِي أَرْضِكُمْ، فَتَعْلَمُونَ أَنِّي أَنَا الرَّبُّ تَكَلَّمْتُ وَأَفْعَلُ، يَقُولُ الرَّبُّ» (١ - ١٤). (المراجع).

(٢) التعميد أو المعمودية هي طقس مسيحي يُمثِّل دخول الإنسان الحياة المسيحية. تتمثَّل المعمودية باغتسال المعمَّد بالماء بطريقة أو بأُخرىٰ. الشخص الذي يجري تعميده يصبح تابعاً ليسوع المسيح وتابعاً للكنيسة المسيحية. والعماد يُمثِّل موت يسوع المسيح وقيامته في الحياة الجديدة. أيضاً الطفل المعمَّد يُخلَّص من الخطيئة الأصلية التي هي خطيئة آدم

التي لم تكـن في بـالِ اليهوديـة واسـتخداماتِها لكلمـةِ (قيامـة). ومـرَّة أُخـرىٰ، تظهرُ فكرةٌ جديدةٌ تماماً، وتغـيُّرٌ مهـمٌّ في شـكلِها كـما هـي مـن وجهـةِ النَّظَـر اليهودية.

خامساً: نجـدُ أنَّ (القيامـةَ) بالنِّسـبةِ للمسـيحيِّين الأوائـل تـأتي كـما لـو كانت شيئاً ما تجلَّىٰ الإلـهُ مـن خلالِـهِ للبشـر. والمسـيحيون مَـدْعوون للعمـلِ مع الإلـه لتحقيـقِ مـا انطلَـقَ في الفَصْـح (Easter)[١] ولتوقُّـع مـا سـيفعلُهُ إلـهُ العالَمَ الجديد في النِّهاية[٢]. وهـذه الفكـرةُ جديـدةٌ للغايـة، لكنَّهـا تُمثِّـلُ تطـوُّراً فقط في إطارِ الدِّين اليهودي.

سادسـاً: كـما نجـدُ في المسـيحيةِ المبكـرة، أنَّ (القيامـةَ) قـد انتقلـت مـن كونِهـا عقيـدةً مهمَّـةً مـن ضـمنِ عقائـد عديـدة مهمَّـة - كـما هـو الحـالُ في اليهوديـة - إلىٰ أنْ تُصبِـحَ مركـزَ كـلِّ شيء. اقتَطِعْهـا مـن بـولس، أو قُـلْ مـن بُطْرس، الوحي، أو آبـاء القَـرْن الثـاني العِظـام، سـتجدُ أنَّـكَ دمَّـرْتَ بنـاءهُم الفكري كلَّهُ. لا بدَّ أنْ نصلَ إلىٰ نتيجـةٍ مفادُهـا أنَّ شـيئاً مـا قـد حـدَثَ جعـلَ (القيامةَ) تنتقلُ من الإطارِ الخارجي إلىٰ المركز.

سـابعاً وأخـيراً: في المسـيحيةِ المبكِّـرة، لا نجـدُ طيفـاً للاعتقـادِ بـما يقـع

وحوّاء ويـدخل الحيـاة مـرَّة أُخـرىٰ كإنسـان جديـد. وبحسـب الاعتقـاد المسـيحي، فـإنَّ أوَّل عماد في التاريخ كان عماد المسيح علىٰ يد يوحنّا المعمَّدان في نهر الأُردن.

(١) عيـد القيامـة (باليونانيـة: Πάσχα)، ويُعـرَف بأسـماء عديـدة أُخـرىٰ أشـهرها عيـد الفصـح وأحـد القيامـة، هـو أعظـم الأعيـاد المسـيحية وأكبرهـا، يسـتذكر فيـه قيامـة المسـيح مـن بـين الأموات بعد ثلاثـة أيّـام مـن صـلبه وموتـه كـما هـو مسـطور في العهـد الجديـد، وفيـه ينتهـي الصـوم الكبـير الـذي يسـتمرُّ عـادةً أربعـين يومـاً؛ كـما ينتهـي أُسـبوع الآلام، ويبـدأ زمـن القيامة المستمرّ في السنة الطقسية أربعين يوماً.

(٢) هذه الفكرة شبيهة بمفهوم ليلة القدر الذي تُقدَّر فيه أعمال البشر.

بعـد المـوت. أمَّـا في اليهوديـةِ، فهنـاك وجهـاتُ نظَـرٍ متعـدِّدة، وفي العـالَمِ الوثني هناك أيضـاً عـددٌ كبـيرٌ مـن وجهـاتِ النَّظَـر بهـذا الخصـوص، ولكـن في بواكيرِ المسيحية لا نجدُ سوىٰ شيئاً واحداً: القيامةَ في ذاتِها.

مـن المسـلَّم بـه كـم أنَّ معظَـمَ النـاس شـديدو المحافظـة في آرائِهـم حـول الحيـاة بعـد المـوت، وهـذا بحـقٍّ مثـيرٌ للدَّهشـة. ولـذا يبـدو أنَّ المسـيحيِّين الأوائـل كـان لـديهم سـببٌ منطقـيٌّ لإعـادةِ التفكـير في هـذا الاعتقـاد الهـامّ والشَّخصـي جـدَّاً. وعنـدما ننظُـر إلىٰ الطَّيـفِ الفكـري لبواكيرِ المسيحية، نـرىٰ أنَّ المسيحيِّين الأوائـل قـد اختلفـوا في أُمـورٍ كثـيرة، إلَّا أنَّهـم أجمعـوا بصـورةٍ تثيرُ الدَّهشـة لـيس عـلىٰ القيامـةِ كاعتقـادٍ لهـم فحَسْب، بل أجمعـوا أيضـاً عـلىٰ كيفيـةِ حصـولِها وكيـف تحـدُثُ، وكـلُّ ذلـك شرحتُهُ في كتابي بالتفصيل.

كلُّ هذا يفـرِضُ علينـا كمُـؤرِّخين أنْ نسـألَ سـؤالاً سـهلاً جـدَّاً: لمـاذا أجمَـعَ المسـيحيون الأوائـل المعـروفين بالنِّسـبةِ إلينـا، منـذُ أقـدم الأزمـان، إجماعاً مُلْفتاً، علىٰ القيامةِ رغـمَ كونِهـا رؤيـة جديـدة؟ هـذا السُّـؤالُ التـاريخي مثيرٌ للاهتمام بحدِّ ذاتِـهِ. بالتأكيـد، سـوف يـرُدُّ المسـيحيون الأوائـل بـأسْرِهِم بـالقول: (لقـد كـان لـدينا هـذا الاعتقـاد بالقيامـةِ بسـبب مـا نـؤمن بـه تجـاهَ يسـوع). إنْ كانـت الفكـرةُ القائلـة بـأنَّ يسـوع بُعِـثَ مـن جسـدٍ ميِّـتٍ قـد ظهرت بعد عشـرين أو ثلاثـين سـنة مـن بدايـةِ المسيحية، كـما يقـول بعـضُ الباحثين المُشكِّكين، فإنَّكَ سـوف تعثُـر عـلىٰ الكثيرِ مـن الشَّـواهد التـي تُبـيِّن أنَّـه لم يكـن هنـاك مكـانٌ لفكـرةِ القيامـة في بـواكيرِ المسيحية، أو إذا وُجِـدَت شواهدُ علىٰ فكـرةِ القيامـة، فسـتجدُ أنَّ لهـا شـكلاً آخـرَ يختلـفُ عـن الفكـرةِ المُحدَّدةِ جدَّاً التي تجدُها في المسـيحيةِ المبكِّـرة. لـذلك، فـإنَّ إجمـاع المسـيحيين

الأوائل علىٰ الاعتقادِ بالقيامة علىٰ نطاقٍ واسع، يدفعُنا إلىٰ القولِ بأنَّ شيئاً ما مُحدَّداً قد (حَدَثَ) قبلَ ذلك بوقتٍ طويلٍ ممَّا شكَّلَ وصَبَغَ التحرُّك المسيحي ككُلٍّ.

عند تلك النُّقطة لا بدَّ من القول: (حسناً وماذا عن قصَصِ الإنجيل؟ ماذا عن الإصحاح الثامن والعشرين من إنجيل متَّىٰ (Matthew)[١]، وماذا عن القصَّةِ الواردة في الإصحاحِ السَّادس عشر من إنجيل مرقس (Mark)[٢]؟ وماذا عن القصَّةِ الأطول منها الواردة في الإصحاح الرَّابع والعشرين من إنجيل لوقا (Luke)[٣]؟ وماذا عن القصَّتين الأطول الواردة في الإصحاحِ العشرين والواحد والعشرين من إنجيل يوحنّا (John)[٤][١]؟ وبطبيعةِ الحال، ومثل باقي علماء

---

(١) إنجيل البشير متّىٰ (حرفياً (نُسِبَت إلىٰ الرسول متّىٰ)). هذا الإنجيل هو أحد الأناجيل الأربعة التي هي ضمن العهد الجديد الكتاب الذي يعتمده المسيحيون في حياتهم. الأناجيل الأربعة التي هي ضمن العهد الجديد من الكتاب المقدَّس، والتي تمَّ طباعتها بصورة تقليدية ابتداء من: متّىٰ، ويليه وبحسب الترتيب مرقس ولوقا ومن ثَمَّ يوحنّا. إنجيل متّىٰ يُسمّىٰ تقليدياً بإنجيل متّىٰ البشير أو المبشِّر.

(٢) إنجيل البشير مرقس تقليدياً هو الإنجيل الثاني في تسلسل الأناجيل الأربعة في العهد الجديد من الكتاب المقدَّس للمسيحيين، ويسمىٰ إنجيل مرقس البشير أو المبشِّر. يشرح ويحكي هذا الإنجيل عن حياة المسيح ابتداءً بيوحنّا المعمَّدان إلىٰ صعود المسيح إلىٰ السماء بعد قيامته من بين الأموات، لكن إنجيل مرقس يُركِّز بالخصوص علىٰ الأُسبوع الأخير من حياة المسيح.

(٣) إنجيل البشير لوقا، يسرد إنجيل لوقا حياة السيِّد المسيح، مماته وقيامته. وإنَّ كاتب هذا الإنجيل وأعمال الرسل هو ليس واحد، لكن بحسب التقليد تُنسَب كتابة أعمال الرسل إلىٰ لوقا.

(٤) إنجيل البشير يوحنّا هو رابع إنجيل من الأناجيل التشريعية في العهد الجديد من

الإنجيل، أعتقدُ أنَّ هـذه الإصـحاحات قـد كُتِبَـت بعـد فـترةٍ طويلـة[٢]. وأنـا في الواقـعِ لا أعـرفُ متـىٰ كُتِبَـت الأناجيـل. لا أحـد يعـرِفُ ذلـك، بـالرَّغمِ من أنَّ العلماءَ لا يكُفُّونَ عـن القـولِ لنـا بـأنَّهم يعرفـون. هـذه الإناجيـل ربَّـما تكون قـد كُتِبَـت في أوائـلِ الخمسينات مـن القَـرْنِ الأوَّل، وبعضُـهُم يقـول: إنَّها كُتِبَت قبـلَ ذلـك. كـما يمكـن أنْ تكـون قـد كُتِبَـت في وقـتٍ متـأخِّرٍ مـن السَّـبْعينات أو الثَّمانينـات، وبعضُـها ربَّـما كُتِـبَ حتَّـىٰ في التِّسـعينات مـن القَـرْن الأوَّل. ولكـن فـيما يخُـصُّ حُجَّتـي، هـذا الأمـرُ لا يعنـي شـيئاً عـلىٰ الإطلاق[٣].

الكتـاب المقـدَّس للمسـيحيين، وتقليـدياً يُسـمّىٰ بإنجيـل يوحنّـا البشـير أو المبشِّـر. القـدّيس يوحنّـا هـو كاتـب هـذا الإنجيـل في الإيـمان المسـيحي، وهـذا الإنجيـل مقدَّمتـه تشـهد بلاهوت يسوع المسيح كلمة الله.

(١) هـذه بأسرهـا هـي الإصـحاحات الأخـيرة في الأناجيـل الأربعـة، وهـي تتحـدَّث عـن أحداثِ ما بعد صَلْب يسوع، وما يتعلَّق بقيامته. (المراجع).

(٢) يعني بعد عقدين علىٰ أقلّ تقدير. (المراجع).

(٣) بل تعنـي الكثـير. فـإنْ كانـت الفجـوة التاريخيـة بـين وقـوع حادثـة القيامـة المزعومـة وكتابـة الأناجيـل لا تقـلُّ أبـداً عـن عقـدينِ مـن الزَّمـان، وقـد تطـولُ إلىٰ سـتَّة عقـود أو أكثـر. فهـذا يعنـي أنَّ قصَـصَ هـذه الأناجيـل (ومنهـا قصَّـة قيامـة يسـوع) اسـتمرَّ تناقلهـا الشَّـفقهي عشــرات السِّــنين، قبـل أنْ تُـدوَّن في أناجيـل لم تأخُـذ معلوماتهـا مـن شـهودٍ عيـان، ولا نعـرف مُـدوِّنِهَا بالتَّحديـد (فكُتَّابُهـا الأصـليّون مجهولـون، ولم تُنْسَـب لفـلانٍ أو فـلان إلَّا في وقـتٍ لاحـق، فـ آرانيـوس - في حـدود سنة (١٨٠م) - هـو أوَّلُ مـن نَسَـبَ ذلـك إلـيهم، أي بعد قـرنٍ مـن كتابتِهـا، بـل الأناجيـل نفسُـها لا تـدَّعي أنَّ كاتبَهـا هـو فـلان الـذي نُسِـبَ إليه كتابتُها لاحقاً)، ناهيك عن كونها متعارضة، وغير متَّسقة داخلياً.

بـل إنَّ هـذه الأناجيـل - كـما يؤكِّـد النُّقَّـاد المختصُّـون - كُتِبَـت في بلـدانٍ مختلفـة، وبلغـةٍ يونانيـةٍ فصـيحة، في حـين أنَّ تلامـذة يسـوع لغـتُهم آراميـة، ومسـتواهُم التعليمـي متواضـعٌ للغاية...، فمن أيـن اسـتقىٰ كُتَّابُهـا معلومـاتهم عـن قيامـةِ يسـوع!؟ مـن المستبعد جـدَّاً أنَّهـم

النُّقطةُ هي هذه: قصَّةُ القيامة في الإنجيل (وبقيَّةِ المصادر ذات الصِّلة، وفي مُقدِّمتِها أعمالُ الرُّسُل)، التي لها خواصٌّ محدَّدة ومشتركةٌ بين الأناجيلِ الأربعة، تُبرهِنُ تاريخياً، رغمَ أنَّها كُتِبَت في مرحلةٍ متأخِّرة، علىٰ أنَّها تعودُ إلىٰ الماضي بطريقةٍ لم تتعرَّض فيها إلىٰ تحريفٍ بدرجةٍ كبيرة، لقد تمَّ تحريرُها قليلاً ولكن لم يتمّ تحريفُها بنحوٍ أساسي، عن روايتِها المُبكِّرة الشَّفوية. وهذا أمرٌ، كما هو واضحٌ، بالغُ الأهمّية.

الخاصّيَّةُ الأُولىٰ: هي صورةُ يسوع في قصَّة القيامة. لقد قيل مراراً وتكراراً بأنَّ:

١ - إنجيل مرقس قد كُتب أوَّلاً، وأنَّه من الصعب أن تجد فيه شيئاً عن القيامة[1].

استقوها من شهودٍ عيان، والأرجح بقوَّة أنَّهم استقوها من قصص كانت متداولة شفوياً سنةً بعد أُخرىٰ، في جيلٍ بعد آخر، منقولةً من بلدٍ إلىٰ آخر...، ومن المعلوم قدر التحريف المحتمل بمرورِ الوقت في مثلِ هذه الحالة. (المراجع).

(١) هذه هي العبارات الواردة في إنجيل مرقس، المتعلِّقة بقيامة يسوع، ١٦: ١ - ٢٣: (وَبَعْدَمَا مَضَىٰ السَّبْتُ، اشْتَرَتْ مَرْيَمُ المَجْدَلِيَّةُ وَمَرْيَمُ أُمُّ يَعْقُوبَ وَسَالُومَةُ، حَنُوطًا لِيَأْتِينَ وَيَدْهَنَّهُ. وَبَاكِرًا جِدًّا فِي أَوَّلِ الأُسْبُوعِ أَتَيْنَ إِلَىٰ الْقَبْرِ إِذْ طَلَعَتِ الشَّمْسُ. وَكُنَّ يَقُلْنَ فِيمَا بَيْنَهُنَّ: «مَنْ يُدَحْرِجُ لَنَا الحَجَرَ عَنْ بَابِ الْقَبْرِ؟»، فَتَطَلَّعْنَ وَرَأَيْنَ أَنَّ الحَجَرَ قَدْ دُحْرِجَ! لأَنَّهُ كَانَ عَظِيمًا جِدًّا. وَلَـمَّا دَخَلْنَ الْقَبْرَ رَأَيْنَ شَابًّا جَالِسًا عَنِ الْيَمِينِ لاَبِسًا حُلَّةً بَيْضَاءَ، فَانْدَهَشْنَ. فَقَالَ لَهُنَّ: «لاَ تَنْدَهِشْنَ! أَنْتُنَّ تَطْلُبْنَ يَسُوعَ النَّاصِرِيَّ المَصْلُوبَ. قَدْ قَامَ! لَيْسَ هُوَ هاهُنَا. هُوَذَا المَوْضِعُ الَّذِي وَضَعُوهُ فِيهِ. لكِنِ اذْهَبْنَ وَقُلْنَ لِتَلاَمِيذِهِ وَلِبُطْرُسَ: إِنَّهُ يَسْبِقُكُمْ إِلَىٰ الجَلِيلِ. هُنَاكَ تَرَوْنَهُ كَمَا قَالَ لَكُمْ». فَخَرَجْنَ سَرِيعًا وَهَرَبْنَ مِنَ الْقَبْرِ، لأَنَّ الرِّعْدَةَ وَالحَيْرَةَ أَخَذَتَاهُنَّ. وَلَمْ يَقُلْنَ لأَحَدٍ شَيْئًا لأَنَّهُنَّ كُنَّ خَائِفَاتٍ. وَبَعْدَمَا قَامَ بَاكِرًا فِي أَوَّلِ الأُسْبُوعِ ظَهَرَ أَوَّلاً لِمَرْيَمَ المَجْدَلِيَّةِ، الَّتِي كَانَ قَدْ أَخْرَجَ مِنْهَا سَبْعَةَ شَيَاطِينَ).

٢ - إنجيل متّىٰ الذي جاء بعد إنجيل مرقس، لم يحتوِ كذلك علىٰ الكثير عن القيامة[1].

٣ - مع نهاية القرن، ظهر كلٌّ من إنجيل لوقا[2] ويوحنّا[1]،

أقول: من هو هذا الشَّابُّ اللابس حلَّة بيضاء؟ لا ندري. هل هو صادقٌ أم كاذب؟ لا ندري. وكيف نعرف أنَّ مريم المجدلية لم تكن في حالة هلوسة؟ لا ندري. (المراجع).

(١) هذه هي العبارات الواردة في إنجيل متّىٰ، المتعلِّقة بقيامة يسوع، ٢٨: ١ - ١٠: (وَبَعْدَ السَّبْتِ، عِنْدَ فَجْرِ أَوَّلِ الأُسْبُوعِ، جَاءَتْ مَرْيَمُ الْمَجْدَلِيَّةُ وَمَرْيَمُ الأُخْرَىٰ لِتَنْظُرَا الْقَبْرَ. وَإِذَا زَلْزَلَةٌ عَظِيمَةٌ حَدَثَتْ، لأَنَّ مَلاَكَ الرَّبِّ نَزَلَ مِنَ السَّمَاءِ وَجَاءَ وَدَحْرَجَ الْحَجَرَ عَنِ الْبَابِ، وَجَلَسَ عَلَيْهِ. وَكَانَ مَنْظَرُهُ كَالْبَرْقِ، وَلِبَاسُهُ أَبْيَضَ كَالثَّلْجِ. فَمِنْ خَوْفِهِ ارْتَعَدَ الْحُرَّاسُ وَصَارُوا كَأَمْوَاتٍ. فَأَجَابَ الْمَلاَكُ وَقَالَ لِلْمَرْأَتَيْنِ: «لاَ تَخَافَا أَنْتُمَا، فَإِنِّي أَعْلَمُ أَنَّكُمَا تَطْلُبَانِ يَسُوعَ الْمَصْلُوبَ. لَيْسَ هُوَ هاهُنَا، لأَنَّهُ قَامَ كَمَا قَالَ! هَلُمَّا انْظُرَا الْمَوْضِعَ الَّذِي كَانَ الرَّبُّ مُضْطَجِعًا فِيهِ. وَاذْهَبَا سَرِيعًا قُولاَ لِتَلاَمِيذِهِ: إِنَّهُ قَدْ قَامَ مِنَ الأَمْوَاتِ. هَا هُوَ يَسْبِقُكُمْ إِلَىٰ الْجَلِيلِ. هُنَاكَ تَرَوْنَهُ. هَا أَنَا قَدْ قُلْتُ لَكُمَا». فَخَرَجَتَا سَرِيعًا مِنَ الْقَبْرِ بِخَوْفٍ وَفَرَحٍ عَظِيمٍ، رَاكِضَتَيْنِ لِتُخْبِرَا تَلاَمِيذَهُ. وَفِيمَا هُمَا مُنْطَلِقَتَانِ لِتُخْبِرَا تَلاَمِيذَهُ إِذَا يَسُوعُ لاَقَاهُمَا وَقَالَ: «سَلاَمٌ لَكُمَا». فَتَقَدَّمَتَا وَأَمْسَكَتَا بِقَدَمَيْهِ وَسَجَدَتَا لَهُ. فَقَالَ لَهُمَا يَسُوعُ: «لاَ تَخَافَا. اِذْهَبَا قُولاَ لإِخْوَتِي أَنْ يَذْهَبُوا إِلَىٰ الْجَلِيلِ، وَهُنَاكَ يَرَوْنَنِي»).

أقول: من أين عرفت مريم المجدلية ومريم الأُخرىٰ أنَّ هذا الشَّاب اللابس حلَّة بيضاء هو ملاكٌ بالفعل كما يدَّعي؟ وكيف نعرف أنَّهما لم تكونا في حالةِ هلوسة وتوهُّم؟ لا ندري. وهل كانت مريم المجدلية لوحدها - كما مرَّ في إنجيل مرقس - أو كانت معها مريم أُخرىٰ؟ لا ندري. (المراجع).

(٢) هذه هي العبارات الواردة في إنجيل لوقا، المتعلِّقة بقيامة يسوع، ٢٤: ١ - ١١: (ثُمَّ فِي أَوَّلِ الأُسْبُوعِ، أَوَّلَ الْفَجْرِ، أَتَيْنَ إِلَىٰ الْقَبْرِ حَامِلاَتٍ الْحَنُوطَ الَّذِي أَعْدَدْنَهُ، وَمَعَهُنَّ أُنَاسٌ. فَوَجَدْنَ الْحَجَرَ مُدَحْرَجًا عَنِ الْقَبْرِ، فَدَخَلْنَ وَلَمْ يَجِدْنَ جَسَدَ الرَّبِّ يَسُوعَ. وَفِيمَا هُنَّ مُحْتَارَاتٌ فِي ذلِكَ، إِذَا رَجُلاَنِ وَقَفَا بِهِنَّ بِثِيَابٍ بَرَّاقَةٍ. وَإِذْ كُنَّ خَائِفَاتٍ وَمُنَكِّسَاتٍ وُجُوهَهُنَّ إِلَىٰ الأَرْضِ، قَالاَ لَهُنَّ: «لِمَاذَا تَطْلُبْنَ الْحَيَّ بَيْنَ الأَمْوَاتِ؟ لَيْسَ هُوَ هاهُنَا، لكِنَّهُ قَامَ! اُذْكُرْنَ كَيْفَ كَلَّمَكُنَّ وَهُوَ بَعْدُ فِي الْجَلِيلِ قَائِلاً: إِنَّهُ يَنْبَغِي أَنْ يُسَلَّمَ ابْنُ الإِنْسَانِ فِي

وعنـدها، وعنـدها فقـط وجـدنا قصـص أكـل يسـوع للسـمك المشـوي[٢]،

أَيْـدِي أُنَـاسٍ خُطَـاةٍ، وَيُصْـلَبَ، وَفِي الْيَـوْمِ الثَّالِـثِ يَقُـومُ». فَتَـذَكَّرْنَ كَلاَمَـهُ، وَرَجَعْـنَ مِـنَ الْقَبْرِ، وَأَخْبَرْنَ الأَحَدَ عَشَرَ وَجَمِيعَ الْبَـاقِينَ بِهـذَا كُلِّـهِ. وَكَانَـتْ مَـرْيَمُ الْمَجْدَلِيَّـةُ وَيُوَنَّـا وَمَـرْيَمُ أُمُّ يَعْقُوبَ وَالْبَاقِيَـاتُ مَعَهُـنَّ، اللَّـوَاتِي قُلْـنَ هـذَا لِلرُّسُـلِ. فَـتَرَاءَىٰ كَلاَمُهُـنَّ لَهُـمْ كَالْهَـذَيَانِ وَلَمْ يُصَدِّقُوهُنَّ).

أقـول: هنـا يبـدأ بشـكلٍ واضـح، التعـارُض بـين الأناجيـل، فلـو افترضـنا أنَّ المخـبر بقيامـةِ المسيح هو من الملائكـة، فهـل هـو رجـلٌ أبـيضٌ واحـد، كـما أخـبرَ إنجيـلُ مـرقس ومتّـىٰ، أم رجُـلان؟ وهـل كانـت مـريم المجدليـة لوحـدِها (كـما يظهـر مـن إنجيـل مـرقس) أم كانـت معهـا مـريم أُخـرىٰ أيضـاً (كـما يظهـر مـن إنجيـل متّـىٰ) أم كانـت معهـا يونـا ونسـوة أُخريـات؟ يـرىٰ علـماء الـدِّين المسيحي أنَّ هـذا التعـارض غـير مسـتقرٍّ، ويمكـن رفعُـهُ مـن خلال التوفيق بين العبارات بنحوٍ ما. (المراجع).

(١) هـذه هـي العبـارات الـواردة في إنجيـل يوحنّـا، المتعلّقـة بقيامـة يسـوع، ٢٠: ١ - ٢: (وَفِي أَوَّلِ الأُسْـبُوعِ جَـاءَتْ مَـرْيَمُ الْمَجْدَلِيَّـةُ إِلَىٰ الْقَـبْرِ بَـاكِرًا، وَالظَّـلاَمُ بَـاق. فَنَظَـرَتِ الْحَجَـرَ مَرْفُوعًـا عَـنِ الْقَـبْرِ. فَرَكَضَـتْ وَجَـاءَتْ إِلَىٰ سِـمْعَانَ بُطْـرُسَ وَإِلَىٰ التِّلْمِيـذِ الآخَـرِ الَّـذِي كَـانَ يَسُوعُ يُحِبُّهُ، وَقَالَتْ لَهُمَا: «أَخَذُوا السَّيِّدَ مِنَ الْقَبْرِ، وَلَسْنَا نَعْلَمُ أَيْنَ وَضَعُوهُ!»).

أقـول: لا ذكـر هنـا (قبـل إخبـار بطـرس والتلميـذ الآخـر) للملائكـة المخـبرين عـن قيامـة يسوع، كما لا ذكر لنساء أُخريات غير مريم المجدلية. (المراجع).

(٢) هـذه هـي عبـارات إنجيـل لوقـا، التـي تتحـدَّث عـن السَّـمك المشـوي ورؤيـة التلاميـذ ليسـوع بعـد حادثـة الصلـب والـدفن، الإصحاح ٢٤: ٤٢ و٤٣: (وَفِيـمَا هُـمْ يَتَكَلَّمُـونَ بِهـذَا وَقَفَ يَسُـوعُ نَفْسُـهُ فِي وَسْـطِهِمْ، وَقَـالَ لَهُـمْ: «سَـلاَمٌ لَكُـمْ!» فَجَزِعُـوا وَخَـافُوا، وَظَنُّـوا أَنَّهُـمْ نَظَـرُوا رُوحًـا. فَقَـالَ لَهُـمْ: «مَـا بَـالُكُمْ مُضْـطَرِبِينَ، وَلِمَـاذَا تَخْطُـرُ أَفْكَـارٌ فِي قُلُـوبِكُمْ؟ اُنْظُـرُوا يَدَيَّ وَرِجْلَيَّ: إِنِّي أَنَـا هُـوَ! جُسُّـونِي وَانْظُـرُوا، فَـإِنَّ الـرُّوحَ لَـيْسَ لَـهُ لَحْـمٌ وَعِظَـامٌ كَـمَا تَـرَوْنَ لِي». وَحِـينَ قَـالَ هـذَا أَرَاهُـمْ يَدَيْـهِ وَرِجْلَيْـهِ. وَبَيْـنَمَا هُـمْ غَـيْرُ مُصَـدِّقِينَ مِـنَ الْفَـرَحِ، وَمُتَعَجِّبُـونَ، قَـالَ لَهُـمْ: «أَعِنْـدَكُمْ هاهُنَـا طَعَـامٌ؟» فَنَـاوَلُوهُ جُـزْءًا مِـنْ سَـمَكٍ مَشْـوِيٍّ، وَشَـيْئًا مِنْ شَهْدِ عَسَل. فَأَخَذَ وَأَكَلَ قُدَّامَهُمْ).

أقول: قـد يقـال: إنَّ هـذه القصَّـة لم تـرد لتبديـد تـوهُّم أنَّ يسـوع هـو إلـه متجسِّـد، كـما يـرىٰ رايت، بـل حتَّـىٰ يؤكِّـد يسـوع لتلامذتـه أنَّـه لم يكـن هـو المصلـوب، وأنَّـه لم يقُـم بعـد موتـه،

وطبخ للفطور عند الشاطئ[١]، ودعوته لـ (توما Thomas) أن يمسّه[٢] وأمثال ذلك. ووفقاً لهذه النَّظرية، فإنَّ المسيحيِّين في نهايةِ القَرْن الأوَّل كانوا قد بدأوا يعتقدون بأنَّ يسوع لم يكن إنساناً بحقٍّ، أي إنَّه لم يكن في الواقعِ رجُلاً حقيقياً، ولذا قامَ لوقا ويوحنَّا بتأليفِ هذه القصص في تلكَ المرحلة للقولِ: نعم، هو في الواقعِ كان إنساناً، ويسوع المبعوث كان له شكلٌ جسَديٌّ (أو صورةٌ جسَديةٌ) في الواقع، وما إلىٰ ذلك.

ولم يتروْحَن، لأنَّه ما زالَ حيّاً من لحمٍ وعظام، وحتَّىٰ يؤكِّد لهم هذه الحقيقة، أكلَ أمامَهُم شيئاً من السَّمك والعسل. بالتالي لا يمكن استخدام هذه القصَّة كشاهدٍ علىٰ قيامة يسوع. (المراجع).

(١) راجع إنجيل يوحنّا، الإصحاح ٢١: ٤ - ١٤.

أقول: وحال هذه القصَّة حال قصَّة السَّمك المشوي، لذا لم أذكرها لعدم الإطالة. (المراجع).

(٢) هذه هي عبارات إنجيل يوحنّا، التي تتحدَّث عن إيمان توما بعد رؤيته ليسوع، الإصحاح ٢٠: ٢٧ - ٢٩: (أَمَّا تُومَا، أَحَدُ الاثْنَيْ عَشَرَ، الَّذِي يُقَالُ لَهُ: التَّوْأَمُ، فَلَمْ يَكُنْ مَعَهُمْ حِينَ جَاءَ يَسُوعُ. فَقَالَ لَهُ التَّلاَمِيذُ الآخَرُونَ: «قَدْ رَأَيْنَا الرَّبَّ!». فَقَالَ لَهُمْ: «إِنْ لَمْ أُبْصِرْ فِي يَدَيْهِ أَثَرَ الْمَسَامِيرِ، وَأَضَعْ إِصْبِعِي فِي أَثَرِ الْمَسَامِيرِ، وَأَضَعْ يَدِي فِي جَنْبِهِ، لاَ أُومِنْ». وَبَعْدَ ثَمَانِيَةِ أَيَّامٍ كَانَ تَلاَمِيذُهُ أَيْضًا دَاخِلاً وَتُومَا مَعَهُمْ. فَجَاءَ يَسُوعُ وَالأَبْوَابُ مُغَلَّقَةٌ، وَوَقَفَ فِي الْوَسْطِ وَقَالَ: «سَلاَمٌ لَكُمْ!». ثُمَّ قَالَ لِتُومَا: «هَاتِ إِصْبِعَكَ إِلَىٰ هُنَا وَأَبْصِرْ يَدَيَّ، وَهَاتِ يَدَكَ وَضَعْهَا فِي جَنْبِي، وَلاَ تَكُنْ غَيْرَ مُؤْمِنٍ بَلْ مُؤْمِنًا». أَجَابَ تُومَا وَقَالَ لَهُ: «رَبِّي وَإِلهِي!»، قَالَ لَهُ يَسُوعُ: «لأَنَّكَ رَأَيْتَنِي يَا تُومَا آمَنْتَ! طُوبَىٰ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَرَوْا»).

أقول: قد يقال: إنَّ هذه القصَّة لم ترد لتبديد توهُّم أنَّ يسوع هو إله متجسِّد، كما يرىٰ رايت، بل حتَّىٰ يؤكد يسوع لتوما أنَّه لم يكن هو المصلوب، وأنَّه لم يقُم بعد موتهِ، ولم يتروحن، لعدمِ وجود أثر الصَّلْب علىٰ يديهِ والطَّعنة في جنبه، وحتَّىٰ يؤكِّد له هذه الحقيقة، دعاهُ للنظر إلىٰ يديه، ومسَّ يديه وجنبه، فطوبىٰ لمن آمن بأنَّ الله قد أنجاه من خصومه اليهود دون أنْ يروا. بالتالي لا يمكن استخدام هذه القصَّة كشاهدٍ علىٰ قيامة يسوع. (المراجع).

المشكلةُ في هذه النَّظرية، والتي هي شائعة، أنَّ هذه القَصَص (حول طَبْخِ المسيح للفطورِ عند الشَّاطئ، كَسْرِ الخُبْز في عِمْواس، ودعوتِهِ لـ توما أنْ يمَسَّهُ... إلىٰ آخرِهِ) أنَّ يسوع فيها يأتي ويذهب عبْرَ الأبواب المغلقة، في بعضِ الأحيان يتمُّ تشخيصُ ذلك وفي أحيانٍ أُخرىٰ لا يتمُّ تشخيصُ ذلك، يظهَر ويختفي متىٰ ما شاء.

دعوني أضَع الأمرَ هكذا: لو أردْتُ أنْ أحْبِكَ قصَّةً، قُلْ، حدَثَت في سنةِ (٩٥م)، لأنِّي أعرفُ أنَّ بعضَ قومي كانوا غير واثقين من أنَّ يسوع رجلٌ واقعيٌّ (من لَحْمٍ ودم)، فسوفَ أضَع الموادَّ اللازمة كلَّها لإقناعِهِم بتلكَ القصَّة. إنَّه نحوٌ من (الغايةِ الشَّخصية).

من وجهةِ نظرٍ أُخرىٰ، إذا كنْتَ يهودياً في القَرْنِ الأوَّل، وأردْتَ أنْ تحوكَ قصَّةً عن المسيحِ الذي بُعث من جسدٍ ميِّتٍ، فالمَصْدرُ الطَّبيعي من الكتابِ المُقدَّس سيكونُ الإصحاح الثاني عشر من سِفْر دانيال[1]، الذي يُعدُّ واحداً من أكبرِ النُّصوص التي تتحدَّث عن القيامةِ بالنِّسبةِ ليهوديةِ الهيكل الثاني. يقولُ الإصحاحُ الثاني عشر بأنَّ الصَّالحينَ سوفَ يَلْمَعونَ مثل النُّجوم في مملكةِ الأب[2]. في الحقيقةِ، إنَّ يسوع استشهَدَ بهذه العبارة في الإصحاحِ الثالث عشر من إنجيل متّىٰ[3]. وما يزيدُ

---

(١) دانيال هو أحد الأنبياء الأربعة الكبار في التراث اليهودي المسيحي، والشخصية المركزية في سفر دانيال.

(٢) أُنظر سفر دانيال، الإصحاح الثاني عشر، ٣: (والفاهِمُونَ يُضِيئُونَ كضِياءِ الجَلَدِ). (المراجع).

(٣) أُنظر إنجيل متّىٰ، الإصحاح الثالث عشر، ٤٣: (حينئذٍ يُضيءُ الأبرارُ كالشَّمْسِ في ملكوتِ أبيهم). (المراجع).

أقول: لا يبدو لي عدم وجود تطابق بين العبارتين، وإنْ كان هناك تشابهاً بينهما.

الأمـرُ روعـةً، أنَّ يسـوع لم يكـن ليَظْهَـر كـنَجْمٍ يلمَـعُ في أيٍّ مـن روايـاتِ القيامة فيما لو كانوا قد حبكوا هذه القَصَص(١).

لذا، من خلالِ وجهتي النَّظَـر هـاتين، تبـدو صـورةُ يسـوع في قَصَـصِ القيامـة غريبـةٌ جـدَّاً جـدَّاً. فهـي صـورةٌ ليسـت كـما تتوقَّعهـا. وهـي صـورةٌ مخالفةٌ لمـا هـو موجـودٌ في القَصَـصِ اليهوديـة في ذلـك الزَّمـان. وهـي متَّسـقةٌ بنحـوٍ لافـتٍ مـع مـا ورَدَ في أناجيـلِ متّـىٰ ولوقـا ويوحنّـا (روايـةُ مِـرْقس أقصَـر بكثـير مـن أنْ تُمكِّننـا مـن معرفـةِ مـا إذا يمكـن أنْ يقولَـهُ فـيما لـو استرسَلَ وتحدَّثَ عـن ذلـك)، ولـذلك يبـدو أنَّ شـيئاً مـا غريبـاً قـد حَـدَث. يبدو الأمر كما لو كان الإنجـيليُّ (Evangelists) يريـدُ أنْ يقـولَ لنـا: (أنـا أعلَـم أنَّكُـم سـتجدونَ صـعوبةً في التَّصـديق، ولكـن هـذا مـا حَـدَثَ في الواقـع). شيءٌ ما اسـتثنائيٌّ قـد حـدَثَ، وتـرَكَ بصْـمَتَهُ في القَصَـص. النـاسُ لا يمكـن أنْ يختلقـوا هـذه الأُمـور مـن أذهـانِهم هكـذا. أيُّ شـخصٍ يكتُـبُ قصَصَـاً خيالية عن الفَصْح كان سيجعل يسوع أكثرَ وضوحاً.

دعوني أقـولُ شـيئاً هنـا. إذا أخـذْتَ قصَـصَ القيامـة في أناجيـلِ متّـىٰ، مِـرْقس، لوقـا، ويوحنّـا، مـن أصـلِها اليونـاني، وقارَنْتَهـا جَنْبـاً إلىٰ جنـب؛ فستجدُ أنَّهـا مختلفـةً جـدَّاً، حتَّـىٰ عنـدما يتحـدَّثونَ عـن قصَّـةِ النِّسـاء نفسِـها الـلَّاتي ذهـبْنَ إلىٰ القـبر. إنَّهـم يسـتخدمونَ كلـماتٍ مختلفـةٍ مـرَّةً بعـد أُخـرىٰ. لذا يبدو كما لو لم ينْسَخ أحدُهُم من الآخر.

(المراجع).

(١) الأمـرُ المحـيِّر أنَّ المـوارد التـي ذكرهـا رايـت مـن الظـاهر تمامـاً أنَّهـا تتحـدَّث عـن مصـير الأبرار الأُخـروي عمومـاً، ولا تتحـدَّث عـن مصـير المسـيح بالخصـوص، فلـماذا يـتمُّ ليِّ عُنُـق النصوص لتطبيقها علىٰ دعوىٰ قيامة المسيح؟ (المراجع).

الخاصِّيَّةُ الثانيـة: أنَّ هنـاكَ تقريبـاً غيابـاً شـبهُ كامـلٍ لصـدىٰ أو تلمـيح في العهـدِ القـديم عـن قَصَـصِ القيامـة. في قَصَـصِ الصَّـلْب (crucifixion)، يبدو واضحاً أنَّ قصَّةَ موت يسوع كانـت قـد قيلـتْ مـراراً وتكـراراً مـن قِبَـلِ المجتمـع المسـيحي المُبكِّـر، وحياكَتُهـا منسـجمةٌ مـع المَزْمـورِ الثـاني والعشـرين مـن المـزامير (Psalm)[١]، والإصـحاح الثالـث والخمسـين مـن سِـفْرِ أشـعيا (Isaiah)[٢]، وسِـفْر زكريـا (Zechariah)[٣]، وبقيَّـة تلميحـات العهد القديم في قصَّـةِ الصَّـلْب، حتَّـىٰ في قصَّـةِ الـدَّفْن. ولكـن عنـدما تنتقـلُ إلىٰ الصَّـفحةِ التـي تليهـا، إلىٰ قصَّـةِ القيامـة، لا تجـدُ ذلـك في أناجيـلِ متّـىٰ، مرْقس، لوقا، ويوحنّـا. (ونُـذكِّر أنفُسَـنا بـأنَّ بـولس كـان قـد قـالَ في رسـالتِهِ إلىٰ كورنْثُـوس الأُولىٰ، الإصـحاح الخـامس عشـر، أنَّ المسـيحَ قـد قـامَ مـن ميِّتٍ[٤] (وفقاً للنُّصـوص) أي حسَـب الكُتُـب، وبـولس كـان لديـهِ في أوائـلِ الخمسـينات مـن القَـرْنِ الأوَّل مسـتودعاً ثريَّـاً مـن نُصـوصِ العهـد القـديم التي من خلالها فسَّرَ القيامـة). لقـد كـان مـن السَّـهلِ جـدَّاً علىٰ متّـىٰ، الـذي عاشَ يحكي لنا عـن تحقُّـق نُبـوءات الـنَّص، أنْ يقـول: (هـذا قـد حـدَثَ كـذا

---

(١) يبدو أنَّه يقصـد الفقـرة (١٦) مـن هـذا المزمـور، التـي تقـول: (لأنَّـه قـد أحاطَـتْ بي كـلابٌ، جماعةٌ من الأشرارِ اكتنفَتْني، ثقبوا يدَيَّ ورِجْليَّ). (المراجع).

(٢) يبـدو أنَّـه يقصـد الفقـرة (٧) ومـا يليهـا مـن هـذا الإصـحاح، التـي تقـول: (ظُلِـمَ أمَّـا هـو فتذلَّلَ ولم يفتَح فاهُ. كشاةٍ تُساقُ إلىٰ الـذَّبحِ، وكنعجـةٍ صـامتةٍ أمـامَ جازيهـا فلـم يفـتَح فـاهُ). (المراجع).

(٣) لم يُحـدِّد رايـت في أيِّ إصـحاحٍ مـن سِـفْر زكريـا وردَ مـا يشـيرُ إلىٰ صَـلْب المسـيح، وقـد راجعتُ السِّفْرَ سريعاً ولم أجد إشارةً إلىٰ ذلك. (المراجع).

(٤) قـال بـولس في تلـك الرسـالة ٣ - ٤: (المسـيح مـاتَ مـن أجـلِ خطايانـا حسَـبَ الكُتُـبِ، وأنَّه دُفِنَ، وأنَّه قامَ في اليومِ الثالثِ حسَبَ الكُتُب). (المراجع).

تحقُّقـاً لنبـوءَةِ الـنَّصّ الـذي يقـول كـذا...). إلَّا أنَّ متّـىٰ لم يفعـل ذلـك. وبالمثل، فـإنَّ يوحنّـا يقـول: إنَّـه عنـدما ذهـبَ التلاميـذُ إلىٰ القَـبْر، لم يكونـوا يعرفـون الـنَّصّ الـذي يقـول: إنَّ المسـيحَ سـيُبعَثُ مـن جسـدٍ ميِّـتٍ. ولكـن يوحنّـا لم يستشـهد واقعـاً بهـذا الـنَّصِّ أو يقـول لنـا مـا هـو هـذا الـنَّصّ. وفي الطَّريـقِ إلىٰ عِمْـواس، تحـدَّثَ لوقـا عـن شَرْحِ يسـوع للنُّصـوص، لكـن مـرَّةً أُخـرىٰ لا يقـولُ لنـا لوقـا أيَّ شيءٍ عـن تلـكَ النُّصـوص أو مـا قالَـهُ يسـوعُ عنها[1].

هـذا أمـرٌ غريـبٌ جـدّاً. فإمَّـا أنْ نقـول: إنَّ الكنيسـةَ الأُولىٰ هـي التـي كتبَت قصَّـةَ القيامـة عـلىٰ غـرارِ مـا ورَدَ في العهـدِ القـديم، وأنَّ متّـىٰ ويوحنّـا ولوقا ومِـرْقس قـد اسـتندوا إلىٰ هـذه القَصَـص بنحـوٍ مسـتقلٍّ، أو أنْ نقـول: إنَّ هذه القصص تعودُ إلىٰ حَقْبَـةٍ قديمـةٍ جـدّاً في النَّقْـلِ الشَّـفهي التـي سـبقت التأمُّـل اللَّاهـوتي والتَّفسـيري (theological and exegetical reflection). في تقديري أنَّ القولَ الثاني هو الأرجحُ بدرجة كبيرة.

الخاصيَّةُ الثالثةُ الرَّائعـةُ لهـذه القَصَـص: هـو موقِـعُ المـرأةِ فيهـا (وهـذه نقطـةٌ معروفـة؛ لَسْـتُ أوَّل مـن يُنـوِّه إليهـا). في العصـورِ القديمـة، العَصْـرِ اليهـودي والـوثني، شـهادةُ المـرأةِ لم يكـن مـن الجـديرِ أنْ تُقبَـلَ بمحكمـةِ القانون. وفي زمنِ بـولس، قـامَ بالاستشـهادِ بالرِّوايـةِ المتداولـة عـن يسـوع في

---

(١) فوفقـاً لإنجيـل لوقـا، الإصـحاح ٢٤: ٤٤ - ٤٦، يشـيرُ يسـوع إلىٰ أنَّ ثَمَّـة نصـوص في أسـفارِ الأنبيـاء القديمـة تشـيرُ إلىٰ قيامـةِ المسيح، لكـن لم يُحـدِّد بالضَّـبط أيـن هـي تلـك النُّصـوص. فقـد جـاء هكـذا: (وَقَـالَ لَهُـمْ: «هـذَا هُـوَ الْكَـلاَمُ الَّـذِي كَلَّمْـتُكُمْ بِـهِ وَأَنَـا بَعْـدُ مَعَكُمْ: أَنَّهُ لاَ بُـدَّ أَنْ يَـتِمَّ جَمِيـعُ مَـا هُـوَ مَكْتُـوبٌ عَنِّـي فِي نَـامُوسِ مُوسَـىٰ وَالأَنْبِيَـاءِ وَالْمَـزَامِيرِ. «حِينَئِذٍ فَتَحَ ذِهْـنَهُمْ لِيَفْهَمُـوا الْكُتُـبَ. وَقَـالَ لَهُـمْ: «هكَـذَا هُـوَ مَكْتُـوبٌ، وَهكَـذَا كَـانَ يَنْبَغِـي أَنَّ الْمَسِيحَ يَتَأَلَّمُ وَيَقُومُ مِنَ الأَمْوَاتِ فِي الْيَوْمِ الثَّالِثِ). (المراجع).

رسالتِهِ الأُولىٰ إلىٰ كورِنْثوس، الإصحاح (١٥)، حيثُ قال: (فَإِنَّنِي سَلَّمْتُ إِلَيْكُمْ فِي الأَوَّلِ مَا قَبِلْتُهُ أَنَا أَيْضاً: أَنَّ المَسِيحَ مَاتَ مِنْ أَجْلِ خَطَايَانَا حَسَبَ الْكُتُبِ، وَأَنَّهُ دُفِنَ، وَأَنَّهُ قَامَ فِي الْيَوْمِ الثَّالِثِ حَسَبَ الْكُتُبِ، وَأَنَّهُ ظَهَرَ لِصَفَا ثُمَّ لِلاثْنَيْ عَشَرَ. وَبَعْدَ ذلِكَ ظَهَرَ دَفْعَةً وَاحِدَةً لأَكْثَرَ مِنْ خَمْسِمِئَةِ أَخ، أَكْثَرُهُمْ بَاقٍ إِلَىٰ الآنَ. وَلكِنَّ بَعْضَهُمْ قَدْ رَقَدُوا. وَبَعْدَ ذلِكَ ظَهَرَ لِيَعْقُوبَ، ثُمَّ لِلرُّسُلِ أَجْمَعِينَ. وَآخِرَ الْكُلِّ كَأَنَّهُ لِلسِّقْطِ ظَهَرَ لِي أَنَا). وهنا نرفَعُ أيدينا ونسألُ بولس: (المعذرة بولس، أينَ النِّساء؟). الجواب هو أنَّه في بدايةِ الخمسينات من القَرْنِ الأوَّل، لم تكن التقاليدُ تسمَحُ لأنْ توضَع النِّساء بالحُسْبان، لأنَّهم كانوا يعلمون أنَّهم إنْ فعلوا فسيكونون في ورطة. ونحنُ نرىٰ هذه الورطةَ عندما نقرأُ سيلسوس (Celsus)[1] وهو يصُبُّ جامَ غضَبِهِ علىٰ القيامةِ بقولِهِ: (هذا الإيمانُ مبنيٌّ علىٰ مجرَّدِ شهادة بعض النِّساء المجنونات).

لذا من المُدْهشِ أنَّنا نجدُ في أناجيلِ متّىٰ ومِرْقس ولوقا ويوحنّا

(١) وفقاً لاوريجانوس، سيلسوس كان المؤلِّف لعمَل ضدَّ المسيحية بعنوان (الكلمة الحقَّة). وكان هذا العملُ قد فُقِدَ، ولكن لدينا نصوص أُوريجانوس نفسه في كتاباته. وثبت أنَّ سيلسوس قد ألَّفَ (الكلمة الحقَّة) في الوقت الذي كانت المسيحية تُضطَهَدُ فيه، وفي الوقت الذي كان هناك علىٰ ما يبدو أكثر من إمبراطور. وباعتباره فيلسوفاً يونانياً كرَّسَ حياته ضدَّ المسيحية، فقد شنَّ سيلسوس هجوماً علىٰ (**المسيحية**)، وذكرَ سيلسوس أنَّ والدَ يسوع كان جندياً رومانياً يدعىٰ (**بانتيرا**). وأثارت وجهات نظر سيلسوس ردودُ فعل من (**أُوريجانوس**) الذي اعتبرها قصَّة ملفَّقة. وهذا الاتِّهامُ الجائر والفريةُ العظيمة نجدُها في التلْمود أيضاً، فهل أخذَهُ سيلسوس من التلْمود؟ أم أنَّ التلْمود هو الذي اقتبسَ هذه الاتِّهامات من سيلسوس؟ هذا بحاجةٍ إلىٰ مزيدٍ من البحث. (المراجع).

ذكراً لمريم المجدلية (Mary Magdalene)[١]، وبقيَّةِ المرايم (جمْعُ مريم)، ونساء غيرهُنَّ. ومن بين كلِّ الناس، مريمُ المجدلية (ونحنُ نعلمُ أنَّ لها مهنة متقلِّبة جدَّاً في الماضي) تمَّ اختيارُها كشاهدةٍ رئيسية، لذا تجِدُها في المصادرِ الأربعة. ونحنُ كمُؤرِّخين مُلْزمونَ بالتَّعليقِ علىٰ ذلك بأنَّ هذه القَصَص لو كانت قد اختُلِقَت بعد خَمْسِ سنوات، ناهيك عن ثلاثين أو أربعين أو خمسين سنة، ما كان لمريم المجدلية أنْ تلعَبَ فيها هذه الدَّور. من وجهةِ نظَر المدافعين عن المسيحية الذين يريدون إقناع الجمهور المُتشكِّك بأنَّ يسوع قد بُعِثَ من جسدٍ ميِّتٍ، إدخالُ مريم المجدلية في هذه القَصَص مثل من يُطلِق النار علىٰ قدَميه. لكن بالنِّسبةِ لنا كمُؤرِّخين، هذا من قبيلِ التُّراب الذَّهبي (أي نقطة لها قيمة تاريخية كبيرة). (لا يمكن للمسيحيِّين الأوائل أنْ يختلقوها مطلقاً، مطلقاً). القَصَص - التي تتحدَّث عن عثورِ النُّسْوة علىٰ قبرٍ خالٍ ثمَّ بعد ذلك يلْتقونَ بيسوع المبعوث - يجبُ التعامل معها علىٰ أنَّها صحيحةٌ تاريخياً[٢].

الخاصّيَّةُ الرَّابعة والأخيرة لهذه المواقف: وهنا أتحدَّثُ بوصفي مُبشِّراً مارَسَ التَّبْشير في كلِّ يوم فَصْح لمدَّةِ خمسٍ وثلاثين سنة.

---

(١) مريم المجدلية من أهمّ الشخصيات المسيحية المذكورة في العهد الجديد، وتُعتَبر من أهمّ النساء من تلاميذ المسيح، والشاهدة علىٰ قيامته، وأوَّل الذاهبين لقبره حسب ما ذكره الإنجيل.

(٢) انصافاً، لا شكَّ أنَّ الاستشهاد بشهادةِ النساء، ووضعهنَّ كما وصف رايت، مؤشِّرٌ علىٰ توفُّر قَدْرٍ من المصداقية في تلك الرُّوايات. لكن هذه الرُّوايات لا تدُلُّ علىٰ أمرين:

الأوَّل: أنَّهُنَّ لم يكُنَّ في حالةِ توهُّمٍ وهلوسة.

والثاني: أنَّ يسوعَ قد قام، بل يبقىٰ من المحتمل أنَّ الجسد قد سُرِقَ. وستعرفُ الموقف الأقرب للمعقولية، فانتظر. (المراجع).

المُبشِّرونَ وفقاً للتقاليدِ الغربيةِ، الذين يُبشِّرونَ في الفَصْحِ عن قيامةِ يسوع المبعوث من ميِّتٍ، يميلونَ إلىٰ التَّبشيرِ عن حياتِنا المستقبلية، وعن قيامتِنا نحنُ، وعن ذهابِنا إلىٰ السَّماء. ولكن في قَصَصِ القيامة في متّىٰ، مِرْقس، لوقا، ويوحنّا، لا نجدُ ذِكْراً لحياتِنا المستقبلية. علىٰ العكسِ من ذلك، فإنَّ بولس كان في كلِّ مرَّةٍ يتحدَّثُ فيها عن القيامةِ، يُشيرُ فيها إلىٰ حياتِنا المستقبلية أيضاً. في العبريةِ (Hebrews) قيلَ لنا عن قيامةِ يسوع وعن قيامتِنا المستقبلية؛ في كتابِ الوحي، مرَّةً أُخرىٰ، نجدُ ربطاً بين قيامتِنا نحنُ وقيامةِ يسوع. جاسْتِن الشَّهيد (Justin Martyr)[١]، أغناطيوس الأنطاكي (Ignatius of Antioch)[٢]، وإيريناوس (Irenaeus)[٣]، يتّفقونَ بالقولِ بأنَّنا (نحنُ نُفكِّرُ بقيامةِ يسوع، حتّىٰ ينعكسَ ذلك علينا).

ولكن متّىٰ، مِرْقس، لوقا، ويوحنّا لا يقولون: (إنَّ يسوعَ قد بُعِثَ، لذا نحنُ سنُبعَثُ في يومٍ ما). هم يقولون - وهذا مثيرٌ لتعجُّبِ

---

(١) القدّيس جاستن كان من المبشِّرين الأوائل، وهو أقدم الشارحين لـ(اللوجس) في القرن الثاني. استشهد مع تلامذته واعتُبِرَ قدّيساً للكنيسة الكاثيولكية.

(٢) أغناطيوس الملقَّب بالنوراني أو الأنطاكي والذي يُدعىٰ أيضاً ثيوفوروس (باليونانية: Θεοφόρος) أي حامل الإله، وهو قدّيس وأحد آباء الكنيسة، كان علىٰ الأرجح أحد تلامذة الرسولين بطرس ويوحنّا. هو ثالث أساقفة أو بطاركة أنطاكية بعد بطرس وإفوديوس الذي توفّي حوالي سنة (٦٨م).

(٣) القدّيس إيرينيئوس (القرن الثاني الميلادي - نحو عام ٢٠٢م) هو أُسقف مدينة لوغدونوم في بلاد الغال، ثمّ أصبح علماً وجزءاً من الإمبراطورية الرومانية (الآن هي مدينة ليون، بـ(فرنسا)). وكان القدّيس إيرينيئوس أحد أشهر آباء الكنيسة الأوائل ومن أهمّ المدافعين عن العقيدة المسيحية، وكانت كتاباته تقويمية خلال فترة بداية انتشار ونموّ علم اللّاهوت المسيحي.

الناس -: (إنَّ يسوعَ بُعِثَ، لذا هو واقعاً كان المسيح). مخلوقُ الإلهِ الجديد قد بدأ. ولدينا مهمَّةٌ لا بدَّ أنْ نُؤدِّيها. وماذا بعد؟ نحنُ نجدُ أنفُسَنا نميلُ إلىٰ عبادةِ يسوع هذا، لأنَّا وجَدْنا أنَّه قد جسَّدَ إلهَ إسرائيل، خالقَ الكون.

بعبارةٍ أُخرىٰ: هذه القَصَصُ، كما نجِدُها في الإناجيل، تعودُ إلىٰ طريقةٍ بدائيةٍ في سَرْدِ القصَّة التي لم تُقَل من قبل: (إنَّ يسوعَ قد بُعِثَ، لذا فإنَّنا سوف نُبعَث)، وهو ما نجِدُهُ واضحاً في بولس بدءاً من أواخرِ الأربعينات. لذا فنحنُ نستنتجُ أنَّ هذه القصَصَ تعود إلىٰ ما قبل بولس، إلىٰ الزَّمنِ الذي نرىٰ فيه الكنيسةَ المبكِّرة جدَّاً جدَّاً تُديرُ صَدْمةَ هذا الحدث غير المُتوقَّع بشكلٍ كاملٍ للقيامةِ وتستنتجُ مدلولاتَهُ[1].

من كلِّ ما سَبَق نصِلُ إلىٰ عدَّةِ استنتاجات. حتَّىٰ نتمكَّن من تفسيرِ صعودِ نجم المسيحية في بدايتِها، وحتَّىٰ نستطيع تفسير وجود القيامة في المصادرِ (الأناجيل) الأربعة بالإضافةِ إلىٰ بعضِ الفقرات في سِفْرِ أعمال الرُّسُل وبولس، علينا أنْ نقول: إنَّ الكنيسةَ المبكِّرةَ جدَّاً كانت بالفعل تعتقدُ أنَّ يسوعَ بُعِثَ جسدياً من ميِّتٍ. وليس لدينا أدلَّة علىٰ أنَّ المسيحيِّين الأوائل كانوا قد اعتقدوا بخلافِ ذلك. ولكن كيف يُمكِنُنا كمُؤرِّخين تفسيرُ ذلك؟

من الواضحِ، أنتَ كمسيحي بمقدورِكَ أنْ تختصِرَ علىٰ نفسِكَ الحُجَّةَ وتحسِمَ الأمر عند أيِّ نقطة. الكثيرُ من المسيحيِّين فعلوا ذلك،

---

(١) لا يبدو لي في الأمر غرابة، فالرَّبطُ بين الإيمان بقيامة يسوع، كمدخلٍ أو دليلٍ للإيمان بالقيامةِ العامَّة، لم يتمّ إلَّا في وقتٍ متأخِّر، بعدما تطوَّرَ اللَّاهوت (علم الكلام) المسيحي لاحقاً. (المراجع).

وهـو أمـرٌ مخجـلٌ في الواقـعِ، لأنَّـه تفـريطٌ بنقطـةٍ حيويـة. النـاسُ عـادةً يقولون: (بالتأكيد، لقـد كـان هـو ابـنُ الإلـه. وكـان باسـتطاعتِهِ أنْ يفعَـلَ أيَّ شيءٍ. وهذا أمرٌ عقلانيٌّ، أليس كذلك؟).

لكنَّني لا أُريـدُ أنْ أفعـلَ ذلـك، وإنَّـما أُريـدُ أنْ أكـونَ وفيَّـاً للنُّصـوص، التـي لا تقـولُ ذلـك. علينـا أنْ نسـأل: كيـف يمكـنُ تفسـير هـذه الظَّـاهرة الاسـتثنائية، حقيقـة النشـأة المبكِّـرة للكنيسـةِ في المقـامِ الأوَّل، آخـذينَ بالاعتبـار شـكلَها المُحـدَّد جـدَّاً، وتـداولها لقَصَـصٍ محُـدَّدةٍ جـدَّاً؟ لقـد اكتشـفتُ، كباحـثٍ عـن تفسـيرٍ تـاريخي، أنَّ هنـاك شـيئينِ لا بـدَّ أنَّهـما قـد وقعا:

١ - كان هنـاك قـبرٌ خـالٍ[1]، وكـان معروفـاً أنَّـه هـو القـبرُ الصَّـحيح، ولا يمكنْ أنْ يكونَ خطأً.

٢ - هنـاك ظهـورٌ مُتكـرِّرٌ (appearances) ليسـوعِ المَبْعـوث[2]. مـن

---

(١) وهذا مـا رأينـاهُ واضـحاً في الأناجيـل الأربعـة، حيـث نقلنـا المقـاطع الدَّالَّـة عـلىٰ خلـوِّ القـبر من الجسد. (المراجع).

(٢) والتعـدُّد الـوارد في الأناجيـل ورسـائل بـولس، لشـهود كُثُـر شـاهدوا يسـوع بعـد حادثـة الصَّلْب والدفن، هي كما يلي:

١ - ظهورُهُ لمريم المجدلية (إنجيل مرقس ١٦: ٩).

٢ - ظهورُهُ لبعض النساء التلميذات (إنجيل متّىٰ ٢٨: ٩).

٣ - ظهورُهُ ليعقوب (رسالة بولس الأُولىٰ لكورنثوس ١٥: ٧).

٤ - ظهورُهُ لبطرس (رسالة بولس الأُولىٰ لكورنثوس ١٥: ٥).

٥ - ظهورُهُ للتلميذين اللذين كان ذاهبين إلىٰ عمواس (إنجيل لوقا ٢٤: ١٥ - ٣١).

٦ - ظهـورُهُ لسـبعةٍ مـن التلاميـذ الـذين كـانوا يصـطادون في بحـر الجليـل (إنجيـل يوحنّـا ٢١: ١ - ٢٨).

٧ - ظهـورُهُ للتلاميـذ العشـرة، وفي هـذه المـرَّة لمسـوا يسـوع وجسُّـوهُ، وأكـلَ أمـامهم،

المُؤكَّد أنَّ هذين الشَّيئين قد حدثا.

لماذا؟ لأنَّه إنْ كان هناك قبرٌ خالٍ ولم يكن ثَمَّة ظهورٌ متكرِّر، فإنَّ أيَّ إنسانٍ في العالَمِ القديم كان سيصِلُ إلىٰ نتيجةٍ واضحةٍ (واضحة لهم حتَّىٰ لو لم تكن كذلك بالنِّسبةِ لنا) مفادُها أنَّ الجَسَدَ قد سُرِقَ. لقد كان من المعتاد سرْقةَ القبور، وخاصَّة إذا كان الموتىٰ من الأغنياءِ أو المشْهورين؛ فقد يكون هناكَ جواهر، أو شيءٌ ما يستحقُّ السَّرقة. لذا كان الناسُ سيقولون ما قالَتْهُ مريم (المجدلية): (أخذوا السيِّدَ من القَبْرِ، ولَسْنا نعلَمُ أينَ وضَعوهُ!)(١). وما كانوا ليتكلَّموا أبداً عن القيامةِ، إنْ كان كلُّ ما حدَثَ هو أنَّهم وجدوا القبرَ خالياً.

وبالمثل، لا يُمكِنُكَ تفسيرُ المعطيات التاريخية التي رأيناها، من خلالِ القول بأنَّ تلامذتَهُ لا بدَّ أنْ كانت لديهم خبرةٌ من نوعٍ ما جعلَتْهُم

فأثبتَ لهم أنَّهم لا يرون رؤيا أو هلوسة، بل يرون حقَّاً يسوع بلحمهِ ودمهِ (إنجيل لوقا ٢٤: ٣٦ - ٤٣).

٨ - ظهورُهُ للأحد عشر تلميذاً في الجليل (إنجيل متّىٰ ٢٨: ١٦ - ١٧).

٩ - ظهورُهُ للأحد عشر تلميذاً، وتوما معهم، ولم يكن توما موجوداً في المرَّةِ السَّابقة التي ظهرَ فيها يسوع للتلاميذ، ولذلك شكَّ ولم يؤمن إلَّا لـمَّا ظهرَ لهم يسوع وتوما معهم (إنجيل يوحنّا ٢٠: ٢١ - ٢٨).

١٠ - ظهورُهُ لخمسمائة من المؤمنين (رسالة بولس الأُولىٰ لكورنثوس ١٥: ٦).

١١ - ظهورُهُ للأحد عشر تلميذاً فوق جبل الزَّيتون عند رفعِهِ إلىٰ السَّماء (أعمال الرسل ١: ١ - ١٢).

أقول: هذا التعدُّد إنْ صحَّ، فسيجعل احتمال رؤيتهم ليسوع في الواقع كبيراً، لكن هذا لا يعني أنَّ يسوع قد قامَ من قبره، بل يمكن تقديم تفسير آخر أقرب إلىٰ المعقولية، فانتظر. (المراجع).

(١) إنجيل يوحنّا، الإصحاح العشرون، ٢.

يَلْتقونَ بيسوع. كانوا قد عرفوا بأنَّ يسوعَ قد قُتِلَ. لكن هم يعرفونَ جميعاً عن الهَلْوسةِ والأشباحِ والرُّؤىٰ. الأدبُ القديمُ - اليهودي والوثني علىٰ السَّواء - مليءٌ بمثلِ هذه الأُمور. هذه الأُمورُ تعودُ إلىٰ زمنِ هوميروس (Homer)؛ ونجِدُها في شعرِ فيرجيل (Virgil)[1]، وهي موجودةٌ في كلِّ مكان. مؤخَّراً، بعضُ الناسِ حاولَ، من بابِ الجدل، أنْ يقول: إنَّ القيامةَ لا يمكن أنْ تكون قد وقعت، شيءٌ من هذا القبيل: (حسناً، عندما يموتُ الذين تُحِبُّهم، ففي بعضِ الأحيان ستعيشُ خبرةَ أنَّهم معكَ في الغرفة، يَبْتسمونَ لك، وربَّما حتَّىٰ يتحدَّثونَ إليك؛ وفجأةً سيختفونَ مرَّةً أُخرىٰ. ولعلَّ هذا ما حدَثَ لهؤلاءِ التلاميذ). وهذا صحيحٌ، إنِّني قرأْتُ بعضَ الأدبيات حولَ ذلك. هذه الظَّاهرةُ مُوثَّقةٌ كجُزءٍ من حالةِ الحُزْن، ويمكِنُكَ أنْ تُفسِّرَها كما يحلو لك. ولكن الكنيسةُ التي يُمثِّلُها (المسيحيون الأوائل يعرفون عن هذه الظَّاهرة كما نعرف). هم يعرفون جيِّداً أنَّ هناك شيئاً من هذا القبيل؛ هلوسة وأشباح أو رؤىٰ وما إلىٰ ذلك.

بعبارةٍ أُخرىٰ: إذا كانت لهؤلاءِ خبرة، حتَّىٰ لو بدَت واضحةً، بأنَّهم مع يسوع، لكن القبرُ لم يكن خالياً، كانوا سيقولون: (يا إلهي لقد كانت خبرةً قويَّةً جدًّا، لكن يسوع بالتأكيد لم يُبعَث من جسدٍ ميِّتٍ، لأنَّ أجسادَ الموتىٰ لا تُبعَث (إلىٰ أنْ تُبعَثَ كلُّ الأجسادِ الميِّتة في النِّهاية)، وعلىٰ أيِّ حال، ها هو جسَدُهُ في القبر).

عند هذه النُّقطة، نحن بحاجةٍ إلىٰ أنْ نُذكِّرَ أنفسَنا بالطريقةِ التي

---

(١) فيرجيل (٧٠ ق.م - ١٩ ق.م) شاعر روماني.

يدفن بها اليهودُ موتاهُم في تلك الأيّام. معظمُ اليهودِ في فلسطين في ذلك الزَّمان يدفنونَ موتاهُم علىٰ مرحلتين. في المرحلةِ الأُولىٰ، أنتَ تلُفُّ الميِّتَ بكفنٍ مع كمّيةٍ وافرةٍ من الطِّيب، ثمَّ تضعهُ في لَحْدٍ في قبرٍ صَخْري، أو حتَّىٰ تضعهُ في سردابِ منزل. أنتَ لا (تدفن) الميِّت علىٰ الطريقةِ التي يقومُ بها الناسُ في العالَمِ الغربي المعاصر، في قبرٍ محفورٍ في الأرضِ ويملأ، لأنَّكَ ستعودَ يوماً ما لجَمْعِ العِظام بعدما يتحلَّل كلُّ الجسَد، لتضعَها في صندوقٍ وتحتفظ به إمَّا في نعشٍ أو في مكانٍ آخرَ ملائم.

النُّقطةُ هنا هي، أنَّ جسَدَ يسوع لو كان موجوداً في القبر، لكان من السَّهلِ علىٰ التلاميذ أنْ يجدوه. ولكانوا قالوا: (رغمَ قوَّة هذه الهلاوس التي انتابَتْنا، إلَّا أنَّ جسدَهُ لم يُبعَث) (لوجودِ الجسد في القبر). لذا علينا كمُؤرِّخين أنْ نقول: إنَّ القبرَ واقعاً لا بدَّ أنَّه كان خالياً، وهم واقعاً لا بدَّ أنَّهم رأوه، أو قُلْ إنْ شئت: التقوا بشخصٍ ما اكتشفوا أنَّه هو يسوع، حتَّىٰ وإنْ بدأ أنَّه قد تحوَّلَ بنحوٍ غريبٍ بطريقٍ كان مثيراً بالنِّسبةِ إليهم وطريقٍ نجدُهُ نحنُ كقُرَّاء شديدَ الغموض.

والآن نأتي إلىٰ الحركةِ الأخيرةِ في مباراةِ الشَّطرنج. كيف يُمكِنُنا، كمُؤرِّخين، أنْ نُفسِّر الحقيقتين اللَّتين ذكرتُهُما: القبرَ الخالي والظُّهورَ المُتعدِّد ليسوع؟ التَّفسيرُ الأسهلُ لذلك، هو أنَّ هذه الأُمور قد حدثت لأنَّ يسوعَ بالفعل بُعِثَ من جسَدٍ ميِّتٍ، وأنَّ التلاميذَ قد التقوا واقعاً بيسوع، حتَّىٰ لو كان جسَدُهُ قد تمَّ تجديدُهُ وتحويلُهُ بنحوٍ كان بمقدورهِ أنْ يبقىٰ معه حيَّاً في بُعْدين في آنٍ واحد (هذا، في الحقيقةِ، هو ربَّما الطَّريقُ الأفضلُ لفهمِ ظاهرة أنَّ يسوعَ الآن يعيشُ في بُعْدٍ إلهيٍّ وفينا، أو قُلْ إنْ شئت: في السَّماءِ وفي الأرض، في آنٍ واحد).

قيامــةُ المســيح في الحقيقــةِ تُزوِّدُنــا بتفســيرٍ (مُــرْضٍ) للقَــبْرِ الخــالي واللِّقــاءاتِ المتعــدِّدة مــع يســوع. بعــد اختبــار كــلِّ الفرضيات الأُخــرىٰ الممكنــة، أعتقــدُ أنَّ هــذا التَّفســير لــيس ممكنــاً فحســب، بــل (ضروريٌّ) أيضاً[1].

---

(١) التَّفسيرُ الأسهل والأكثر معقوليةً للقبرِ الخالي والظُّهور المُتعدِّد ليسوع، ليس هو قيامته، كما يدَّعي رايت، بل هذا هو التفسيرُ الأضعف والأبعد عن المعقولية، وإنْ لم يكن مستحيلاً علىٰ من يؤمن بقُدرةِ الله المطلقة علىٰ إحياءِ الموتىٰ. فإحياءُ الميِّتِ أمرٌ غيرُ مألوفٍ أبداً، والإثباتُ التاريخي لوقوع أمر غير مألوف، بحاجةٍ إلىٰ مؤونةٍ أكبر من الأدلَّةِ والشَّواهد، وفقاً لحسابِ الاحتمالات.

وفي تقديري هناك تفسيران أقرب وأكثر معقوليةً، فيما لو صحَّت تلك النُّقُولات:

التفسيرُ الأوَّل: أنَّ كلَّ من ادَّعىٰ رؤيةَ يسوع حيَّاً بعد حادثةِ الدَّفن، كان قد أُصيبَ بحالةٍ من الهلوسةِ والتوهُّم، وهي حالةٌ مألوفةٌ تماماً - وموثَّقةٌ عِلْمياً - تقعُ للإنسانِ عندما يفقدُ حبيباً له ويشعُر برغبةٍ جامحةٍ في الالتقاءِ به. وتفسيرُ خُلُوِّ القبر من الجَسَد، أنَّه قد سُرِقَ من طرفٍ ما، فسرْقةُ الأجسادِ كانت عادةً مألوفةً.

هذا التفسيرُ ينسجمُ مع الايمانِ بأنَّ يسوع قد صُلِبَ فعلاً، وهو ما ذهَبَ له أغلبُ نُقَّاد العهد الجديد، ممَّن تجرَّدَ من الميولِ الإيمانية المُسْبقة.

التفسيرُ الثاني: أنَّ يسوع لم يُصلَب أصْلاً، وإنَّما صُلِبَ شخصٌ آخر، وتوهَّمَ بعضُ الشُّهود أنَّه هو يسوع، لذا ظَهَرَ لبعضِ مُحبِّيهِ حتَّىٰ يُثبِتَ لهم أنَّه ما زالَ علىٰ قيدِ الحياة، وأنَّه لم يكن هو الشَّخصَ المَصْلوب. وتفسيرُ خُلُوِّ القبر من الجسد، أنَّه قد سُرِقَ من طرفٍ ما من مصلحتِهِ أنْ لا ينكشِفَ أنَّ المصلوبَ المدفون لم يكن هو يسوع.

هذا التفسيرُ ينسجمُ مع ما ذكرَهُ القرآنُ بأنَّهم ﴿مَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ﴾ (النساء: ١٥٧).

وبعد دراسةِ التاريخ الرُّوماني، وعلاقة الرُّومان باليهود في الأرض المقدَّسة، المحتلَّة آنذاك من قِبَلِ الرُّومان، وعلاقة يسوع وتلامذته بالرُّومان، والاطِّلاع الدَّقيق علىٰ الأناجيل، أجِدُ أنَّ السِّيناريو الأقرب والأكثر معقوليةً - باختصارٍ شديد - هو أنَّ بيلاطُس (الحاكم الرُّوماني لأُورشليم) كان قد استبدلَ يسوع بشخصٍ آخر (بعدما

اقتيد إلىٰ قَصْرِ الحكومة)، ثمَّ أظهرَهُ بهيئتِهِ، وأوهمَ اليهود بأنَّه هو، وقامَ بصَلْبِهِ، بعدما أُصيبَ اليهود بحالةٍ هستيريةٍ من الغَضَبِ علىٰ يسوع، حتَّىٰ إنَّهم هدَّدوا بيلاطُس بأنَّهم سيفضحونَهُ عند القيصر ويُشكِّكون بولائِهِ له إنْ لم يقم بصَلْبِ يسوع، بعدما اتَّهموا يسوع بأنَّه يدَّعي أنَّه ملِكُ اليهود (وهي تهمةٌ سياسيةٌ تنطوي علىٰ تحدٍّ خطير لسُلْطةِ القيصر)، ففعلَ بيلاطُس ما فعل كي يحمي نفسَهُ، وسلَّمَ الجسَدَ المَصْلوب ليوسُف الرَّامي (الذي كان من أعضاءِ مجلس السَّنهدرين اليهودي، وكان تلميذاً ليسوع في السِّرِّ)، فقامَ يوسُف الرَّامي بدفنِ جَسَد المصلوب. ثمَّ سرعانَ ما سحَبَ بيلاطُس الجسَدَ المصلوب من القبر (الذي كان محميَّاً من قِبَل جنودِهِ)، حتَّىٰ لا ينكشفَ أمرُهُ (وأمر يوسُف الرَّامي)، وأطلَقَ سراح يسوع خِفْيةً، طالباً منه عدمَ إظهارَ نفسِهِ لأعدائِهِ.

فاستنقذَ بيلاطس نفسَهُ من كيدِ اليهود من ناحية، ولم يستجِب لرغباتِهِم من ناحيةٍ ثانية، وأوهمَهُم بأنَّه قد نفَّذَ تلك الرَّغبات من ناحيةٍ ثالثة، فأطفأَ بذلك لهيبَ الغضب المشتعل في صُدُورهم كالمِرْجَل.

أمَّا مُحِبّو يسوع، فبينَ مؤمنٍ بأنَّ الله قد (أنجاهُ) من اليهود بعدما ظَهَرَ لهم بلحمِهِ ودمِهِ (وكان قد أوصلَ إليهم خبرَ أنَّه سيسبقُهُم إلىٰ الجليل، لأنَّ أُورشليم باتت محلَّاً شديدَ الخطورة عليه)، وبينَ من توهَّمَ أنَّه (قام) من قبرِهِ، بعدما شاعَ صَلْبُهُ ووُجِدَ القبرُ خالياً. ولم يكن بمقدورِ الطائفة الأُولىٰ تبديد وهم الطائفة الثانية، لأنَّ حال نجاة يسوع سينكشف لليهود، وسيعودُ مطلوباً لهم ما دامَ علىٰ قيدِ الحياة، وسيتمُّ وَضْع بيلاطُس ويوسف الرَّامي في وضعٍ حرجٍ للغاية، لذا اضطرُّوا للتكتُّم قدرَ الإمكان.

هذا التكتُّم أدَّىٰ إلىٰ سريانِ إشاعة قيامة يسوع. ولم يتمّ (رفع) يسوع إلَّا وكانت هذه الإشاعة قد أخذت مأخذَها (بعد أربعين يوماً، أُنظر أعمال الرُّسُل ١: ٣)، وبدأت تبلُغُ الذَّروة في مداها، ثمّ صارت لاحقاً سبباً لاشتعالِ تعاطُفِ الناس مع مظلوميةِ يسوع، وتنفُّرهم الشَّديد من اليهود.

أمَّا رؤساء الكهنة والشُّيوخ اليهود، المُحرِّضون علىٰ قتلِ يسوع، فقد فوجئوا بسرْقةِ الجسد، لكن لم يكن بمقدورهم اتِّهام بيلاطُس (رغمَ ارتيابِهِم بتعاطُفِهِ مع يسوع)، لأنَّه في الظَّاهر نفَّذَ طلبَهُم، واستجابَ لهم بصَلْبِهِ، لذا اتَّهموا تلامذةَ يسوع بسرقةِ جسدِهِ، لتفسيرِ خلوِّ القبر من الجسدِ حفظاً لماءِ وجوهِهِم أمامَ قواعدهم الشَّعبية. ثمَّ صاروا

* * *

علىٰ مرِّ التاريخ، يفتخرون بارتكابهم لجريمةٍ لم يُمكِّنهم اللهُ من ارتكابها. والطَّريف أنَّهم صاروا وما زالوا يدفعونَ ثمناً باهظاً لتلك الجريمة! فظَهَرَ بذلك مكرُ الله باليهود علىٰ يدِ بيلاطُس بمعونةِ يوسف الرَّامي.

والآن طالما أنَّ اليهودَ قد استعانوا بالوثنيِّين (الرُّومان) للتخلُّصِ من يسوع الإسرائيلي، لذا قرَّرت السَّماء أنَّ الأوانَ قد حانَ لكَسْرِ القيد، ونَشْرِ الدَّعوة إلىٰ التوحيد في كلِّ أرجاء العالَمَ الوثني، وعلىٰ أوسعِ نطاق. لذا طَلَبَ يسوع من التلاميذ عندما رآهم أنْ يُبشِّروا الخليقة كلَّها بكلمة التوحيد ورسالتِهِ. وسرعانَ ما صارَ هذا العالَمُ الوثني (الرُّوماني وغيرُهُ) شجىٰ في حَلْقِ اليهود علىٰ مرِّ التاريخ.

أمَّا مهمَّة تبديد إشاعة قيامة يسوع، فلم تكن أولوية قصوىٰ بالنِّسبةِ إلىٰ التلاميذ الذين انتشروا في أرجاءِ العالَمَ للتَّبشير (فالمهمُّ هو أنَّ اللهَ تعالىٰ قد خلَّصَهُ من كيدِهِم)، لأنَّه لم يطرأ ببالِهِم أنْ تتطوَّرَ هذه الإشاعة وتتدحرج ككرةِ الثلج، خلالَ قَرْن أو قَرْنين، ليتمَّ تشييد لاهوت مسيحي علىٰ أساسِها، تحميهِ كنيسة، ينتهي إلىٰ التأليهِ والتَّثليث. وإنَّما كانت الأولويةُ بالنسبةِ إليهم، بكلِّ عفوية، نَشْر كلمة التوحيد والتبشير برسالةِ المسيح.

أمَّا من هو المصلوبُ واقعاً، فهذا ما لا يمكنُ الجزْمُ به، وفقاً لمعطياتِ التاريخ، فمن قائلٍ: إنَّه سمعان القيرواني، وقائلٍ بأنَّه يهوذا الأسخريوطي، واللهُ تعالىٰ أعلم. (المراجع).

أنتوني فلو: تأمّلات ختامية

أنا معجبٌ جـدّاً بمقاربـةِ الأُسـقُف رايـت، فهـي جديـدةٌ تماماً[1]. إنَّـه يعرضُ الموقفَ المسيحي كـما لـو كـان شـيئاً جديـداً يُطـرَحُ لأوَّلِ مـرَّة. وهـذا مهـمٌّ جـدّاً، خصوصـاً في المملكـةِ المتَّحـدة، التـي يكـادُ الـدِّينُ المسـيحي أنْ يختفي منها. من المؤكَّدِ أنَّ هذا شيءٌ رائعٌ وراديكالي.

هل يمكـن أنْ يكـونَ هنـاك وحـيٌّ مُقـدَّس؟ كـما قُلْـتُ، لا يمكنـك أنْ تحـد مـن قـدراتِ الإلـه الـذي هـو عـلىٰ كـلِّ شيءٍ قـدير إلَّا إذا كـان ذلـك مستحيلاً من الناحيةِ المنطقية[2]. كلُّ ما عـدا ذلـك هـو مفتـوحٌ أمـامَ إلـهٍ عـلىٰ كلِّ شيءٍ قدير.

Notes:

Chapter ١ :THE CREATION OF AN ATHEIST

١. G. E. M. Anscombe, The Collected Papers of G. E. M. Anscombe, vol. ٢, Metaphysics and the Philosophy of Mind (Minneapolis: University of Minnesota Press, ١٩٨١), x.

---

(١) ظهر لـك مـن التعليقـات السـابقة أنَّ مقاربـة رايـت زاخـرة بـالثغرات، وليسـت كـما يصـف (فلو). (المراجع).

(٢) مـن الجميـل ربـط (فلـو) الـوحي والنبـوة العامَّـة بقُـدرةِ الإلـه. وهـذا يُـذكِّرنا بقولـهِ تعـالىٰ: ﴿وَمـا قَـدَرُوا اللهَ حَـقَّ قَـدْرِهِ إِذْ قـالُوا مـا أَنْـزَلَ اللهُ عَلى بَشَــرٍ مِـنْ شَيْءٍ﴾ (الأنعـام: ٩١). (المراجع).

Chapter ٢: WHERE THE EVIDENCE LEADS

١. Michael Dummett, Truth and Other Enigmas (Cambridge, MA: Harvard University Press, ١٩٧٨), ٤٣١.

٢. I. M. Crombie, "The Possibility of Theological Statements," in Faith and Logic, ed. Basil Mitchell (London: Allen & Unwin), ٥٠.

٣. Crombie, "The Possibility of Theological Statements," ٧٣, ٧٢.

٤. Raeburne Heimbeck, Theology and Meaning (London: Allen & Unwin, ١٩٦٩), ١٢٣, ١٦٣.

٥. Eric L. Mascall, The Openness of Being (Philadelphia: Westminster, ١٩٧١), ٦٣.

٦. J. L. Mackie, The Miracle of Theism (Oxford: Clarendon, ١٩٨٢), ١.

٧. Frederick C. Copleston, Philosophers and Philosophies (London: Search Press, ١٩٧٦), ٧٦.

٨. Anthony Kenny, Faith and Reason (New York: Columbia University Press, ١٩٨٣), ٨٦.

٩. Kai Nielsen, review of The Presumption of Atheism by Antony Flew, Religious Studies Review ٣ (July ١٩٧٧): ١٤٧.

Chapter ٣: ATHEISM CALMLY CONSIDERED

١. Gerald Schroeder, "Has Science Discovered God?" http://science. lenicam.com.

٢. Richard Dawkins, The Selfi sh Gene (New York: Oxford

University

Press, ١٩٧٦), x.

Chapter ٤: A PILGRIMAGE OF REASON

١. Albert Einstein, Out of My Later Years (New York: Philosophical Library, ١٩٥٠), ٥٨.

٢. David Conway, The Rediscovery of Wisdom (London: Macmillan,

٢٠٠٠), ٧٤.

٣. Conway, The Rediscovery of Wisdom, ٢–٣.

Chapter ٥: WHO WROTE THE LAWS OF NATURE?

١. Stephen Hawking, A Brief History of Time (New York: Bantam, ١٩٨٨), ١٧٥, ١٧٤.

٢. Gregory Benford, “Leaping the Abyss: Stephen Hawking on Black Holes, Unified Field Theory and Marilyn Monroe,” Reason ٤,٠٢ (April ٢٠٠٢): ٢٩.

٣. Albert Einstein, quoted in Timothy Ferris, Coming of Age in the Milky Way (New York: Morrow, ١٩٨٨), ١٧٧.

٤. Antony Flew, God and Philosophy (New York: Dell, ١٩٦٦), ١٥.

٥. Max Jammer, Einstein and Religion (Princeton, NJ: Princeton University Press, ١٩٩٩), ٤٤.

٦. Jammer, Einstein and Religion, ٤٥.

٧. Jammer, Einstein and Religion, ٤٥–٤٦.

٨. Jammer, Einstein and Religion, ٤٨.

٩. Jammer, Einstein and Religion, ١٥٠. ٢١٨

١٠. Jammer, Einstein and Religion, ٥١.

١١. Jammer, Einstein and Religion, ١٤٨.

١٢. Albert Einstein, Lettres a Maurice Solovine reproduits en facsimile et traduits en francais (Paris: Gauthier-Vilars, ١٩٥٦), ١٠٢–٣.

١٣. Albert Einstein, Ideas and Opinions, trans. Sonja Bargmann (New York: Dell, ١٩٧٣), ٤٩.

١٤. Einstein, Ideas and Opinions, ٢٥٥.

١٥. Jammer, Einstein and Religion, ٩٣.

١٦. Albert Einstein, The Quotable Einstein, ed. Alice Calaprice (Princeton, NJ: Princeton University Press, ٢٠٠٥), ١٩٥–٦.

١٧. For the most part, these quotations are taken from Roy Abraham Varghese, The Wonder of the World (Fountain Hills, AZ: Tyr, ٢٠٠٣).

١٨. Werner Heisenberg, Across the Frontiers, trans. Peter Heath (San Francisco: Harper & Row, ١٩٧٤), ٢١٣.

١٩. Werner Heisenberg, Physics and Beyond (San Francisco: Harper & Row, ١٩٧١), excerpted in Timothy Ferris, ed., The World Treasury of Physics, Astronomy and Mathematics (New York: Little, Brown, ١٩٩١), ٨٢٦.

٢٠. Erwin Schrödinger, My View of the World (Cambridge: Cambridge University Press, ١٩٦٤), ٩٣.

٢١. Max Planck, Where Is Science Going? trans. James Murphy (New York: Norton, ١٩٧٧), ١٦٨.

٢٢. Max Planck, quoted in Charles C. Gillespie, ed., Dictionary of Scientific Biography (New York: Scribner, ١٩٧٥), ١٥.

٢٣. Paul A. M. Dirac, "The Evolution of the Physicist's Picture of Nature," Scientifi c American ٢٠٨, no. ٥ (May ١٩٦٣): ٥٣.

٢٤. Charles Darwin, The Autobiography of Charles Darwin ١٨٠٩-١٨٨٢, ed. Nora Barlow (London: Collins, ١٩٥٨), ٩٢–٣.

٢٥. Paul Davies, Templeton Prize Address, May ١٩٩٥, http://aca. mq.edu.au/PaulDavies/prize_address.htm. See also Davies's "Where Do the Laws of Physics Come From?" (٢٠٠٦), http://www. ctnsstars.org/ conferences/ papers/Wheredothelawsofphysicscomefrom.doc.

٢٦. John Barrow, Templeton Prize Address, March ١٥, ٢٠٠٦, http://www.templetonprize.org/barrow_statement.html.

٢٧. John Foster, The Divine Lawmaker: Lectures on Induction, Laws of Nature and the Existence of God (Oxford: Clarendon, ٢٠٠٤), ١٦٠.

٢٨. Richard Swinburne, "Design Defended," Think (Spring ٢٠٠٤): ١٤.

٢٩. Paul Davies, "What Happened Before the Big Bang?" in God for the ٢١st Century, ed. Russell Stannard (Philadelphia: Templeton Foundation Press, ٢٠٠٠),

Chapter ٦: DID THE UNIVERSE KNOW WE WERE COMING?

١. Freeman J. Dyson, Disturbing the Universe (New York: Harper & Row, ١٩٧٩), Also cited in John Barrow and Frank Tipler, The Anthropic Cosmological Principle (Oxford: Clarendon, ١٩٨٨), ٣١٨.

٢. John Leslie, Infi nite Minds (Oxford: Clarendon, ٢٠٠١), ٢١٣.

٣. Leslie, Infi nite Minds, ٢٠٣–٥.

٤. Martin J. Rees, "Numerical Coincidences and 'Tuning' in Cosmology," Astrophysics and Space Science ٢٨٥ (٢٠٠٣): ٣٧٦.

٥. Rees, "Numerical Coincidences and 'Tuning' in Cosmology," ٣٨٥.

٦. Paul Davies, "Universes Galore: Where Will It All End?" http://aca.
mq.edu.au/PaulDavies/publications/chapters/Universesgalore.pdf.

٧. Richard Swinburne, "Design Defended," Think (Spring ٢٠٠٤): ١٧.

٨. Rees, "Numerical Coincidences and 'Tuning' in Cosmology," ٣٨٦.

٩. Davies, "Universes Galore: Where Will It All End?"

١٠. Martin Rees, "Exploring Our Universe and Others," in The Frontiers of Space (New York: Scientifi c American, ٢٠٠٠), ٨٧.

Chapter ٧: HOW DID LIFE GO LIVE?

١. Antony Flew, God and Philosophy (Amherst, NY: Prometheus,

٢٠٠٥), ١١.

٢. Richard Cameron, "Aristotle on the Animate: Problems and Prospects," Bios: Epistemological and Philosophical Foundation of Life Sciences, Rome, February ٢٣–٢٤, ٢٠٠٦.

٣. John Haldane, "Preface to the Second Edition," in Atheism and Theism (Great Debates in Philosophy), J. J. C. Smart and John Haldane (Oxford: Blackwell, ٢٠٠٣), ٢٢٤.

٤. David Conway, The Rediscovery of Wisdom (London: Macmillan, ٢٠٠٠), ١٢٥,٢٢٠

٥. David Berlinski, "On the Origins of Life," Commentary (February ٢٠٠٦): ٢٥, ٣٠–٣١.

٦. Carl Woese, "Translation: In Retrospect and Prospect," RNA (٢٠٠١): ١٠٦١, ١٠٥٦, ١٠٦٤.

٧. Paul Davies, "The Origin of Life II: How Did It Begin?" http://aca.
mq.edu.au/PaulDavies/publications/papers/OriginsOfLife_II.pdf.

٨. Andy Knoll, PBS Nova interview, May ٣, ٢٠٠٤.

٩. Antonio Lazcano, "The Origins of Life," Natural History (February ٢٠٠٦).

١٠. John Maddox, What Remains to Be Discovered (New York: Touchstone, ١٩٩٨), ٢٥٢.

١١. George Wald, "Life and Mind in the Universe," in Cosmos,

Bios, Theos, ed. Henry Margenau and Roy Abraham Varghese (La Salle, IL: Open Court, ١٩٩٢), ٢١٨.

Chapter ٨: DID SOMETHING COME FROM NOTHING?

١. "Something Good," music and lyrics by Richard Rodgers, ١٩٦٥.

٢. Stephen Hawking, A Brief History of Time (New York: Bantam, ١٩٨٨), ١٧٤.

٣. Antony Flew, "Stephen Hawking and the Mind of God" (١٩٩٦), http://www.infi dels.org/library/modern/antony_fl ew/hawking.html.

٤. Hawking, A Brief History of Time, ٩.

٥. Antony Flew, "The Legitimation of Factual Necessity," in Faith, Scepticism and Personal Identity, ed. J. J. MacIntosh and H. A. Meynell (Alberta: University of Calgary Press, ١٩٩٤), ١١١–١٧.

٦. David Conway, The Rediscovery of Wisdom (London: Macmillan, ٢٠٠٠), ١١١–١٢.

٧. Richard Swinburne, The Existence of God (Oxford: Clarendon, ٢٠٠٤), ١٤٢.

٨. Richard Swinburne, "The Limits of Explanation," in Explanation and Its Limits, ed. Dudley Knowles (Cambridge: Cambridge University Press, ١٩٩٠), ١٧٨–٧٩.

٩. John Leslie, Infi nite Minds (Oxford: Clarendon, ٢٠٠١), ١٩٤–

٩٥.

١٠. Stephen Hawking, Black Holes and Baby Universes (New York: Bantam, ١٩٩٣), ١٧٢.

١١. Leslie, Infi nite Minds, ١٩٣–٩٤.

١٢. Swinburne, The Existence of God, ١٥٢.

Chapter ٩: FINDING SPACE FOR GOD

١. John Gaskin, "Gods, Ghosts and Curious Persons," unpublished paper.

٢. Thomas F. Tracy, God, Action and Embodiment (Grand Rapids, MI: Eerdmans, ١٩٨٤), ١٤٧, ١٥٣. See also The God Who Acts, ed.

Thomas F. Tracy (University Park: Pennsylvania State University Press, ١٩٩٤).

٣. Brian Leftow, personal conversation with the author, Oriel College, Oxford University, October ٢٠٠٦.

٤. David Conway, The Rediscovery of Wisdom (London: Macmillan, ٢٠٠٠), ١٣٤.

❊ ❊ ❊

الفهرست

* * *